

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية
فرع البلاغة



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٦٦٤١

الوجوه البيانية في القصة النبوية وأسرارها الدقيقة

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة

إعداد

الطالبة/ فوزية بنت عبد الله بن سند العصيمي

إشراف

سعادة الأستاذ الدكتور

عبد العزيز أبو سريع ياسين

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

ملخص الدراسة

الوجوه البيانية في القصة النبوية وأسرارها الدقيقة

درجة الماجستير في البلاغة والنقد لعام ١٤١٩ / ١٤٢٠ هـ

أدرك الرسول ﷺ أثر القصة في النفوس ، فاحتذاها في بيانه الكريم كأسلوب من أهم أساليب الدعوة ، وأجاد استعماله بما أبدع في قصصه من وسائل وصور بيانية للمعاني ، من أجل وضوح الفكرة وإبرازها في صور رائعة مؤثرة كشفاً لحقائق الدين ، وتصويراً لمكونات النفوس ، وتحليلاً للدوافع النفسية . . . ومن ثم رأيت في بحثي هذا أن أستجيب لما قادتني إليه القصة النبوية في نظمها الكريم من هذه الصور والوسائل ، مستأنسة في ذلك برأي الشيخ عبد القاهر الجرجاني في أن قيمة النظم البلاغي في مراعاته الخصوصيات والمزايا التي تتطلبها الفكرة ويوجبها الأداء الفني للمعاني . . . وقد جاءت خطة البحث على النحو التالي :

التمهيد : (القصة بين المجالين الديني والأدبي) أثبت فيه أصالة الفن القصصي في الأدب العربي . . كما أثبت أن للقصة النبوية أغراض وأهداف ومضامين دينية .

الباب الأول : الوجوه البيانية في القصة النبوية وبيان أسرارها الدقيقة من حيث الفكر البلاغي القديم . ويحتوي على أربعة فصول هي :

الفصل الأول : التشبيه : ويبحث في صور التشبيه التي استوعبتها القصة النبوية .

الفصل الثاني : المجاز العقلي : ويبحث في سر الإسناد المجازي في القصة النبوية إلى السبب أو الزمان . . الخ .

الفصل الثالث : المجاز اللغوي ، وقسمته إلى قسمين :

(أ) المجاز المرسل : وأهم ملامساته التي اشتملت عليها القصة النبوية وأثرها في تحقيق أهدافها .

(ب) المجاز بالاستعارة : ويدرس صور الاستعارة وتقسيماتها التي اشتملت عليها القصة النبوية .

الفصل الرابع : الكناية : ويبحث في أقسام الكناية المصطلح عليها عند علماء البيان ، والتي أجاد المصطفى عليه الصلاة والسلام استعمالها للتبليغ والتأثير ثم الإقناع .

الباب الثاني : الوجوه البيانية في القصة النبوية وبيان أسرارها الدقيقة من حيث البناء النقدي الحديث . . أثبت فيه أن للقصة النبوية ألواناً مميزة من ناحية البناء الفني ، حيث وجدت تفاوتاً في أهمية عناصر البناء القصصي الكريم بحسب طبيعة كل قصة وهدفها ؛ ومن هنا رأيت أن أجعل تلك الألوان فصولاً أربعة لهذا الباب على النحو التالي :

الفصل الأول : الحوار القصصي .

الفصل الثاني : المثل القصصي .

الفصل الثالث : الخبر القصصي .

الفصل الرابع : القصة الطويلة .

وقد توصلت في بحثي إلى النتائج التالية :

إن القصة النبوية قصة دينية قبل كل شيء ، جاءت خاضعة للغرض الديني . كما أنها استوعبت أغلب صور التشبيه التي عرفها علماء البلاغة . . . وأنها لم تلجأ إلى الإسناد المجازي إلا للتأكيد على صدور الفعل عن الفاعل الحقيقي . فضلاً عن قدرتها على تجسيم المعاني وتصوير الخواطر الذهنية ، خاصة فيما يتعلق بالغيبيات . . كما أن الصور الكنائية تصور الأحداث بجوامع الكلم ، لتترك إطناباً نفسياً يطوي تحته الكثير من المعاني ، مع وفائها بجمال التعبير والبعد عن البهرجة اللفظية أو المحسنات التي لا طائل تحتها .

عميد كلية اللغة العربية

الاسم: أ.د. صالح جمال بدوي

التوقيع :

المشرف على الرسالة

الاسم : أ.د. عبد العزيز أبو سريع ياسين

التوقيع :

الباحث

الاسم : فوزية بنت عبد الله بن سند العصيمي

التوقيع :

المقدمة

مقدمة

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين ، وأتم علينا النعمة ، وجعل أمتنا خير أمة ،
وبعث فينا رسولاً منا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة .

أحمده على نعمه الجممة ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له
شهادة تكون لمن اعتصم بها خير عصمة ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله
للعالمين رحمة ، وفرض علينا بيان ما أنزل إلينا ، وخصه بجوامع الكلم ، وفصل
الخطاب أدبه ربه فأحسن تأديبه ﴿وإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (١) وكانت
أقواله ﷺ نصوصاً رائعة في البلاغة وفي بيان الدين .

اللهم إنني أسألك الإخلاص في السر والعلن ، وكلمة الحق في الرضا
والغضب ، اللهم أعني على ما تسمو إليه هممتي ، واجعلني ممن همه الصدق ،
وبغيته الحق ، وغرضه الصواب وبعد :

فإن القصة شكل من أشكال التعبير الإنساني محبب إلى النفس كثيراً ،
وتتجلى فيه شتى النوازع والعواطف ، من خلال سرد حادثة معينة ، بأسلوب
يجذب الناس في أسماهم وأحاديثهم .

والإسلام يدرك هذا الميل الفطري إلى القصة ، ويدرك مالها من تأثير على
النفوس ، ولذا كانت من أهم الأساليب التي لجأ إليها القرآن الكريم في الجدل
والحوار ، وفي البشارة والإنذار ، وفي تمكين مبادئ الدعوة الإسلامية ، وفي
تسلية رسوله ﷺ عن كيد الكافرين له ، حيث قص الله عز وجل عليه أحسن
القصص ، فكان هذا القصص القرآني العظيم المثل الأعلى ، والنموذج الأوفى
لتعاقب البيان والدين .

(١) القلم : ٤ .

ولقد أدرك المصطفى ﷺ أثر هذا اللون من البيان فاحتذاه في بيانه الكريم، وترسم خطاه، ومن ثم كانت القصة في البيان النبوي أسلوباً مهماً من أساليب الدعوة^(١)، يحملها قيم الإسلام ومعانيه، ويربي عليها الصحابة - رضوان الله عليهم - ويوجههم - من خلالها - إلى استلهام هذا الدين عقيدة في الفكر والتصور، وطريقة في السلوك وواقع الحياة..

ولأن مهمته - عليه الصلاة والسلام - الأولى هي تبليغ الرسالة، والنفوذ بها إلى قلوب الناس، فقد اعتمد على سلاح قوي نفاذ، وأجاد استعماله بما أبدع في قصصه من وسائل وصور بيانية للمعاني أوسع مما تعارف عليه البلاغيون المتأخرون في علمهم البياني، من أجل وضوح الفكرة، وإبرازها في صور رائعة مؤثرة، كشفاً لحقائق الدين، وتصويراً لمكونات النفوس، وخبائيا الضمائر، وتحليلاً للدوافع النفسية المتباينة، ومن ثم رأيت في بحثي هذا أن أستجيب لما قادتنى إليه القصة النبوية في نظمها الكريم من هذه الصور والوسائل، فكان البيان لديّ بمعنى «صور المعنى في النظم البلاغي».

وأنا في هذا لا أنكر على البلاغيين المتأخرين كلامهم، وإنما أتجه إلى إمامهم الشيخ عبد القاهر الجرجاني الذي يرى أن قيمة النظم البلاغي في مراعاته الخصوصيات والمزايا التي تتطلبها الفكرة، ويوجبها الأداء الفني للمعاني^(٢)، وما للصور البيانية التي اصطلح عليها المتأخرون إلا كما قال شيخهم: «إن هذه المعاني - التي هي الاستعارة، والكناية، والتمثيل، وسائر ضروب المجاز من بعدها - من مقتضيات النظم، وعنه يحدث وبه يكون؛ لأنه لا يتصور أن يدخل

(١) لم يكن محمد ﷺ محترفاً لفن القصص يصول به مباحياً، بل هو نبي يعتمد على الصدق الملجم والإقناع المفحم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن بلاغته ﷺ إنما سخرت للدعوة الإسلامية وظهرت في مجالاتها، ولم تكن صناعة فنية يمارسها الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام في كل الأغراض والموضوعات كما يمارسها كل القصاص، بل إن الرسول عليه الصلاة والسلام ترفع عن كل ما لا يليق بمكانة النبوة السامية من الموضوعات والأساليب.

(٢) انظر كتاب «دلائل الإعجاز» ص ٣٥٩ - ٣٦٤، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي،

شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يُتوخَّ فيما بينها حكم من أحكام النحو . فلا يُتصور أن يكون هاهنا «فعل» أو «اسم» قد دخلته الاستعارة، من دون أن يكون قد أُلْف مع غيره . أفلا ترى أنه إن قُدِر في «اشتعل» من قوله تعالى ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ أن لا يكون «الرأس» فاعلاً له، ويكون «شيباً» منصوباً عنه على التمييز، لم يُتصور أن يكون مستعاراً، وهكذا السبيل في نظائر الاستعارة»^(١) .

هذا ولقد استفاد هذا البحث من كلام البلاغيين المتأخرين ومن دراسات من سبقه من الباحثين المحدثين حيث ارتأى أن يقوم بدراسة خاصة تحوي كلام البلاغيين المتأخرين للصور البيانية مع التمثيل لها بما هو خاص بهذا البحث - أعني القصص النبوي الكريم - ، أما مع الدارسين المحدثين فقد استفاد هذا البحث في ثنايا تحليلاته للقصة النبوية بأرائهم، خاصة في مجال تقسيم بناء القصة النبوية إلى حوار وخبر ومثل وقصة طويلة^(٢) . . . الخ .

ومالي أقتطف بعض حديث الخطة وقد حان الوقت لأقدمها، فأقول :

لقد قام هذا البحث على تمهيد وباين وخاتمة، وعلى النحو التالي :

التمهيد : (القصة بين المجالين الديني والأدبي) .

الباب الأول : الوجوه البيانية في القصة النبوية وبيان أسرارها الدقيقة من حيث الفكر البلاغي القديم .

الفصل الأول : التشبيه .

الفصل الثاني : المجاز العقلي .

الفصل الثالث : المجاز اللغوي :

أ) المجاز المرسل .

ب) المجاز بالاستعارة .

الفصل الرابع : الكناية .

(١) المرجع السابق، ص ٣٩٣ .

(٢) انظر كتاب «البيان النبوي»، د/ محمد رجب البيومي، ص ١٢٥ - ١٤٢، دار الوفاء، المنصورة،

الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

الباب الثاني : الوجوه البيانية في القصة النبوية وبيان أسرارها الدقيقة من حيث البناء النقدي الحديث .

الفصل الأول : الحوار القصصي .

الفصل الثاني : المثل القصصي .

الفصل الثالث : الخبر القصصي .

الفصل الرابع : القصة الطويلة .

ثم الخاتمة، وفيها مجمل لنتائج البحث .

هذا ، ومن الصعوبات التي واجهتني أنني لم أجد دراسة - قديمة أو حديثة - شاملة للقصة النبوية تأسست على مسائل علم البيان - خاصة - لا من حيث الفكر البلاغي القديم ، ولا الفكر النقدي الحديث ، في كتاب خاص يظهر روائع إبداعه عليه الصلاة والسلام ، ويوضح سمات أسلوبه ، بل كانت إشارات في كتب البلاغة إلى أمثلة من جوامع كلمه ، فكان اعتمادي على الله ثم على نفسي في كثير من مباحث هذه الدراسة ، حيث رأيت ألا أتناول نصاً من نصوص القصص النبوي قد تناوله باحث سابق إلا إذا كنت سأضيف إليه ، ومن هنا فإنه من فضل الله عليّ أن كثيراً من نصوص هذا البحث جديدة على التحليل البلاغي على الرغم من كثرة الكاتين قديماً وحديثاً في هذا المضمار - كما هو واضح من مراجع هذا البحث .

ولعل السبب الأول - بل والأوحد - وراء اختياري لهذا البحث ليكون موضوعاً لأطروحتي للماجستير هو حبي لرسول الله ﷺ ، وسعيي لتوظيف معارفي البلاغية لخدمة نظمه الكريم تقريباً إلى الله عز وجل من جانب ، وأملاً في شفاعته ﷺ يوم الدين من جانب آخر .

هذا ، وقد عشت مع قصصه الكريمة ﷺ في أمهات الكتب والمصادر الموثقة ، مثل : صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، والجامع الصحيح للترمذي ، وسنن ابن ماجه ، وسنن النسائي ، وسنن أبي داود ، وسنن الدارمي ، ومسند الإمام أحمد بن حنبل من أجل الوصول إلى نص موثق شديد التحقيق والدقة ، ولهذا لم يكن نص الحديث النبوي - مجال الدراسة عندي - إلا بدرجة الصحيح أو الحسن .

وإذا كان الفضل يذكر لأهله فيشكر، فإنه من الواجب هنا أن أتقدم
بجزيل الشكر والتقدير والعرفان للجهود التي كانت - وما زالت - تحتضن
متاعبي، وتشد عزمي، وتدفعني إلى الأمام: إلى والديّ، وأتجه إلى الله ضارعة
أن يمنحهما الله عز وجل الصحة والعافية، فلهما في عنقي ما لا أستطيع الوفاء
به، فجزاهما الله عني خير الجزاء.

ثم أتجه إلى الله عز وجل بخالص الدعاء بأن يغفر ويرحم ويجزل المثوبة
لأستاذي الدكتور/ علي العماري وأرجوه جلت قدرته أن يجعل عمله في
موازين حسناته فهو الذي احتضن البحث في خطته الأولى، وكانت استفادتي
منه كبيرة بالتوجيه والإرشاد والأناة التي يحتاجها كل مبتدئ لمثل هذا العمل، ثم
وفقني الله عز وجل بأستاذي الفاضل الدكتور/ عبد العزيز أبو سريع فرعى
البحث في مشواره الطويل، فكان لي خير مرشد، لقد كان يسد خطي هذا
البحث، ويقيل عثراته، بل كان يبذل التوجيه سخياً، ويقوم بالرعاية
مخلصاً... وكانت رحابة صدره، ودمائة خلقه التي توجهها تواضع جم، خير
مشجع لي على المضي معه في حوار جاد حول بعض وجهات النظر، وكان كثيراً
ما يدفعني إلى أن أبدي رأيي، وأن أوضحه... فجزى الله أستاذي عني خير
الجزاء..

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل مسئول ومشرف على الهيئات التالية:
- الرئاسة العامة لتعليم البنات التي أتاحت لي هذه الفرصة فابتعثتني
دارسة..
- جامعة أم القرى بمكة المكرمة..
- كلية اللغة العربية التي خرج هذا البحث في رحابها..
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

التمهيد

القصة بين المجالين الديني
والأدبي

القصة بين المجالين الديني والأدبي

ارتبطت القصة في أول نشأتها بالشعوب الإنسانية منذ بدايات حياتها، حينما أخذوا يتسامرون بسماع حكايات وأحداث من وحي معتقداتهم الدينية .

فالأمة اليونانية أول من أخذت بنصيب وافر من الفن القصصي، وأثر عنها فيض من ذلك الأدب الرفيع - وإن كانت وسيلتهم لعرضها قصائد الشعر - فقد كانت سجلاً لحضاراتهم، والتغني بأمجادهم، تنطق بذلك - على الأخص - أساطيرهم الدينية التي جسموا فيها الآلهة، ومظاهر الكون والطبيعة، فأضفوا على المعنويات أثواباً مادية، فبرزت بصور واضحة سهلة المأخذ .

وقد اتخذ الفن القصصي عندهم من الشعر قالباً فنياً شتملاً على ثلاثة أنواع هي (١): الشعر الديني الملحمي، والأدب الوجداني، والأدب الحماسي .

ويعتبر الشعر الملحمي في الأدب اليوناني هو أول أنواع الشعر من حيث التاريخ (٢) . وقد حفظت لنا الآثار التاريخية بعض قصائدهم الملحمية، أشهرها

(١) انظر «الأدب اليوناني القديم» د/ علي عبد الواحد وافي، ص ٦١، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٩م .

(٢) انظر «نظرية الأنواع الأدبية» سي فنست، ترجمة: حسن عون، ص ٣٩، المعارف، الاسكندرية، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٨م . لم يخرج الشعر الملحمي في موضوعه عن نطاق عقائدهم الدينية، ثم ما يتصل بنظمهم الاقتصادية .

قصيدتا الإلياذة والأوديسة^(١) . على أن حب المسرح استأثر - بعد ذلك - بأدباء اليونان ، فكان الأدب الوجداني الذي عاجلوا فيه قضاياهم الاجتماعية والفكرية والفنية .

واتخذت المسرحية اليونانية اتجاهين رئيسيين هما : المأساة والملهامة^(٢) . وقد انتهى بهم هذا الأدب إلى النزوع نحو النثر الفني^(٣) . ومن ثم كان اهتداؤهم إلى الفن القصصي^(٤) الذي نحن بصدد الحديث عنه .

والعرب أيضاً عرفوا الفن القصصي ، فالقصة العربية قديمة قدم الأمة العربية ذاتها «بل هي قوام الأدب العربي المنثور كله»^(٥) . كما هو الشأن في الأدب اليوناني . كل ما في الأمر أن الأدب العربي القديم استأثر فيه الشعر باهتمام الرواة حتى أغرى ذلك أعداء الأمة العربية بإنكار هذا الفن عليهم . . ونحن لانقيم وزناً

(١) تدور حوادثهما حول حياة الآلهة ، والخصومات العنيفة التي كانت تدور بينها ، واتخذتا من الشجاعة والقوة الجسدية مثلاً أعلى ، وتميزتا بالوحدة العضوية والموضوعية . يراجع كتاب «الأدب اليوناني القديم» ، ص ٦٦-٨٥ د/ علي عبد الواحد وافي ، وكتاب «محاضرات في تطور الأدب الأوربي» ص ٣٣-٣٨ د/ حسام الخطيب ، مطبعة النصر ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

(٢) تعالج المأساة الجانب الجدي من الحياة ، وتقوم فكرتها على علاقة الآلهة بالناس ، وخاصة طبقة النبلاء والأبطال .

أما الملهامة فتعالج قضايا اجتماعية عامة في صورة هزلية مضحكة . . ولارتباطها بمفاهيم عصرها وعاداته كانت أقل قدرة من المأساة على الاستمرار في التأثير في العصور اللاحقة . ينظر كتاب «محاضرات في تطور الأدب الأوربي» ص ٣٩-٤٤ ، د/ حسام الخطيب .

(٣) يعتمد النثر الفني على عنصر الخيال مع اختلاطه بالتاريخ الحقيقي ، كما يعتمد على ربط العنصر العاطفي بالأحداث سواء أكانت غيبية أو إنسانية . يراجع كتاب «النقد الأدبي الحديث» د/ محمد غنيمي هلال ، ص ٤٦٤ ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٩م . ومقال بعنوان «دراسة في فن القصة اليونانية» بقلم : محمد صقر خفاجة ، المجلة ، العدد : ٣٤ ، ص ٧٠-٧٦ ، ١٩٥٩م .

(٤) ينظر كتاب «النقد الأدبي الحديث» ، ص ٤٦٥-٤٩١ ، د/ محمد غنيمي هلال .

(٥) د/ محمد حسين هيكل ، ثورة الأدب ، ص ٧١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨م .

لأولئك (١) الذين يفترون على هذه الأمة كذباً بأنها لاتعرف القصص ، ولم تكن من أساليب تعبيرهم ؛ لأن الأمة العربية لم تكن أمة سطحية التفكير ، عقيمة الخيال ، عاجزة عن التعبير . بل كانت أمة بلاغة وفصاحة وبيان ، تغنوا بهذا البيان ، فنافروا وارتجزوا ، وقصدوا القصيد ، وضربوا الأمثال ، وساقوا الحكم ، وقدموا القصص ، وكتبوا الوصايا . ولقد جاء الإسلام والقدرة البيانية فيهم على أرقى المستويات ، فكان تحدي القرآن الكريم شاهداً على هذا البيان ، وتلك الفصاحة ، فلم يزل يقرعهم بعجزهم ، ويتقص شأنهم ، حتى تبين ذلك لضعفائهم وأقويائهم (٢)

لكن الذي نأسف له حقاً أن نرى من بني جلدتنا من يسير وراء هؤلاء الأفاكين يرددون أكاذيبهم ويحاول (٣) - يائساً - أن يجد بعض الشبه التي يزعم

(١) رفض المستشرق بلاشير الأدب الجاهلي جميعه شعراً ونثراً ، بدعوى التشكيك والاتحال ، وأنكر ماجاء في أمهات الكتب العربية . . . وادعى أنه ليس في الأدب العربي القديم من القصص ، والقصائد القصصية المطولة مثلما في تاريخ اليونان . «تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي -» ترجمة : إبراهيم الكيلاني ، ص ١٧٦ - ١٨٣ ، دار الفكر ، بيروت .

لكن المستشرق كارل بروكلمان كان منصفاً في هذه القضية ، وبين «أن الشاعر لم يكن وحده هو الذي تهفو إليه الأعين عند عرب الجاهلية ، بل كان القاص يقوم أيضاً مقاماً هاماً إلى جانب الشاعر في سمر الليل ، بين مضارب الخيام لقبائل البدو المتنقلة ، وفي مجالس أهل القرى والحضر . . . بل إنه يحدد مصادر قصصهم . . . يراجع كتاب «تاريخ الأدب العربي» ترجمة : عبد الحليم النجار ، ١٢٨/١ ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٤ م .

(٢) راجع حديث الباقلاني في إعجاز القرآن قديماً عن هذا الأمر ، وانظر تحليل المعاصرين له . «إعجاز القرآن» ، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، ص ١٦ - ٢٩ ، وص ٢٤٨ - ٢٥٣ ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثالثة . وفي تحليل المعاصرين لهذا الكتاب - على سبيل المثال - انظر كتاب «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» ، مصطفى صادق الرافعي ، ص ١٦٦ - ١٨٨ ، الطبعة الثالثة . وكتاب «دراسة الباقلاني للنظم القرآني في كتابه إعجاز القرآن . تحليل ونقد» ، د / عبد العزيز أبو سريع ياسين ، ص ٧٣ - ٨٠ ، الطبعة الأولى ، عام ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م .

(٣) لم يعتد الدكتور طه حسين بما جاء من أدب جاهلي - شعراً ونثراً - ولم يعتبر القصص الجاهلي فناً نثرياً جاهلياً ، وحجته في هذا الرأي تأخر التدوين ، وما رافق ذلك التدوين من وضع =

أنها أدلة على ما يقول من افتراء ، ومن هنا أجد من اللازم ، والواجب أن أوصل
لفن القصة في الأدب العربي في عجالة سريعة تناسب وتقديم هذا البحث الذي
يتعلق بهذا الفن ، فأقول وبالله التوفيق :

إن العربي لصيقٌ بأرضه التي نبت فيها ، فمنها استمد أسلوب حياته ،
ونظام معيشتته ، كما استمد عقليته وعواطفه وأخلاقه ولغته ، تلك اللغة التي
تتسم بالبعد عن التكلف ، والتعقيد ، سواء حين يتحدث عن عواطفه
وأحاسيسه ، أو حين يصور ما حوله في الطبيعة . . . فهو ينقل ما حوله نقلاً
أميناً يَبْقِي فيه على صورته الحقيقية ، ذلك أنه لا يعرف تبديل الحقائق ، ولا
التعديل في معانيها ، فهي حقائق تُسرد سرداً وإن شابها الخيال فلا يزيدا إلا
وضوحاً وجلاءً من غير تهويل ، ولا استرسال مع الأوهام ، عينه على الواقع ،
ومذهبه على هداه . يكفيه التلميح دون التصريح في عرض أفكاره ، دون زيادة
ولا إطالة ، ولا أدلّ على ذلك من اتخاذ الأمثال والحكم كفن من فنون القول ،
تنطوي على الكثير من الخبرات والآراء السديدة مع الإيجاز الرائع السديد ، كما
أنها تتضمن الكثير من القصص والحكايات . . . « وهذه الأمثال تُعد جذوراً
أصيلة ضاربة في أعماق تاريخ القصة العربية ؛ لاشتمالها على الكثير من
القصص الواقعية ، والتجارب الإنسانية التي عاشها الناس في المجتمع الجاهلي ،

= وانتحال . . . ومن هذا قوله : إن مؤرخ الآداب العربية خليق أن يقف موقف الشك - إن
لم يقف موقف الإنكار الصريح - أمام هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين ، والذي هو في
حقيقة الأمر تفسير أو تزيين لقصة من القصص ، أو توضيح لاسم من الأسماء ، أو شرح لمثل
من الأمثال . . . وكل ما يروى من أيام العرب وخصوماتها وما يتصل بذلك من الشعر خليق
أن يكون موضوعاً . . . وقال في موضع آخر من كتابه المذكور : . . . ستقول : وهذه
الخطب التي تضاف إلى وفود العرب عند كسرى ، وهذا السجع الذي يضاف إلى الكهان ،
وهذا الكلام الذي يضاف إلى قس بن ساعدة ، وهذه الحكم والوصايا التي تضاف إلى
حكمائهم وعظمائهم ماذا تصنع بها ؟ فنجيب : نرفضها من غير تردد ؛ لأنك تستطيع أن تقرأها
وتنظر فيها لتردها كلها إلى العصور الإسلامية التي نُحلت فيها . . . يراجع كتابه « في الأدب
الجاهلي » ، ص ١٤٨ - ١٥٩ ، و ص ٣٢٥ - ٣٣٣ ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة العاشرة . .

وصنعوا أحداثها ، وتلقفها الأبناء عن الآباء يتناقلونها جيلاً بعد جيل ، ويركزون على مواطن العبرة فيها فيستخلصونها ، ويصوغونها في العبارات الموجزة الدالة»^(١) ، فنفسهم أميل إلى الإيجاز في التعبير عن أفكارهم .

إن حياة العرب الأدبية تشهد بمعرفتهم للفن القصصي - وإن كان أغلبه في موجز الشعر - فلو أنعمنا النظر في الشعر الجاهلي لعثرنا فيه على أجزاء كثيرة من قصائد تتجلى فيها ملامح القصة ، وسماتها العامة ، وإن لم تؤلف في قصائد منفردة ، ولم تكن بالأسلوب القصصي الحديث ، وهذا أمرٌ طبعي تقتضيه حقائق الأشياء ، ونموها وتطورها ، فمن غير المعقول أن يقاس الفن القصصي القديم بمقاييس الفن الحديث ؛ وذلك لاختلاف القيم الشعورية والتعبيرية ، تبعاً لاختلاف البيئات والثقافات . . . ولكنها قصص بمعنى من المعاني ، أو هي سردٌ قصصي لحوادث معينة ، ففيها قصص البطولة الرائعة ، وقصص الوفاء والغدر^(٢) . وقصص الصراع في سبيل الخير وفي سبيل الشر جميعاً . . . وفيها تصوير لمآسي وقائعهم وحروبهم ، وما تجره عليهم من ويلات ودمار ، ثم تسجيلٌ لبادرة صلح وهدنة ؛ لحقن الدماء ، على نحو ما نجد في معلقة زهير بن أبي سلمى^(٣) . . . كما أن لهم استطرادات وصفية وقصصية خاصة عندما

(١) علي عبد الحليم محمود ، القصة العربية في العصر الجاهلي ، ص ٢٤٩ - ٢٥٢ ، دار المعارف ، مصر ، عام ١٩٧٥ م ، نقلاً عن جورج زيدان في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » .

(٢) كقصص وفاء السمؤال ووقوفه في وجه الحارث بن ظالم الغساني حين سولت له نفسه أخذ الدروع التي أودعت لديه أمانة ، والتي أشدها الأعشى يمدح شريح بن حصن بن عمران بن السمؤال بن عادي ، ومطلعها :

شُرَيْحٌ لَا تُتْرَكُنِي بَعْدَ مَا عَلِقْتُ حِبَالَكَ الْيَوْمَ بَعْدَ الْقَدِّ أَظْفَارِي
قَدْ طُفْتُ مَا بَيْنَ بَانِقِيَا إِلَى عَدَنَ وَطَالَ فِي الْعُجْمِ تَرْحَالِي وَتَسْيَارِي
فَكَانَ أَوْفَاهُمْ عَهْدًا ، وَأَمْنَهُمْ جَارًا أَبُوكَ بَعْرِفٍ غَيْرِ انْكَارِ

راجع ديوانه : ص ٦٩ - ٧٠ ، دار صادر ، بيروت .

(٣) مطلع المعلقة :

أَمِنْ أُمَّ أَوْفَى دِمَّةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةَ الدَّرَاجِ فَالْتَأَلَّمِ =

يصورون صراع الحيوان والطبيعة والإنسان ، نجد ذلك واضحاً عند عبيد بن الأبرص في قصته عن عقاب شبه بها ناقته^(١) . والنابغة الذبياني في قصته عن الثور والكلاب^(٢) . والمرقس الأكبر في حديثه عن الذئب^(٣) .

ولست هنا في مجال الإفاضة في دراسة هذه النماذج من القصص والأساطير^(٤) . فما ألمحت إلى بعضها إلا لأبين أن العرب عرفوا القصة ، وكل ما في الأمر أنها وردت في تضاعيف أشعارهم ، ولم تقص لغاية ، أو كفن مستقل ، بل كانت تتخذ وسيلة لأغراض أخرى ، كالفخر أو المدح أو الاعتذار أو الغزل . . إلخ .

= ودار لها بالرقمتين كأنها مراجيع وتشم في نواشر معصم

راجع ديوانه : ص ٧٤ - ٨٩ ، دار صادر ، بيروت . .

(١) مطلع القصيدة :

ريش الحمام على أرجائه للقلب من خوفه وجيب
قطعتة غدوة مشيحاً وصاحبي بادن خبوب

راجع ديوانه : ص ٢٧ - ٣٠ ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م . .

(٢) مطلع القصيدة :

كأن رحلي وقد زال النهار بنا يوم الجليل على مستانس وحد

راجع ديوانه : ص ٧٩ ، جمعه وشرحه : محمد الطاهر بن عاشور ، الشركة الوطنية للتوزيع ، الجزائر ، ١٩٧٦م . .

(٣) مطلع القصيدة :

أمن آل أسماء الطلول الدوارس يخطط فيها الطير ، ففر بسابس
ذكرت بها أسماء لو أن وليها قريب ولكن حبستني الحوابس
ومنزله ضنك لا أريد مبيتسه كائني به من شدة الروع أنس

يراجع كتاب « المفضليات » المفضل بن محمد الضبي ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون ، ص ٢٢٤ - ٢٢٧ ، بيروت ، الطبعة السادسة .

(٤) راجع دراسة ، د . علي النجدي ناصف ، في كتابه « القصة في الشعر العربي » ، فهي دراسة واسعة تجمع شتات هذا الموضوع . دار نهضة مصر .

وأيضاً النثر الجاهلي مجاله رحب ، فقد استوعب قصصاً كثيرة لكن لم يصل إلينا إلا النزر اليسير منه ، يؤكد ذلك قول صاحب العمدة : « قيل : ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره . » (١)

لقد كان العرب مشغوفين بالتاريخ والحكايات التي تدور حول أجدادهم وماضيهم ، وماثر قبيلتهم وأمجادهم ، وملوكهم ، وفرسانهم ، وشعرائهم . . . وكان القاص في مجالس السمر يلبي مطالب القوم ، ورغبتهم في الاستماع . . . فعرفوا الكثير من قصص الشعوب المجاورة ، وقصص الأمكنة ، كما عرفوا قصص الأقوام السابقة مع أنبيائهم . . . و (أيام العرب) من أشهر قصصهم التي تدور حول وقائعهم الحربية ، وكذلك كان بعضهم يلتقط ما يسمعه في رحلاته من قصص الآخرين فيحفظها ليسردها على قومه حين عودته ، كما فعل النضر بن الحارث الذي كان يخلف النبي ﷺ في مجلسه إذا قام ، ويدعو الناس إلى سماع قصصه عن ملوك فارس ورستم . . . وبالنظر إلى كتب السير والتاريخ والأدب واللغة ، نجدها تحمل بين طياتها الكثير من المرويات القصصية ، التي صُنفت إلى أنواع مختلفة (٢) .

والقرآن الكريم يحمل بين دفتيه عدداً من القصص كان بعضها معروفاً عند الجاهليين نحواً من المعرفة ، ولكنها كانت معرفة قاصرة أو شائثة . مثل قصص الأنبياء ، وقصص بعض الصالحين . . . فجاءهم القرآن الكريم بهذا القصص على وجهه ، وبتفصيل ما كان لهم أن يعرفوه إلا منه .

(١) ابن رشيقي القيرواني ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ٢٠ / ١ ، مطبعة السعادة ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م .

(٢) لتتعرف على هذه الأنواع يراجع كتاب « القصة العربية في العصر الجاهلي » ، ص ١٢٢ وما بعدها ، علي عبد الحلیم محمود .

لقد وردت كلمة القصة في الآيات القرآنية بعدة معان ، منها : قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ (٢) . وقوله تعالى : ﴿فَأَقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣) . وقوله تعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقِصَصِ﴾ (٤) . فكلمة القصة معروفة في لغة العرب ، بدليل أن أحداً من الصحابة لم يسأل النبي ﷺ عن معناها ، لمعرفة التامة بها . . . كما يتردد في أسلوب القرآن الكريم - حين خطابه للمشركين - كلمة « قالوا » وتردد كلمة « قل للرد على أقوال المشركين وهذا بالتالي يعني أن العرب قد عرفوا هذا الأسلوب - أعني أسلوب الحوار - فيما رووا من قصص وما عرفوا من حكايات . ويدل دلالة صادقة على واقع قصصي كانوا يعرفونه ، ويمارسونه ، وكانوا على علم به وبأثره في النفوس . .

إذن ليست القصة فناً محدثاً من القول ، ولا هي موهبة خاصة في الناس ، أوتيتها قوم وحرم منها آخرون ، إنها موهبة مشتركة لكل أمة منها نصيب يتفاوت شأناً وقدرًا . .

فالأدب العربي القديم مرآة للمجتمع العربي القديم استطاع أن يُعبر عنه بصدق ، وأن يكشف بجلاء خفايا النفس البشرية ، وما تنطوي عليه من منازع شتى ، وأن يصور حقائق الوجود بما يتناسب مع العقلية العربية آنذاك ، وأسلوب حياتهم ، فقد كان للطبيعة الصحراوية التي عاش عليها العرب ، وللعقيدة التي تدين بها عملٌ في تعيين حظها من القصص القديم . فأما الصحراء فذات طبيعة يغلب عليها السكون والاستقرار ، إضافة إلى ذلك أن العرب ألفوا حياة الظعن والترحال ، فكان مجتمعهم مجتمع القبيلة لا مجتمع الشعب والأمة ، حتى بعد

(١) هود : ١٠٠ .

(٢) الكهف : ١٣ .

(٣) الأعراف : ١٧٦ .

(٤) يوسف : ٣ .

أن تم لهم إنشاء المدن لم يكتب لحياتهم الاستقرار ، فقد كانوا متحفزين للرحلات الصيفية والشتوية ، ومن بعد ذلك الفتوحات . . .

وأما العقيدة فوثنية يسيرة ، لكنها غالبية ، قد حشد العربي كل طاقاته لإلهه المعبود . فهو لا يعرف آلهة تتصارع وتتوزع الكون ، وتمارس حياة الأرض . بل كانت من السذاجة أن العربي يصنع إلهه من العجوة ، وإذا جاع أكله
حقاً إن ذلك مخالف لما كان عليه الأدب اليوناني الذي انطوى على خرافات وأوهام وأساطير لها دعائم وطيدة من عقائد وثنية ، ومن تعدد آلهة ، وفيه تصوير لصفات وتصرفات الآلهة تصويراً يجعلها شبيهة بالبشر في الطباع وألوان السلوك . إضافة إلى الشطحات الخيالية التي تناقض الفطرة السوية كما تناقض بساطة الشعب العربي فالمعتقدات الدينية كانت الملهم الأول والأهم لأدباء اليونان .

من هنا أقول : إن فن القصة في الأدب العربي يختلف عنه في الأدب اليوناني . لقد استخدم العرب الفن القصصي لوناً من ألوان التعبير المواكب لحياتهم الاجتماعية والعقلية ، واستودعوه صفوة تجاربهم ، وحكمة أيامهم ، ومآثر قبيلتهم وأمجادهم ، وكانت نفوسهم تواقه لسماع القصص . والقاص يحقق لهم ما تهفو إليه نفوسهم .

والدين الإسلامي كان مدركاً لحقيقة هذا الأثر وقيمته فالقرآن حينما خاض معركة البلاغة مع العرب لم يزعجه أمر الشعر والشعراء في شيء لسبب أو لآخر (١) . إذ أنه اكتفى بأن وصمهم بأنهم (الغاوون) ، ولم يقارع

(١) ذكر فاروق خورشيد في كتابه « في الرواية العربية » جملة من هذه الأسباب ، أذكر منها :

١ - ربما كان الأمر أن الشعراء يمثلون طبقة معينة من التفكير وبالتالي قطاعاً معيناً من المجتمع ، جاء الإسلام ليقضي على جبروته وسطوته ، وعلى ما يتمتع به من حقوق موروثه جعلته يستبد بالحياة والناس جميعاً فالشعراء كانوا يتكسبون من مدح المترفين من أبناء الجزيرة ، وقد جاء الإسلام ليسوي بين الناس ، فبارسوق الشعر وأصبحت تجارتها خاسرة في عصر ينادي بالمساواة ، ويصرف جهد الناس وقدراتهم إلى نشر الدين والدفاع عن قضية الحق . =

الشعر ولم يحسب له حساباً . . . لكنه قارع الشر خاصة القصصي منه ، ذلك اللون الذي يملأ قلوب الناس وعقولهم ، ويمتد أثره إلى كل الفئات ، ينقلونه ويتناقلونه في إعجاب حقيقي . . .

إن هذا اللون من التعبير له خطره ، ليس في لفظه فحسب وإنما في مضمونه أيضاً . والقرآن كانت ولا زالت مهمته أن يتغلغل في قلوب الناس وعقولهم ؛ ليقطلع منها مفاهيم وأفكاراً ومثلاً خاطئة ، ويحل محلها مفهومات جديدة ، لذلك لجأ القرآن الكريم إلى القصص يستخرج منها العبر ، ويرسم بها المثل ؛ لمعرفة أنها السبيل الذي تهفو إليه النفوس ، وتستأنسه القلوب والعقول ، وهو في اتجاهه نحو القصص « إنما كان يسد حاجة فنية عند العرب ، ويحل تدريجياً محل فن قديم لديهم ، قارعه بنفس سلاحه وانتصر عليه . . . وقد قيل لبعض أصحاب النبي ﷺ : « ما كنتم تتحدثون به إذا خلوتم إلى مجالسكم ؟ قالوا : كنا نتناشد الشعر ، ونتحدث بأخبار جاهليتنا . » (١)

ولقد صور القرآن الكريم رجس المشركين ، وفسادهم كما صور فضل المؤمنين وإحسانهم ، وكان يهدف من التصوير إلى غاية واحدة هي إرساء قواعد الخير والحق والفضيلة في المجتمعات ، واقتلاع جذور الشر والرذيلة منها . . . فهو حين يصور الخير إنما يصوره من أجل الخير ، وحين يصور الشر ، إنما

= ٢ - وربما كان الأمر أن الشعر كانت له مواسمة وجلساته ، ولم يكن هو الحديث المتداول

اليومي الذي يشكل خطراً على الحديث الجديد ..

٣ - وربما كان الأمر أن الشعر يحمل قيماً زائفة من فخر وعصية وإثارة للشر والفساد ، ومناداة بأحساب وأنساب كان الإسلام يريد القضاء عليها ، وكان يكفي أن يحل في قلوب الناس السلام ليبتعدوا وحدهم عن دعوى الحقد والبغضاء ..

٤ - وربما كان الأمر أن ما قرره الإسلام في أمر الشعراء كان المجتمع العربي نفسه قد فرغ من تقريره بالفعل .

يراجع ص ٤٨ ، وما بعدها ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، عام ١٩٧٥ م .

(١) المصدر السابق ، ص ٥٠ ..

يصوره من أجل الخير أيضاً هذا هو الأسلوب الذي سار عليه القرآن الكريم عامة ، والقصة القرآنية خاصة . وهو نفس الأسلوب الذي كانت عليه القصة النبوية .

إن القصة النبوية في أهدافها ومقاصدها منبثقة عن القصة القرآنية ، وموجهة إلى النفس البشرية ؛ لإيجاد وازعي الترغيب والترهيب ، وحسبنا دليلاً على ذلك أن الله عز وجل أمر نبيه ﷺ في محكم كتابه أن يقص على قومه القصص ليكون لهم عبرة وموعظة ، قال تعالى : ﴿ . . . فَأَقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) ، ولتخذوا من القصص منطلقاً إلى التفكير السليم القويم ، الذي يهديهم إلى الحق لكي يحيوا حياة طيبة في المجتمع ، قوامها الحق والخير والفضيلة فلذلك القصة النبوية لا تنشد التسلية والسمر ، وإنما تنشد تمام الأخلاق ، وفي النهاية هي من صميم رسالته ﷺ ، ذلك لأنها تعمق في نفوس البشر معنى الألوهية الصادقة ؛ لتكون زادهم الذي يوصلهم إلى الجنة ، وفوق ذلك إلى المعالم الرائدة لرضا الله عز وجل ، فرضوان الله أكبر من الجنة ، قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٢) .

بلغ النبي ﷺ ما أنزل إليه من ربه في محكم الكتاب الكريم من قصص ، وساق لأمته في حديثه الشريف قصصاً أخرى كثيرة ، ففي القصص النبوي متسع ، منها ما يرويه النبي ﷺ عن ربه ، أو ما يشاهده من مشاهداته المنامية (٣) . أو الواقعية كالإسراء والمعراج ، ومن القصص أيضاً ما يقصّه المصطفى عليه

(١) الأعراف : ١٧٦ .

(٢) التوبة : ٧٢ .

(٣) عن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت : « أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت له مثل فلق الصبح . . . » « فتح الباري » ، ابن حجر العسقلاني ، تصحيح وتحقيق : الشيخ عبد العزيز بن باز ، وآخرين ، ١٢ / ٣٥١ ، دار الفكر .

الصلاة والسلام عن الأمم السابقة ، كما نبأنا عن أمور غيبية ، منها ما سيقع في آخر الزمان ، أو أحداث اليوم الآخر .

لقد خضعت القصة النبوية في موضوعها ، وطريقة عرضها وإدارة حوادثها لمقتضى الأغراض والأهداف الدينية ، فتنوعت موضوعاتها ، وأثارت في القارىء - وما زالت - الكثير من المشاعر ، وذلك لما تتسم به من عمق أفكارها إذ هي تتناول جوانب مهمة تمس العقيدة الإسلامية ، بقصد تثبيت قيمها في النفوس ، فتناقش الكثير من القضايا ، مثل : وحدانية الله عز وجل ، وهي أخطر قضية ظل المصطفى عليه الصلاة والسلام سنوات يدعو إليها ، ويقررها في النفوس كذلك تعرض القصة النبوية الكثير من صفات الله عز وجل ، فهو المدبر والعالم بكل شيء ، وهو الغفور الرحيم ، الذي وسعت رحمته كل شيء . كما تقرر القصة النبوية الكثير من المبادئ والأحكام التشريعية . وتعرض صوراً من دلائل نبوته ﷺ ، وفضله على سائر الأنبياء والرسل . كما رسم المصطفى عليه الصلاة والسلام لأمته في قصصه وأحاديثه منهجاً يقي المجتمع من شرور الفساد والمفسدين ، يحض على الخير ويرغب في الاستزادة منه ، ويرهب من الشر ، وينفر منه ، ومن كل فعل يؤدي إليه ، وهذه أهداف أصيلة بتبغيها كل المجتمعات ، وبذلك يلتقي الناس في دنياهم على كلمة سواء ، ويشيدون ببناء القيم الخلقية . (١)

(١) من المؤسف أن نرى من أبناء الإسلام من يفصل بين أفكار القاص وأخلاقياته ، وبين الإبداع الفني فصلاً تاماً على نحو ما بيته الدكتور محمد نجم في كتابه « فن القصة » من آراء . ينطلق فيها من نظرية (الفن للفن) فيقرر أن العنصر الأخلاقي يشكل خطراً كبيراً على العمل الفني . والقصاص الوعظية قد تضل سبيلها وتنحرف عن جادة الإبداع الفني فهو (الكاتب) يلتزم بتجلية فكرة أو موعظة من ناحية ، في حين أن عمله الأول هو إخراج أثر فني سليم البنية . وغالباً ما يسوقه هذا الازدواج إلى الإخفاق الذريع ولتأكيد وجهة نظره يسوق رأياً للأستاذ محمود تيمور - مع أنه في حقيقة الأمر يناقض ما ذهب إليه - بقوله : « الفنان إن أخلص لنفسه واستصفى شعوره ، استجاب حتماً لما يحيط به من مختلف البواعث والمؤثرات ، فيصدق تعبيره عن البيئة والمجتمع في الصورة التي تسخو بها موهبته ، غير محدودة حرته ، أو مسلوية طلاقتة ، وغير مكره ولا ملزم بتقاليد وأوضاع يعمل وراء أسوارها في عبودية اعتقال =

والنفس البشرية لها حظ موفور من القصص النبوية ؛ لأنها لبنة المجتمع ، ومن خلالها يتحقق الهدف من الخلق . والقصة النبوية تصور الإنسان تصويراً صادقاً ، فتعرض ما فيه من نوازع الخير والشر ، وما ينطوي عليه من القوة والضعف . . . لكنها تحاول أن تسمو بالإنسان إلى آفاق عليا وتنقذه مما لديه من

= وإن فنًا يتكامل فيه الإخلاص والصدق والقدرة لهو فن يجد فيه المجتمع أحسن ما يبيغه من غذاء وشفاء . وأما إذا أقحم الكاتب فنه إقحاماً للإشارة بفكرة أو التغني بدعوة ، مسوقاً إلى ذلك بغرض من الأغراض ، أو مخدوعاً بتوجيه من التوجيهات ، دون أن يستجيب شعوره استجابة حقة لتلك الفكرة ، أو الدعوة التي يتخذها محوراً للإشارة والتغني ، فإن فنه في هذه الحالة يخونه لا محالة « يراجع ص ١٢٩ - ١٣١ ، دار الثقافة ، بيروت .

إن الأستاذ محمود تيمور لم يفصل بين أفكار الأديب وأهدافه وبين إبداعه الفني ، بل إنه ينادي بأن تكون للقصة معنى يعبر من خلالها عما يجيش في صدره ، وعليه أن يصوغ فكرته لا في قالب من الموعظة أو الحكمة ، بل يجب أن تكون هذه مطوية في ثنايا الحوادث ، تُفضي إلى القارئ دون معونة ظاهرة من المؤلف ، في عبارات مكشوفة مباشرة ، إذ القصة ليست منبراً للوعظ أو الخطابة .

كما يقرر الأستاذ محمود تيمور في كتابه « القصة في الأدب العربي » بقوله : « وإذا طاب لنا أن نهتف بحرية الأديب العربي فيما يجري به قلمه ، وفيما تضطرم به نفسه ، وأن نشهد له طلاقة الطائر في الأفق ، فعلينا أن نهتف كذلك بالرسالة الإنسانية الملقاة على عاتق الأديب الحر ، رسالة الإحساس بالحياة التي يحيها ، والتعمق فيها ، وتركيز ما يلتمع في مجتمعه من مثل رفيعة تدعو إلى حرية وحق وخير وسلام . » يراجع ص ٦١ ، مكتبة الآداب ومطبعتها ، القاهرة ، ١٩٧١ م .

ويؤكد الأستاذان : أحمد أمين ومحمد حسين هيكل هذه الرؤية ، فيقرران أن الإبداع الفني يتوقف على درجة الموهبة التي يمتلكها القاص . ولا يمكن له أن يبدع إلا إذا كانت قصته تحوي غرضاً عظيماً ، وتهدف إلى مقصد سام . يراجع كتاب « النقد الأدبي » ، د / أحمد أمين ، ١ / ١٢١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م . وكتاب « ثورة الأدب » د / محمد حسين هيكل ، ص ٧٥ .

ومما يؤكد أن رأي الدكتور محمد نجم يخالف العقل والمنطق ، بل والفطرة السوية نراه يتراجع عن قوله السابق ، ويقول : (ولكن إذا فرضنا أننا وقفنا أمام قصتين تساويتا من ناحية الإبداع الفني في مختلف صورته وطرائقه ، فلا شك أننا نجعل المقياس الأخلاقي الحكم الأخير في التفضيل بينهما .) انظر كتاب « فن القصة » ، ص ١٣٤ .

استعداد للهبوط ، والالتصاق بقبضة الطين . وحينما تُعبّر عن لحظة الضعف البشري لا تصنع منها بطولة تستحق الإعجاب ، بل تعرضها عرضاً واقعياً ، كما أنها لا تقف عندها طويلاً ، وإنما تسرع لتسلط الأضواء على لحظات الاستعلاء والإنابة إلى الله عز وجل ؛ لأنها لحظات التغلب على الضعف البشري ، وهي الجديرة بالاهتمام . (١)

وكما واجهت القصة النبوية الحياة الدنيا بجميع جوانبها وقيمها ، وطبائع الإنسان وحقائقه ، واجهت كذلك الموت ، وما بعد الموت ، واستطاعت أن تعمق في نفس المسلم الإحساس بزوال الدنيا وفنائها ، وبأنها دار عمل لا دار بقاء ، وما هي إلا مزرعةٌ للآخرة ، طالما أنه يحيا في ظل منهج إلهي ، تتطابق فيه العقيدة الفكرية مع السلوك الواقعي .

والأحداث التي تصورها القصة النبوية عن العالم الآخر الخالد ، وما يلابسها من مواقف وظروف ، أحداثٌ غيبية ، يكشفها المصطفى عليه الصلاة والسلام عن طريق الوحي ، قال تعالى : ﴿ وما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ (٢) ، وفي ظل الأحداث الغيبية تُبثنا القصة النبوية عن أمور تحدث عن قرب نهاية العالم في الحياة الدنيا - أعني إرهابات الساعة - . . . والقصة تعرض ذلك منذرة ومحذرة من مغبة ما يقع فيه الناس من فتن وابتلاء .

إذاً القصة النبوية أوسع وأشمل من القصص الفنية الحديثة (٣) ؛ لاتساع ميادينها ، وتحررها من القيود والقواعد التي فرضها النقاد عليها ، مما تأباه الموهبة

(١) انظر منهج الفن الإسلامي ، محمد قطب ، ص ١٥٩ ، دار الشروق ، القاهرة ، بيروت ، الطبعة الثامنة ، ١٤١٣ هـ ، ١٩٩٣ م .

(٢) النجم : ٣ - ٥ .

(٣) كاتب القصة الحديثة ابن بيئته ، يتأثر بها ، وبما تمليه عليه من مؤثرات دينية وسياسية واقتصادية . . . ولذلك تتميز قصصه بأفكار واتجاهات وفلسفات تنطق بذلك سطور قصصه ، وحين سرده وحواره مع شخصياته .

والفطرة السليمة . فهي قصص تتلاءم مع فطرة الإنسان ، وتهدف إلى تقويم هذه الفطرة وإصلاحها ، إنها ترسم منهجاً سويماً لما ينبغي أن يكون عليه البناء القصصي الأصيل . « تكفي كل الكفاية في تقرير الغرض ، وتروع كل الروعة في تسلسل الأحداث ، ولباقة الحوار ، وتصوير الأشخاص . وتنبع فكرتها من أجناس النفوس الكائنة الحية ، فلا تعالج أنماطاً منها في عالم مجهول ، فإن جنحت إلى عالم غير منظور بنته على تباشير الحاضر الشاهد به ، فربطت بينهما بسببية تمنع الطفرة ، وبألفة تؤنس بالرحلة ، وهي في ذلك كله وفي غيره الوسيلة المشتهاة للنفس الطليقة ، والأسلوب الرائع المؤثر في الوجدان »^(١) .

ولا تلتزم القصة النبوية نمطاً من الأداء ، بل تتلون تلوناً ملحوظاً يمليه مقام الفكرة من الطول أو القصر ، ومن الحوار أو السرد ، ومن تصعيد المواقف أو تبسيطها ، ومن تخير الأحداث المثيرة ، بما تتضمنه من مفاجآت وحلول ، ونحو ذلك ، فالموضوع يتجسد أمام القارئ عبر تطور حافل بعناصر التشويق والإثارة . . . من هنا فإن موضوعات القصة النبوية قد عُرِضت في معارض شتى يمكن أن تُصنَّف إلى ما يلي :

الأمثال القصصية ويبلغ عددها عشرون مثلاً ، والأخبار القصصية ويبلغ عددها ثلاثة وسبعون خبراً ، والحوار القصصي ويبلغ عدده خمسة عشر حواراً قصصياً ، وسبع وعشرون قصة بين القصر والطول^(٢) ، ذلك الطول الذي لم

(١) د / عز الدين علي السيد ، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ، ص ٤٤٢ ، دار الطباعة المحمدية بالأزهر ، القاهرة ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م .

(٢) هذه الأعداد تقريبية ، بحسب ما جمعتها الباحثة من مظان الحديث الشريف . ولا يمكن أن يستقل كل وعاء بموضوع وهدف مستقل ، إنما هي موضوعات متداخلة ، يأخذ بعضها برقاب بعض . . . فالموضوعات الإيمانية والاجتماعية والنفسية والغيبية - وهي الموضوعات التي احتضنتها تلك الأوعية - خاضعة للغرض الديني ، كما خضع أسلوب القصة النبوية لتحقيق هذا الغرض . ولدراسة هذه الموضوعات دراسة أدبية فنية يراجع كتاب « القصص في الحديث النبوي ، دراسة فنية وموضوعية » ، د / محمد بن حسن الزير ، الرياض ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

يخلُ في حقيقة أمره من الإيجاز والتركيـز ، ولا غرابة في ذلك فقد بُعث عليه الصلاة والسلام « بجوامع الكلم » . قال الجاحظ : « لم يسمع الناس بكلام قط أعمَّ نفعاً ، ولا أقصد لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنىً ، ولا أبين في فحوى من كلامه ﷺ . » (١)

* * *

(١) انظر البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، ١٧ / ٢ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الخامسة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

الباب الأول

الوجوه البيانية في القصة النبوية

من حيث الفكر البلاغي

الفصل الأول : التشبيه ..

الفصل الثاني : المجاز العقلي .

الفصل الثالث : المجاز اللغوي :

أ - المجاز المرسل ..

ب - المجاز بالاستعارة ..

الفصل الرابع : الكناية ..

الوجوه البيانية في القصة النبوية من حيث الفكر البلاغي

مدخل :

البيان في اللغة : « ما يُبَيِّنُ به الشَّيْءُ من الدلالة وغيرها ، وبيان الشَّيْءُ بياناً : اتضح فهو بَيِّنٌ » . . . روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكماً » ، قال : « البيان : إظهار المقصود بأبلغ لفظ ، وهو من الفهم وذكاء القلب من اللِّسَن . وأصله الكشف والظهور . » (١) فالبيان في معناه اللغوي لا يخرج عن الكشف والإيضاح ، وعلوُّ الكلام .

وفي الاصطلاح : « هو علمٌ يُعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه » . (٢) ودلالة اللفظ إمّا :

- أ - على ما وضع له ، « دلالة مطابقية » ، وتسمى دلالة وضعية .
- ب - وإما على غير ما وضع له ، « دلالة تضمينية أو التزامية » ، وتسمى دلالة عقلية . (٣)

وتأدية المعنى الواحد بطرق مختلفة لا يتأتى إلا بالدلالات العقلية لجواز تفاوت مراتب اللزوم في الوضوح . ثم إن اللفظ المراد به لازم ما وضع له إن

(١) لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (بين) ، تحقيق : عبد الله علي الكبير وآخرين ، دار المعارف ، القاهرة .

(٢) الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ٤ / ٤ ، شرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجليل ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .

(٣) ينظر المصدر السابق ، ٤ / ٦ - ١٤ . وكتاب علم البيان ، د/ يوسف البيومي ، ص ٥ - ٧ ، مطبعة عابدين ، القاهرة ، ١٩٧٢ م ، وكتاب علوم البلاغة ، أحمد مصطفى المراغي ، ص ٢١٥ - ٢١٧ ، المكتبة المحمودية ، الطبعة الخامسة .

قامت قرينة مانعة من إرادة ما وضع له فهو مجاز ، وإلا فهو كناية . ثم المجاز إذا كانت علاقته المشابهة فهو استعارة ، وإلا فهو المجاز المرسل . (١)

إذا فنون علم البيان : التشبيه والمجاز والكناية ، فهي الأصول والأقطاب التي تدور عليها المعاني ..

وإذا كان علم البيان يعني الإبانة ، وكان الأدب نوعاً من الإبانة ، وآلة للتواصل الفكري بين الناس ، فإن نجاحه يكون على قدر نفاذه إلى عقول سامعيه وقلوبهم . والأديب حينما تختلج في صدره المعاني والأفكار والأحاسيس ، ويبحث عن وسيلة ما لتحمل ما في نفسه من هذه الأمور ليس عليه إلا أن يفرغ - إذا أراد تبين معانيه - إلى صنوف التشبيه وضروب المجاز وأنواع الكناية ، ليجد فيها الوسيلة التي تنهض بغايته ، وحيث كان الأمر كذلك وجب عليّ أن أدرس فنون البيان الثلاثة التي أشرت إليها ، وليس الغرض من هذه الدراسة التوسع بعرض آراء علماء البلاغة ، وقواعدهم في مباحث علم البيان فهذا أمرٌ يطول شرحه ؛ وإنما الغرض تلخيص قواعد علم البيان كما استقرت عند الخطيب القزويني تلخيصاً يُلْمُ بمعالها الأساسية مع الإشارة إلى التقسيمات الفرعية ، ومن جهة أخرى استجلاء ما في القصة النبوية من الوجوه البيانية ودورها في بلاغة القصة .

* * *

(١) انظر، الإيضاح في علوم البلاغة ، ٤ / ١٠ - ١٣ .

الفصل الأول
التشبيه

التشبيه

التشبيه في اللغة : « أشبه الشيءُ الشيءَ : ماثله . . . والتشبيه : التمثيل »^(١) وفي المصباح المنير : « شبهت الشيءَ بالشيءِ : أقمته مقامه ، بصفة جامعة بينهما ، وتكون الصفة ذاتية ومعنوية ، فالذاتية نحو : هذا الدرهم كهذا الدرهم ، وهذا السواد كهذا السواد ، والمعنوية نحو : زيد كالأسد ، أو كالحمار : أي في شدته ، أو بلاذته . (٢) »

ولئن كان التعريف اللغوي لا يفرق بين التشبيه والتمثيل ، فإن اصطلاح البلاغيين يفرق بينهما ، يقول الشيخ عبد القاهر : « . . . فاعلم أن التشبيه عامٌ ، والتمثيل أخصٌّ منه ، فكلُّ تمثيل تشبيهٌ ، وليس كلُّ تشبيه تمثيلاً . . . (٣) » كما يقول شارحاً أساس هذه التفرقة : « اعلم أن الذي أوجب أن يكون في التشبيه هذا الانقسام ، أن الاشتراك في الصفة يقع مرة في نفسها وحقيقة جنسها ، ومرة في حكم لها ومقتض . (٤) »

والتشبيه في الاصطلاح وردت له عدة تعريفات ، اختلفت في وضوحها ودقتها واشتمالها ، وإن اتفقت في مضمونها العام . والتعريف المصطلح عليه في

(١) لسان العرب ، مادة « شبه » . .

(٢) أحمد بن محمد بن المقرئ الفيومي ، مادة « شبه » ، وهذا التعريف اللغوي هو الذي ارتضاه علي الجندي تعريفاً اصطلاحياً للتشبيه . . ينظر كتاب « فن التشبيه » ، ١ / ٣٧ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، عام ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م . .

والرأي أنه في عملية التشبيه لا يقوم المشبه مقام المشبه به فيكونان شيئاً واحداً ، بل إن الأديب في عملية التشبيه يلحق المشبه بالمشبه به في صفة من صفاته فيتشاركان في هذه الصفة . .

(٣) أسرار البلاغة ، تحقيق وتعليق : محمود شاكر ، ص ٩٥ ، دار المدني ، جدة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٨ . .

كتب البلاغة ما ذكره الخطيب القزويني : « الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى . (١) » فالأمر الأول هو المشبه ، والثاني هو المشبه به ، ويسميان طرفي التشبيه ، والمعنى المشترك بينهما هو وجه الشبه ، ولا بد من الدلالة على التشبيه بالأداة . فتكون أركان التشبيه أربعة : المشبه ، والمشبه به ، والأداة ، ووجه الشبه ، وبهذه الأركان يتم التشبيه والاشتراك في الصفة .

وجه الشبه (٢) :

هو المعنى الذي يشترك فيه الطرفان تحقيقاً أو تخيلاً . والمراد بالتحقيق : أن يتقرر المعنى المشترك في كل من الطرفين على وجه التحقيق . نحو تشبيه زيد بالأسد ، فالشجاعة هي الصفة الجامعة بينهما ، وهي على حقيقتها موجودة في الإنسان وفي الأسد . وإنما يقع الفرق بينهما في التفاوت بالزيادة والنقصان ، والضعف والقوة .

والمراد بالتخييل : أن المعنى المشترك لا يمكن وجوده في المشبه به إلا على تأويل وتخييل نحو قول ابن بابك :

وأرضٍ كأخلاق الكريم قطعتها وقد كحل الليل السماك فأبصرا .

فإن الأخلاق لما كانت توصف بالسعة والضيق تشبيهاً لها بالأمكن الواسعة والضيقة ، تخيل الشاعر أخلاق الكريم شيئاً له سعة ، وجعلها أصلاً فيها ، فشبّه الأخلاق بالأرض الواسعة .

والوجه إما أن يكون واحداً ، أو غير واحد . وغير الواحد إما بمنزلة الواحد لكونه مركباً من أمرين أو أمور ، وإما غير ذلك بأن يكون متعدداً .

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ، ١٦/٤ .

(٢) ينظر نفس المصدر السابق ، ٣٣ - ٣٧ ، وينظر أسرار البلاغة ، ص ٩٨ - ١٠٠ .

فالتشبيه الواحد « المفرد » هو ما أخذ وجه الشبه فيه من أمر واحد ، ويكون إما حسيًا أو عقليًا .

والتشبيه المركب : ما وجهه وصف منتزع من متعدد ، أمرين أو أمور (١) .
« والأصل في التشبيه المركب أن يُنظر إلى أكثر من شيء في تكوين الصورة ، حيث تمتزج العناصر وتتآلف ويؤخذ مما بينها من علاقات . (٢) » ويكون إما حسيًا أو عقليًا كذلك .

والتشبيه المتعدد هو : أن يؤخذ وجه الشبه من أمرين أو عدة أمور لا تمتزج فيما بينها ولا تتشابه . ويكون إما حسيًا أو عقليًا أيضًا ، أو بعضه حسي وبعضه عقلي (مختلف) .

والمراد بالحسي : ما يدرك هو أو مادته بإحدى الحواس الخمس ، ويلحق به الخيالي ، وهو : « المركب من مادة مشاهدة ، وهو بنفسه معدوم ، وألحق بالحسي دون العقلي مع أن صورته الكلية تدرك بالعقل ، نظرًا لمادته المحسوسة » (٣)

والمراد بالعقلي : ما لم يدرك هو ولا مادته بإحدى الحواس ، ويلحق به :
أ - التشبيه الوهمي ، وهو : « ما لا وجود لمادته ولا لنفسه حتى يدرك بالحواس الخمس ، ولكن لو وجد وأدرك لأدرك بالحواس . (٤) »

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ، ٤ / ٩٠ ، هذا ويرى الخطيب القزويني أن التشبيه المركب هو الذي يطلق عليه اسم التمثيل ، بينما يرى الشيخ عبد القاهر أن التشبيه التمثيلي هو الذي يحتاج وجهه إلى تأول سواء كان مفردًا أو مركبًا . ينظر أسرار البلاغة ، ص ٩٠ - ١٠٣ .

(٢) محمد أبو موسى ، التصوير البياني ، ص ٦٣ ، وما بعدها « بتصرف » ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .

(٣) ابن يعقوب المغربي ، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ، ضمن شروح التلخيص ، ٣ / ٣١٥ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، مصر .

(٤) المصدر السابق ، ٣ / ٣١٦ ، وينظر الإيضاح في علوم البلاغة ، ٤ / ٣٢ .

ب - التشبيه الوجداني هو : « ما يدرك بالوجدان ، بمعنى ما يدرك بالقوى الباطنة مثل القوة التي يدرك بها الشبع ، والتي يدرك بها الجوع وألحق هذا النوع بالعقلي لخبائه وعدم إدراكه بالحواس الظاهرة ، ولكنه ليس عقلياً صرفاً ؛ لأن جزئياته موجودة في الخارج ، وليس بكلي فيدرك بالعقل (١) » .

أولاً : التشبيه المفرد

أ - المفرد الحسي :

لا يكون طرفاه إلا حسيين ؛ لا امتناع أن يدرك من الأمر العقلي أمر حسي . وقد يكون الطرفان مطلقين أو مقيدين بوصف أو أحدهما مطلق والآخر مقيد ، نحو قول النبي ﷺ في قصة المعراج : « ثم رُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُتَّهَى ، فَإِذَا نَبْقُهَا مِثْلُ قَلَالِ هَجْرٍ ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفَيْلَةِ . (٢) » شبه الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ثم سدره المتتهى بقلال (٣) هجر ، والجامع بينهما كبر الحجم . ومادة التشبيه معروفة للمخاطبين ومألوفة لديهم ، لكن المصطفى عليه الصلاة والسلام لم يألف رؤية النبق بهذا الحجم الكبير ، فلم يجد حجماً يماثلها سوى (القلة) ، وفي استخدام « إذا » التي للمفاجأة ما يدل على ذلك . وفي إضافة القلال لهجر بالذات ، يقول العيني : « أجود نبق يعلم بأرض العرب نبق هجر ، في بقعة واحدة تُحمى للسلطان ، وهو أشد نبق يعلم حلاوة

(١) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ، ٣ / ٣١٩ .

(٢) رواه البخاري ، ٤ / ٧٧ - ٧٨ ، والنسائي ، ١ / ٢٢٠ وقد وردت هذه القصة الكريمة في مطلع سورة النجم ، وما يناسب حديثنا هو قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَأَوْا نَزْلَةَ أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُتَّهَىٰ عِنْدَ جَنَّةِ الْمَأْوَىٰ ، إِذْ يَخْشَى السُّدْرَةَ مَا يَخْشَى ، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى . لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴾ آية ١٣ - ١٨ .

(٣) القلة : هي الجرة العظيمة . ينظر لسان العرب ، مادة « قلل » .

وأطيبه رائحة يفوح فم آكله ، وثياب لابسه كما يفوح العطر . (١) »

وقول المصطفى عليه الصلاة والسلام : « وإذا ورقها مثل آذان الفيلة »
للسدرة ورقة عريضة مدورة . شبهها النبي ﷺ بأذان الفيلة ، والجامع بينهما كبر
الحجم . . . وسرُّ روعة هذا التشبيه يظهر في أن النبي ﷺ أراد أن يقرب صورة
هذا الأمر الغيبي فاختر مادة هذا التشبيه مما ألفه العرب .

ومن التشبيه المفرد الحسي ، قول النبي ﷺ كما ورد في قصة المعراج
أيضاً : « . . . ثم أُدخِلتُ الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك » .
شبه النبي ﷺ اللؤلؤ في استدارته وارتفاعه - في الجنة - بالجنابذ (٢) ،
كما شبه رائحة تراب الجنة برائحة المسك ، والجامع بينهما طيب الرائحة .

ب - المفرد العقلي :

هذا التشبيه قد يكون الطرفان فيه إما عقليان أو حسيان أو مختلفان ،
لجواز أن يدرك بالعقل من الحسي شيء ، ولذلك يقال : التشبيه بالوجه العقلي
أعم من التشبيه بالوجه الحسي . (٣)

١ - الطرفان عقليان نحو : عدم الإدراك ، في تشبيه الضلال عن الحق
بالعمى ، والإدراك في تشبيه العلم بالحياة .

٢ - الطرفان حسيان نحو : الاجتماع كما في قصة الدجال ، قال النبي
ﷺ : « . . . ويمرُّ بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، ٤ / ٤٥ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

(٢) الجنابذ مفردتها « جنبة » وهي ما ارتفع من الشيء واستدار كالقبة . ينظر لسان العرب مادة
« جنبذ » .

(٣) الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ٤ / ٤٥ .

كيعاسيب النحل^(١) . . . « فالكنوز تجتمع عنده كما يجتمع النحل على
اليعاسيب ، وما يفعل الدجال ذلك إلا ليُفتن ويُضلّ الناس به . . . وفي اختيار
التشبيه بيعاسيب النحل صلة وثيقة بالمعنى في التحذير والتخويف من الدجال ،
ومن كل ما يتبعه كما أن لحوق النحل ويعاسيبه يبعث في النفس مشاعر شتى من
الخوف والفرع . .

٣ - المشبه معقول والمشبه به محسوس ، نحو : تحقق وقوع الأمر ، أو
المفاجأة ، أو هما معاً ، في تشبيه الساعة بالحامل المتمم ، كما ورد هذا التشبيه في
قوله ﷺ : « . . . فَإِنَّ السَّاعَةَ كَالْحَامِلِ الْمُتَمِّمِ الَّتِي لَا يَدْرِي أَهْلُهَا مَتَى تَفْجُؤُهُمْ
بَوْلَادِهَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا . »^(٢)

لو اكتفى المصطفى عليه الصلاة والسلام بقوله : « إن الساعة كالحامل
المتمم » لتحقيق معنى التشبيه ومدلوله وغرضه ؛ ولكنه - عليه أفضل الصلاة
والسلام - كان حريصاً على أن يبين للصحابة - رضوان الله عليهم - غرضاً آخر
بجانب معنى الوقوع ، فالساعة سيقع وقتها لا محالة كما أن الحامل المتمم سيقع
ولادها لا محالة ، لكن هذا الوقوع يحمل معنى البغته والمفاجأة ، وهذا الأمر
الذي حرص المصطفى ﷺ أن يبيّنه للصحابة - رضوان الله عليهم - بقوله : «
التي لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلاً أو نهاراً » ، أقول : ما كان هذا
الحرص إلا لتقرير المعنى وتأكيد في النفس . قال تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا
السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾^(٣) .

ويجعل البلاغيون تشبيه المعقول بالمحسوس من أسس جودة التشبيه ؛
لأن بناء الصورة التشبيهية قائمٌ على إخراج الأغمض إلى الأوضح ، والنفس

(١) رواه مسلم ، ٨ / ١٩٧ - ١٩٨ ، والترمذي ، ٣ / ٣٤٧ .

(٢) رواه أحمد في « المسند » ، ١ / ٣٧٥ .

(٣) محمد : ١٨ .

غالبًا تستحسن تصوير المعاني في صور محسوسة ؛ حتى تتمكن المعاني من النفوس ، وتقرُّ القلوب بطريقة تجليتها وإبرازها وتشخيصها ، وذلك عن طريق الإدراك الحسي مرة ، ثم الإدراك الذهني والعقلي مرة أخرى . (١)

٤ - المشبه محسوس والمشبه به معقول (٢) ، نحو استطابة النفس في تشبيه العطر بخلق الكريم .

اختلف البلاغيون في جواز هذا النوع من التشبيه . وذهب جمهرة المتأخرين - وعلى رأسهم السكاكي والخطيب - إلى أن هذا النوع من التشبيه غير جائز ، وحثهم في ذلك : أن الحسي أقرب إلى الإدراك من العقلي ، ومعرفة الصورة أيسر من تمثل المعنى ، بل إن المعارف الحسية أساس المعارف المعنوية وأصل لها ، ولذلك فهذا النوع من التشبيه جار على غير الأصل المعروف - بأن يكون الوجه في المشبه به أقوى من المشبه - إلا إذا كان من باب قلب التشبيه مبالغة ، بأن يجعل الأصل فرعاً ، والفرع أصلاً ، بادعاء أن الفرع أقوى مبالغة من الأصل . . . وأجازه المغربي وابن السبكي دون أن يعده من قلب التشبيه . فالمغربي يجيز «تشبيه المحسوس بالمعقول حين يكون الوجه أصله العقلي ، فتشبيه العطر بالخلق في الشرف والارتفاع ، والتلذذ الروحي ، فالخلق به أظهر وعلى هذا فلا حاجة إلى جعل تشبيه الحسي بالعقلي من عكس التشبيه . ولكن إذا كان الوجه أصله الحسي كتشبيه العطر بالخلق مثلاً في استطابة النفس له يكون من عكس التشبيه ؛ لأن استطابة النفس للمشموم المحسوس أقرب من استطابة المعقول . » (٣)

(١) انظر أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، ص ١٢٧ - ١٣١ ، وينظر التصوير البياني ، د / محمد أبو موسى ، ص ١٢٩ - ١٣٨ . .

(٢) لا يوجد في القصص النبوي - التي بين يدي الباحثة - شواهد على هذا الضرب ، وكذلك الضرب الأول وهو تشبيه المعقول بالمعقول . .

(٣) مواهب الفتاح « ضمن شروح التلخيص » ، ٣ / ٣١٣ .

فكأن الأصل الذي انطلق منه المغربي في جواز تشبيه المحسوس بالمعقول راجع إلى وجه الشبه العقلي .

ثانياً : التشبيه المركب

١ - المركب الحسي : طرفاه إما :

أ - مفردان نحو : قول النبي ﷺ : « يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ، ثم يقول الله تعالى : أَخْرَجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ ، فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا ، قَدْ اسْوَدُّوا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاءِ ، أَوْ الْحَيَاةِ - شَكٌّ مِنْ رَأْيِي الْحَدِيثِ - فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً . » (١)

المشبه : إنبات أجساد من كان في قلبه مثقال حبة من الإيمان بعد أن اسودوا - أي احترقوا - من تأثير النار ، ثم يلقون في نهر - يُسمى نهر الحياة ، أي النهر الذي يشبه المطر في تحصيل الحياة - فتخرج أجسادهم حسنة نضرة ، أقول : شبه المصطفى عليه الصلاة والسلام خروج أجسادهم بالحبة وقد نبتت في جانب السيل ، والجامع : ضعف الإنبات في بداية الأمر مع الطراوة والحسن والسرعة في الخروج . فخروج الأجساد كخروج الريحانة في جانب السيل صفراء متمائلة (٢) . والنبي ﷺ يُقرر المعنى في النفس بأسلوب الاستفهام لاستحضار الصورة بقوله : « أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً ؟ » هذا بالإضافة إلى ما في التشبيه من غرابة وما ينطوي عليه من روعة في الجمع بين المتباعدين ، أجسادٌ محترقة - وفي بعض الروايات : « حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة (٣) » - تنبت نباتاً طرياً ، حسن المنظر منبسطاً ، متبخترًا كتمايل الريحانة

(١) رواه مسلم ، ١ / ١٢٢ ، والبخاري ، ٦ / ٢١١ .

(٢) على اتفاق أغلب شراح الحديث على أن المقصود بالحبة « الريحانة » . ينظر عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، ١ / ١٧٠ - ١٧٢ . وينظر كتاب فتح المبدي شرح مختصر الزبيدي ، عبد الله بن حجازي الشرقاوي ، ١ / ٥٧ ، دار المعرفة ، بيروت .

(٣) رواه الدارمي ، ٢ / ٧٨٨ .

إنها رحمة الله التي وسعت كل شيء ، وأبت أن يُخلد في النار من « في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » علاوة على ما في هذه العبارة من أسلوب كنائي يضيف روعة إلى روعة ، وجمالاً إلى جمال في أسلوب رائع لا يصدر إلا ممن أوتي فصاحة اللسان وملكة البيان وعلمه ربّه ما لم يعلم .

ويرى العيني أن هذا التشبيه من قبيل التشبيه المتعدد « تشبيه متعدد من حيث الإسراع ومن حيث ضعف النبات ، ومن حيث الطراوة والحسن . » (١) وإن كنت أرى أنه من قبيل التشبيه المركب ؛ فقد امتزجت جزئيات الصورة مع بعضها البعض لتدل على هيئة خاصة ، وهي : الضعف مع الطراوة وحسن المنظر مع السرعة في الإنبات ، كما أنه في حال خروجه من الأرض يتمايل متبخترًا .. قال النووي : « لسرعة نباته يكون ضعيفًا ، ولضعفه يكون أصفر ملتويًا ، ثم بعد ذلك تشتد قوته . » (٢)

ب - وإما مركبان : كالهئية الحاصلة من الدوران بالشيء الثقيل في قول النبي ﷺ : « يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ : يَا فُلَانُ مَا لَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَيَقُولُ : بَلَى قَدْ كُنْتُ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتَيْهِ . » (٣)

المشبه صورة ذلك الرجل وقد اندلقت أمعاؤه من بطنه ، فأصبح يدور بها دوراناً قسرياً . والمشبه به صورة دوران الحمار بالرحى . وأين يكون ذلك ؟ إنه في جهنم المتأججة بنيرانها الملتهبة بسعيرها ، والناس قد اجتمعوا عليه يسألونه مستغربين عن سبب هذا العذاب ، وعن سبب ذلك المصير المشئوم ؟! سبحان الله ! أهل النار يجتمعون عليه ويسألونه عما دهاه ، مع أن لكل أمرىء منهم يومئذ شأنًا يغنيه . . . إنها صورة رهيبة تقشعر لها الأبدان ، وترتعد لها

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، ١ / ١٧٢ .

(٢) المصدر السابق ، ٢٣ / ١٢٤ .

(٣) رواه البخاري ، ٤ / ٩٠ ، ومسلم ، ٨ / ٢٢٤ .

الفرائص ، وبلغت حدّها من الفظاعة ومن إثارة التّعزُّز . . . وفي اختيار الحمار ، من دون سائر الحيوانات ليتناسب مع تحقير هذا الصنف ، وافتضاح أمره ، وإظهار خبيثه الكريه الفاسد المتمثل في الأقتاب التي اندلقت ولا سبيل إلى إرجاعها كما لا سبيل إلى ستر ذاك الفساد الذي عاش حياته يستره . .

وفي بناء الفعلين : « يؤتى ، ويُلقى » للمجهول إضافة بيانية أخرى ، ففيهما الإكراه والحمل على هذا الفعل ، وكل كرية للنفس تُساق إليه سوقاً ، ولا تُقدم عليه اختياراً أو إرادة ، ولهذا نرى أسلوب القرآن على تلك الخصيصة ، يقول الله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴾ (١) . كما أنها أفعال مضارعة لم تقترن بالتسويق ، مع أنها أموراً أخروية ، وذلك لاستحضارها في الحال ، فكأنها تدرك وتمس ، كما يدرك ويُحس دوران الحمار بالرحى .

وتظهر بلاغة الصورة في « المناسبة بين الجريمة والعقاب ، وإنما يكون الجزء من جنس العمل ، ألم يكن الرجل يبطن الجرائم ، ويسرُّ المنكرات ، وهو ظاهر الصلاح والتقوى ؟ فالיום يُفتضح وينكشف الداخل حتى يعجب لافتضاحه من لا حق له أن يُعجب ، ويتساءل عن ذنبه من لا وجه له أن يتساءل إذ هم شركاؤه في الدار وقرناؤه في النار . » (٢)

ج - وإمّا مختلفان (٣) : كالهئية الحاصلة من اجتماع اللون الأصفر مع اللون الأخضر في قول الصنوبري :

كُلُّنَا بِأَسْطُ الْيَدِ نَحْوُ نَيْلُوفَرٍ نَدِي
كِدْبَابِيْسٍ عَسْجَدٍ قُضْبُهَا مِنْ زَبْرَجَدٍ

(١) سورة الطور : ١٣ .

(٢) د / عز الدين علي السيد ، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ، ص ١٦٤ .

(٣) لم يقع هذا القسم في القرآن الكريم - إلا من قبيل المركب العقلي - ولا في القصص النبوية التي بين يدي الباحثة .

التركيب في هيئة الحركات :

«من بديع هذا النوع ما يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركة» (١).
ويعتبر عبد القاهر الجرجاني هو أوّل من نبّه إلى هذا اللون من التشبيه ، ولم يتقدم
به أحد بعده . (٢) ويكون على وجهين :

١ - أن يقرن بالحركة غيرها من أوصاف الجسم كالشكل واللون ، نحو
قول النبي ﷺ في صفة جهنم ، وأحوال اليوم الآخر : « . . . فقالوا : عَطَشْنَا
رَبَّنَا فَاسْقِنَا ، فَيُشَارُ : ألا تردون ! فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ ، يُحَطَّمُ
بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَيَتَساقطون فِي النَّارِ . . . » (٣)

شبه المصطفى عليه الصلاة والسلام هيئة جهنم وهي تغلي ويحطم بعضها
بعضاً ، ويضطرب لهبها ، وما ينتج عن ذلك من لمعان من شدة حرارتها بالسراب
الذي يراه المسافر في الهاجرة كأنه ماء ذو لمعان متكسر . ووجه الشبه لللمعان
الذي يأخذ بالأبصار مع الحركة المتموجة المضطربة . . . والمراد من التشبيه شدة
حرارة النار ، وشدة غليانها وقوتها ، ترهيباً وتخويفاً .

فهذا التشبيه مركب من الحركة مع غيرها من أوصاف الجسم ، ويتحقق
المعنى في هذه الصورة الحسية ، فهي ليست منظرًا جامدًا ، ولكنها تحفل بالحركة .
فحين قراءتها على الورق نستحضر الصورة في مخيلتنا مقترنة بعملية التحطيم أو
لنقل بعملية الركوب والنزول - ينقلب بعضها على بعض - وما يحدث أثناء ذلك
من علو وانخفاض في حركة تبادلية مستمرة . وتظهر بلاغة التشبيه - أيضاً - بما
فيه من تفصيل في كلٍّ من الطرفين ، معبراً عن ذلك بالفعل المضارع الدال على
التجدد المستمر .

٢ - أن تجرد هيئة الحركة عن كل وصف للجسم غيرها ، نحو الخبر

(١) الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ٥١ / ٤ .

(٢) انظر التصوير البياني ، د/ محمد أبو موسى ، ص ١٤٦ .

(٣) رواه البخاري ، ٥ / ١٧٩ ، ومسلم ، ١ / ١١٥ .

القصصي السابق المتمثل في صورة الرجل الذي يدور بأمعائه في نار جهنم كما يدور الحمار بالرحى ، ففي هذه الصورة تركيب من الحركة مجردة عن غيرها . فقد نُظر إلى حركة الدوران الثقيل الكريه ، دون النظر إلى بقية الأوصاف التي منها - مثلاً - الغفلة والجهل اللذين يتصف بهما ذلك الرجل ويشترك مع الحمار فيهما ، فقد كان غافلاً عما ينتظره من العقاب والجزاء كغفلة الحمار وجهله ، ولم يُنظر كذلك إلى المشقة والجهد المبذول ، مع أن كل هذه الأوصاف انطوت عليها الصورة التشبيهية ؛ لكن المقصود الأوضح فيها الدوران للرجل والحمار على السواء .

التركيب في هيئة السكون (١) :

كما يقع التركيب في هيئة الحركة قد يقع في هيئة السكون ، فمن لطيف ذلك قول أبي الطيب المتنبي في صفة الكلب :

يقعي جلوس البدوي المصطلي بأربع مجدولة لم تجدل

رأى الشاعر هيئة البدوي المصطلي في تشبيه هيئة سكون أعضاء الكلب المقعي ومواقعها . ولم يلفظ التشبيه إلا بما فيه من تفصيل ، فقد نظر إلى أن لكل عضو من الكلب في إقعائه ، والبدوي في جلوسه يصطلي هيئة خاصة . وكان المجموع صورة مؤلفة من تلك المواقع .

٢ - المركب العقلي :

هذا النوع من التشبيه كثير جداً في القرآن الكريم ، كما يكثر في القصة

(١) لم يقع التركيب في هيئة السكون الحسي في القصص النبوية - التي بين يديّ ، وإن وقع في التركيب العقلي ، نحو تشبيه النبي ﷺ ثواب قراءة سورتي البقرة وآل عمران يأتي يوم القيامة وقد أظّل صاحبه كطير باسطات أجنحتها في الطيران تجادلان عن صاحبهما ، يقول ﷺ : «تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما تظللان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان ، أو فرقان من طير صواف . . . » . رواه أحمد في المسند ، ٤٠ / ٣ ، والدارمي ، ٩٠٧ / ٢ ، ٩٠٨ .

النبوية ؛ لأن من أنس النفس بالمعاني الذهنية أن تأتي ممثلة فتكسب المعنى إقراراً في النفس وتوكيداً له . . . من أمثلة هذا النوع من التشبيه قول النبي ﷺ : «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا ، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا : لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِن يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا ، وَإِن أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَّوْا جَمِيعًا .» (١)

قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من القضايا التي ناقشها النبي ﷺ مع الصحابة - رضوان الله عليهم - وبرزت في قالب قصصي يدور حول فكرة محددة ، وهي أن الأخذ على يد المسيء حماية للجميع ، فقد اختار المصطفى عليه الصلاة والسلام تشبيهاً موفقاً رسم من خلاله صورة حية مليئة بالحركة ، وبرزت فيها أهم العناصر المقصودة بالبيان .

إن الدنيا وأحداثها كبحر لُجِّي ، والحياة فيها كالركوب في سفينة ، لا تكاد تسكن لحظة ، حتى تضطرب من جديد . . . والمجتمع الشامل بقسميه : المحافظون والعصاة هم رُكَّاب السفينة على اختلاف طبقاتهم وأحوالهم الاجتماعية والنفسية ، وهؤلاء اقترعوا على أمكنتهم فيها حتى لا يتنازعا فيما بينهم على الأماكن فانقسموا إلى قسمين :

أ - قسم في أعلى السفينة وهم المحافظون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، أو بعبارة أخرى : «القائمون على حدود الله» ينعمون بالنور وتوافر أسباب الحياة ، كما نعموا بتأثير شرائع الله وأحكامه في نفوسهم - سواء قاموا بواجبهم ، أو كانوا مقصرين ملايين .

ب - والقسم الثاني أصاب أسفل السفينة وهم الواقعون في حدود الله ، محرومون من النور ، ومن التمتع بأسباب الحياة ، حتى الماء ، فقد كانوا يجلبونه

(١) البخاري ، ٣/١٦٤ ، والترمذي ، ٣/٣١٨ .

من الأعلى وتسبب ذلك في إيذاء أصحاب القسم الأعلى ، فأظهروا تضجرهم واستنكارهم لهذا الفعل . . . عندئذ لاحت فكرة لسكان أسفل السفينة عبروا عنها بقولهم : « لو أننا خرقتنا في نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا » معاذير واهية يغالط بها المفسدون أنفسهم ، ثم مجتمعهم . وهنا تتوقف صورة التمثيل عند هذه النقطة المثيرة الحاسمة ، ولكن فطرة اللغة العربية ومنطقيتها الحكيمة تكمل الحدث ، لا ، بل وتثيره أيضاً حيث جواب « لو » التقديري ، ففعلوا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً . يؤيد ذلك ما جاء في الرواية الأخرى ، قال النبي ﷺ : « مَثَلُ الْمُدَّهِنِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا مَثَلُ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا سَفِينَةً فَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا وَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَعْلَاهَا ، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا يَمْرُونَ بِالْمَاءِ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلَاهَا فَتَأَذَّوْا بِهِ ، فَأَخَذَ فَأَسَاً فَجَعَلَ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ فَأَتَوْهُ فَقَالُوا : مَا لَكَ ؟ ! قال : تَأَذَيْتُمْ بِي وَلَا بُدَّ لِي مِنَ الْمَاءِ فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَنْجَوْهُ وَنَجَّوْا أَنْفُسَهُمْ ، وَإِنْ تَرَكُوهُ أَهْلَكُوهُ وَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ . » (١) فدقة التشبيه في هذه الرواية أضافت أحداثاً أخرى تتناسب وحالة المرائي والمداهن اللذين يتقاصران عن إنكار المنكر مع القدرة على دفعه ، خوفاً أو طمعاً ، مما دفع العصاة إلى التمادي من القول إلى الفعل ، فها هم يعدون أسباب الفساد ، بل والإصرار عليه . « فأخذ فأساً فجعل ينقر . . . » ثم تتحد خاتمة القصة النبوية في الروایتين : « فإن أخذوا على يديه . . . » . ويجب أن ننبه هنا إلى أنه قد روعي في المجتمع صفة مخصوصة ، وكذلك في السفينة ، وروعي في ركابها صفات مخصوصة . . . وتكون من مجموع هذا كله صورة حسية فتمثل المعنى خير تمثيل .

مواقع التمثيل وتأثيره :

التمثيل قسمان ، قسم يأتي في أعقاب المعاني ، نحو قول النبي ﷺ : « إِنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَنْدِرِ قُلُوبِ الرُّجَالِ ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ . . . » ، ثم تحدث عن رفع الأمانة ، فقال : « ينام الرجل

(١) رواه البخاري ، ٣ / ١٦٤ .

فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكت . ثم ينام النوم ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل المجل ، كجمر دخرجته على رجلك ففقط ، فتراه مُتنبِّراً ، وليس فيه شيء . ثم أخذ رسول الله ﷺ حصي ، فدخرجه على رجله (١) فقد أدرك المعنى في الحديث الشريف مرة بالتمثيل ومرة بروية المعنى المعقول مشاهداً محسوساً .

وقسم تبرز المعاني ابتداءً في ثوبه نحو قول النبي ﷺ : « إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعَيْنِي ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ ، فَالْجَاءَ ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ ، فَأَدْلَجُوا فَأَنْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَفَجَّوْا ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا فِي مَكَانِهِمْ ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاكَهُمْ ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي ، فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ . » (٢)

فالتمثيل أبرز المعنى في ثوبه ، فقد شبه الرسول الكريم ﷺ حاله مع أمته بالمنذر المخوف الذي بدت عليه جميع أمارات الصدق ، وجاء يحذر قومه غارة العدو المهلكة ، فأسرع إلى تصديقه طائفة استعدت للنجاة ، وتباطأت في تصديقه طائفة أخرى غرَّتهم الأمانى . . . ولم يتخذوا لأنفسهم الحيطة من العدو ، حتى صبحهم وأغار عليهم ، فأهلكهم جميعاً .

والتمثيل بقسميه سواء جاء في أعقاب المعاني أو برزت في ثوبه المعاني يكسوها أبهة وجمالاً ، ويزيدها رونقاً ، ويحرك النفوس نحوها ، وينفذ إلى القلوب مدحاً كان أو ذمّاً ، أو افتخاراً ، أو موعظة ، أو غير ذلك من ضروب القول .

أسباب تأثير التمثيل :

أرجع الإمام عبد القاهر الجرجاني أسباب تأثير التمثيل إلى أصول ثلاثة

هي :

(١) المصدر السابق ، ٧ / ١٨٨ - ١٨٩ . ورواه مسلم ، ١ / ٨٨ - ٨٩ .

(٢) رواه البخاري ، ٨ / ١٤٠ .

١ - تصويره المعاني الذهنية في صور حسية .

٢ - جمعه بين الأمور المتنافرة .

٣ - حاجته إلى الفكر .

السبب الأول من أسباب التمثيل : أنه ينقل النفس من المعقول إلى المحسوس ومن شأن المعاني الذهنية إذا نُقلت إلى صور حسية أن تأنس النفوس بها . يقول الإمام عبد القاهر : « إن أنسَ النفوس موقوف على أن تُخرجها من خفي إلى جليٍّ ، وتأتيها بصريح بعد مكنيٍّ ، وأن تردّها في الشيء تُعلّمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم وثقتها به في المعرفة أحكم . » (١)

إن الإدراك الحسي هو أول ما تدركه النفوس وتميل إليه وتألّفه . فكأننا حين نخاطب في النفس إدراكها الأول نعود بها إلى إلفها الأول فلذلك تأنس إلى الصور الحسية وتتوسل بها إلى الإدراك العقلي « ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولاً من طريق الحواس والطباع ، ثم من جهة النظر والرؤية ، فهو إذن أمس بهارحماً ، وأقوى لديها ذمماً ، وأقدم لها صحبة . . . » (٢)

وأنس النفوس برؤية المعنى المعقول مشاهداً محسوساً واقعاً سواء كان الغرض من التمثيل بيان الإمكان ، أم بيان المقدار ، أم بيان الحال عموماً . فمن المعاني ما يكون نادراً وغير مألوف ، وقد يدعى امتناعه واستحالته فيأتي دور التمثيل حينئذ للدلالة على إمكان الوقوع وإزالة الشك والريب ، نحو تحقق الوقوع في قيام الساعة بالحامل المتمم ، لمن أنكر ذلك اليوم .

وأيضاً أتى الرسول ﷺ لمن أنكر البعث والجزاء والحساب بتشبيه يبيّن إعادة الحياة بعد الممات للأجساد المحترقة جزاء ما عملت في الدنيا ، وإن لم يقض عليها بالخلود في نار جهنم لإيمانهم حتى ولو كان هذا الإيمان بمقدار حبة من خردل فكان تشبيههم بالحبة التي تنبت في جانب السيل ، وهي صورة منتزعة من

(١) أسرار البلاغة ، ص ١٢١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٢ . وينظر التصوير البياني ، د / محمد أبو موسى ، ص ١٣٦-١٣٧ .

واقع بيئتهم . . . كما انتزعت صورة المُحذِّر والمنذِّر لأمته من واقع موروثهم الفكري ليكون أدعى إلى التصديق ومن ثم الاتباع ، كما في تشبيه النبي ﷺ نفسه بالنذير العريان . . . لقد كانت هذه المعاني مشكوكاً فيها عند فئات من الناس في ذلك العهد فمثلها النبي ﷺ لإزالة الشك والريب .

ومن المعاني ما يحتاج إلى بيان المقدار دون الحاجة إلى نفي الريب والشك ، ما دامت أحوال الأفعال متفاوتة ، وللتمثيل القدرة على تحديد المعنى بدقة . نحو ما ورد في أحاديث الشفاعة من تصوير النبي ﷺ لجسر جهنم وكلايبه . فيقول : « . . . ويُضربُ جسر جهنم ، قال رسول الله ﷺ : فأكونُ أولَ من يُجيز ، ودعاء الرسل يومئذ : اللهم سلِّمْ سلِّمْ ، وبه كلايبٌ مثل شوك السَّعدان^(١) ، أما رأيتم شوك السَّعدان ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السَّعدان ، غير أنها لا يَعلمُ قدر عَظَمِها إلا الله . . . »^(٢) .

فالمشبه به الحسي وضح صورة هذه الكلايب وقربها من أذهان الصحابة «غير أنها لا يَعلمُ قدر عَظَمِها إلا الله» .

وقد يكون الغرض من التمثيل مجرد الرؤية ، رؤية الأشياء المعنوية في صور محسوسة تُحدث للنفس أنساً ، فهذه قيمة بلاغية وقيمة بيانية للتمثيل ، إن مجرد تصوير المعاني العقلية في صورة حسية ييث الطمأنينة في القلب ، فيستحکم المعنى في النفس مرتين : مرة بالفكر والعقل ومرة بالرؤية التي تدرك بالعين « فأنت إذا قلت للرجل : « أنت مُضِيعٌ للحزم في سعيك ، ومخطئٌ وجه الرشاد ، وطالبٌ لما لا تناله ، إذا كان الطَّلب على هذه الصفة ومن هذه الجهة ، ثم عقبتَه بقولك : وهل يحصل في كف القابض على الماء شيء مما يقبض عليه؟ . . . بقي لنا ما تقتضيه الرؤية للموصوف على ما وُصف عليه من الحالة المتجدِّدة ، مع العلم بصدق الصفة . يبين ذلك أنه لو كان الرجل مثلاً على طرف نهر في وقت مخاطبة صاحبه وإخباره له بأنه لا يحصل من سعيه على شيء ،

(١) نبت ذو شوك ، وهو من جيد مراعي الإبل تسمن عليه . ينظر لسان العرب ، مادة (سعد) .

(٢) رواه البخاري ، ٨ / ١٧٩ - ١٨١ . وأحمد في المسند ، ٢ / ٢٧٥ - ٢٧٦ ، ٣ / ١٦ - ١٧ .

فأدخل يده في الماء ، وقال : انظر هل حصل في كفيّ من الماء شيء ؟ فكذلك أنت في أمرك ، كان لذلك ضربٌ من التأثير زائدٌ على القول والنطق بذلك دون الفعل .^(١) « فكأن الإمام عبد القاهر يرى أن التمثيل : تمثيل باللغة ، وتمثيل بالفعل ، ومن هذا القبيل ما جاء في قصة موسى والخضر عليهما السلام ، فقد ورد عن النبي ﷺ أن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسُئِل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا . فعتب الله عزّ وجلّ عليه ، إذ لم يرِد العلم إليه ، وأوحى إليه : بلى عبدٌ من عبادي بمجمع البحرين هو أعلمُ منك . قال : أي ربّ كيف السبيلُ إليه ؟ قال : تأخذ حوتاً في مكثل فحيثما فقدت الحوت فاتبّعه . . .^(٢) » ثم ما كان من أمر الحوت ومعجزته في الدلالة على مكان الخضر ، وطلب موسى أن يُعلّمه مما علّم ، وقول الخضر له : « . . . يا موسى ، إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه ، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه . فأخذ طائرٌ بمنقاره من البحر ، فقال : والله ما علمي وعلّمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر^(٣) » .

لقد تعددت آراء شراح الحديث حول معنى هذا التشبيه ، فمن قائل : « إن لفظ النقص هنا ليس على ظاهره ، وإنما معناه أن علمي وعلّمك بالنسبة إلى علم الله تعالى كنسبة ما نقره هذا العصفور إلى ماء البحر ، أي كقدر ما أخذه بنقرته . . هذا على التقريب إلى الأفهام ، وإلا فنسبة علمهما أقل وأحقر . . . ومن قائل : إن نقص بمعنى أخذ . . . فيكون التشبيه واقعاً على الأخذ لا على المأخوذ منه . . ومن قائل : إن مرجع العلم هو ، في حقهما ، أي ما نقص علمنا مما جهلنا من معلومات الله عزّ وجلّ إلا مثل هذا في التقدير . وجاء في إحدى روايات البخاري : « ما علمي وعلّمك في جنب علم الله تعالى إلا كما أخذ هذا العصفور » أي في جنب معلوم الله تعالى ، ويطلق العلم ويراد به المعلوم ؛ بدليل دخول حرف التبعية عليه ؛ لأن العلم القائم بذاته تعالى صفة قديمة لا تتبعض ،

(١) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ص ١٢٦ .

(٢) رواه البخاري ، ٥ / ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٣) المصدر السابق ، بنفس الموضوع .

والمعلوم هو الذي يتبعض . وقال الإسماعيلي : إن نقص العصفور لا ينقص البحر بهذا المعنى «(١) . ذلك أن نقرة العصفور في البحر لا تنقص من ماء البحر شيئاً ، فكذلك « علمي وعلمك » لا ينقص من معلوم الله شيئاً . . . وقد يكون - والله أعلم - أن قول الخضر عليه السلام ما هو إلا توطئة لما يعقب ذلك من أمور مرادها خفي وظاهرها منكر . يشهد لذلك قول الله تعالى على لسان الخضر: ﴿ . . . قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴾ (٢) وأياً ما كان المعنى المقصود من التشبيه ، فحين مثل بهذه الصورة المحسوسة المشاهدة بالعين استحكم المعنى في النفس مرتين : مرة بالفكر والعقل ، ومرة بالرؤية والمشاهدة .



(١) ينظر عمدة القاري ، العيني ، ٢ / ١٩٤ - ١٩٦ ، وفتح الباري ، ١ / ٢٢٠ ، وصحيح مسلم بشروح النووي ، ١٥ / ١٤١ ، دار الفكر ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م . وفتح المبدي ، ١ / ١١٧ .

(٢) الكهف : ٦٧ - ٦٨ .

السبب الثاني من أسباب تأثير التمثيل الجمع بين الأمور المتنافرة إن فضيلة الجمع بين المتباعدين والاتلاف بين المختلفين فضيلة جامعة يشترك فيها تشبيه التمثيل وغير التمثيل. والتمثيل له القدر المعلى في جمعه الأمور المتباعدة . فيجمع لك ما لا يجتمع؛ ونرى الشئيين المتنافرين قد أصبحا مؤتلفين .

إن النفس البشرية تميل إلى الاتلاف بين المتباعدات ؛ لأنها مشوقة بطبعها إلى الألفة وإلى التقارب ، كما أنها تميل إلى رؤية التثام عين الأضداد ، وتلاقي الأمور المتنافرة ، والأديب بعالمه وأدواته يحقق لها هذا العالم ، يقرر الإمام عبد القاهر ذلك فيقول : « إذا استقرت التشبيهات وجدت التباعد بين الشئيين كلما كان أشد ، كانت إلى النفوس أعجب ، وكانت النفوس لها أطرب ، وكان مكانها إلى أن تُحدث الأريحية أقرب . وذلك أن موضع الاستحسان ، ومكان الاستظراف ، والمثير للدفين من الارتياح ، والتألف للنافر من المسرة ، والمؤلف لأطراف البهجة أنك ترى بها الشئيين مثلين متباينين ، ومؤتلفين مختلفين » (١) .

كما يقرر في موضع آخر من كتابه أسرار البلاغة ، أن أساس القضية ليس في الجمع بين المتباعدين ، بل في وجود شبه ظاهر بينهما يمكن إدراكه في العقول ، بمعنى أن يقابل ذلك الاتلاف في العقل الاختلاف الذي يُشاهد بالعين ، فيكون الاختلاف في العين شيئاً في زاوية الظل ، ونجعل الاتفاق العقلي بينهما هو الموجب لجمعهما في التشبيه ، « واعلم أنني لست أقول لك إنك متى ألفت الشيء ببعيد عنه في الجنس على الجملة فقد أصبت وأحسن ، ولكن أقوله بعد تقييد وبعد شرط وهو أن تصيب بين المختلفين في الجنس ، وفي ظاهر الأمر شبهاً صحيحاً معقولاً ، وتجد للملاءمة والتأليف السوي بينهما مذهباً وإليهما سبيلاً ، وحتى يكون اتلافهما الذي يوجب تشبيهك ، من حيث العقل والحدس ، في وضوح اختلافهما من حيث العين والحس ، فأما أن تستكره الوصف وتروم أن

(١) أسرار البلاغة ، ص ١٣٠ .

تُصوِّره حيث لا يُتصور ، فلا ، لأنك تكون في ذلك بمنزلة الصَّانع الأخرق ، يصنع في تأليفه وصوِّغهِ الشكل بين شكلين لا يلائمانه ولا يقبلانه ، حتى تخرج الصورة مضطربة ، ويجيء فيها نتوءٌ ، ويكون للعين عنها من تفاوتها نُبوُّ . « (١) »

وتتحقق براعة التآلف بين المتباعدات في أمرين :

١ - استكشاف الشيء في غير موضعه .

٢ - إبداع الصور الجديدة .

يقول الإمام عبد القاهر في ذلك : « إن الشيء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له ، كانت صبابة النفوس به أكثر ، وكان بالشغف منها أجدر . فسواء في إثارة التعجب وإخراجك إلى روعة المستغرب ، وجودك الشيء من مكان ليس من أمكته ، ووجود شيء لم يوجد ولم يُعرف من أصله في ذاته وصفته . « (٢) » نحو قوله تعالى - من غير باب التشبيه : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴾ (٣) . في هذه الآية القرآنية اجتمع الضدان اجتماعاً عجيباً ، هذا الشجر الأخضر الرطب الریان بالماء ، يحتك بعضه ببعض فيولد ناراً ثم يصير هو وقود النار ، بعد الرطوبة والليونة . . . فالتخالف بين النبات الغض وبين النار شديد ومع ذلك اجتماعاً ، دلالة على كمال قدرة الله عز وجل في إخراج المحرق اليابس من العود الندي الرطب . . . والجمع بين المتباعدين لا يبلغ مبلغاً عالياً إلا حين يستخرج الشيء من ضده ، كما سبق في الآية الكريمة .

من أسباب تأثير التمثيل حاجته إلى الفكر :

أساس القضية سرعة حضور الصورة في النفس أو ببطء حضورها وذلك يرجع إلى أصلين :

(١) عبد القاهر الجرجاني ، ص ١٥١ .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ١٣١ .

(٣) يس : ٨٠ .

١ - الإجمال أو التفصيل .

٢ - حضور المشبه به في الذهن أو بعده عنه .

١ - الإجمال والتفصيل :

الجملة دائماً أسبق إلى النفس من التفصيل ، والتشبيهات التي تخلو من التعمق والتقصي ، أو تُلمُّ بالأحوال والأوصاف إجمالاً تكون بعيدة عن التأمل والتفكير ؛ ولذلك لا تكون الفضيلة إلا لمن أدرك الروابط الخفية بين الأشياء ، ولا يكون ذلك إلا بعد أن يقطع الفكر رحلة يصل فيها أوائل الأشياء بأواخرها ، ويتغلغل في بواطنها ، ويستحضر المزيد من الصور والعلاقات .

وباختصار : إن الإدراك الاجمالي هو : المعرفة الأولى للأشياء ، والإدراك التفصيلي هو المعرفة الأعلى والأرقى ؛ لأنه يدفع منشئ الأدب ومنتلقيه إلى كثرة التحليل والمراجعة والتعمق في الأشياء المحسوسة والمعقولة ، وطول التأمل والتدبر والتفكير . وبمقدار بذل الجهود الذهني في الوصول إلى دقائق الأشياء يكتسب التشبيه الفضيلة والمزية .

والتفصيل يتفاوت قلة وكثرة ، وتتفاوت تبعاً لذلك حاجته إلى الروية والفكر ، وكلما كان التفصيل أدق وأكثر كان التشبيه أبعد وأغرب . يقول الإمام عبد القاهر : « يتفاوت الحال في الحاجة إلى الفكر بحسب مكان الوصف ومرتبته من حدّ الجملة وحدّ التفصيل ، وكلما كان أوغل في التفصيل ، كانت الحاجة إلى التوقُّف والتذكُّر أكثر ، والفقر إلى التأمل والتمهُّل أشد . » (١)

وللتفصيل صور متعددة ذكر الدسوقي أنها اثنتا عشرة صورة (٢)
والأغلب ، والأعرف منها ثلاثة أوجه هي (٣) :

(١) أسرار البلاغة ، ص ١٦١ .

(٢) انظر حاشية الدسوقي ، ضمن شروح التلخيص ، ٤٥٣ / ٣ .

(٣) انظر أسرار البلاغة ، ص ١٦٦ - ١٦٨ ، وكتاب الإيضاح في علوم البلاغة ، ٤ / ١١٢ -

أ - أخذ بعض الصفات وترك بعضها . بمعنى أن نقوم بعملية انتقاء ، وهذه العملية في حد ذاتها ما هي إلا جهد فكري ، نحو قول امرئ القيس في وصف الرمح :

جَمَعْتُ رُدِينِيَا كَأَنَّ سِنَانَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ

فقد شبه طرف الرمح باللسنة اللهب بجامع الشكل واللون واللمعان ، وترك الاتصال بالدخان ، ونفاه .

ب - أن تعتبر جميع الصفات لكونها مطلوبة في المشبه ، نحو قول النبي ﷺ - في تصويره انتزاع روح الكافر : « وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَتْ عَلَيْهِ مَلَائِكَةٌ غَلَاظٌ شَدَادُ فَاَنْتَزَعُوا رُوحَهُ كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُودُ^(١) الْكَثِيرُ الشَّعْبُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْتَلِ ، وَتُنَزَعُ نَفْسُهُ مَعَ الْعُرُوقِ فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلِكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . . . »^(٢)

شبه المصطفى عليه الصلاة والسلام هيئة انتزاع روح الكافر وما يلاقيه من مشقة وشدة بهيئة انتزاع السفود من الصوف المبتل . . . فلو أردت تحديد جزئيات الصورة وتفصيلها - عن طريق التقابل مثلاً بين الطرفين - لأمكنني أن أقول : إن التقابل تم بين الحديدية المعقفة الأجزاء والبعيدة عن الانبساط ، وبين الروح وقد تشبثت بالجسد فتضامنت مع أجزائه تضامناً شديداً ؛ لإدراكها بما سيكون عليه مصيرها . ثم بين ذلك الجسد الرطب المتشعب الأعضاء والمتشابك العروق ، وبين الصوف المتشابك الأجزاء والخيوط ، ومما ساعد على التحام هذه الأجزاء كونه صوفاً مبتلاً - ولم يكن قطعاً مثلاً ؛ لأن التشابك المطلوب في الصورة - بل هو أهم عنصر من عناصرها - لا يتوفر إلا في الصوف المبتل دون غيره . أضف إلى ذلك تلك الحديدية وهيئتها لتناسب صفة الشدة والمشقة والغلظة حال انتزاعها من ذلك الصوف المبتل . . . هذه الهيئة وتفصيلاتها مطلوبة في المشبه ، فالملائكة على هيئة مخصوصة لتناسب النزاع المخصوص لتلك الروح المخصوصة في ذلك الجسد المخصوص . ومن جميع هذه العناصر يُنتزع الوصف .

(١) السفود : حديدة ذات شعب معقفة ، انظر لسان العرب ، مادة «سفد» .

(٢) رواه أحمد في المسند ، ٤ / ٢٩٥ - ٢٩٦ .

ومن هذا القبيل قول النبي ﷺ : « سيخرج قوم في آخر الزمان حداثاً الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة . » (١)

في هذا الخبر القصصي الشريف يحدثنا الرسول ﷺ عن فئة من الناس مرائية ، يشبههم حال يخرجون من الإسلام خروجاً سريعاً ولم يتعلقوا بشيء من أحكامه وتوجيهاته بحال السهم السريع الصائب وقد اخترق الرمية ولم يعلق بشيء من فرثها ودمها . (٢)

ج - النظر إلى خصوصية في الصفة ، نحو حدة الصوت كما ورد عن النبي ﷺ - حينما سئل عن الوحي - قال : « إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلبة » (٣) كجبر السلسلة على الصفا ، فيصعقون ، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل ، حتى إذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم ، قال : فيقولون : يا جبريل ماذا قال ربك ؟ فيقول : الحق ، فيقولون : الحق ، الحق » (٤)

٢ - حضور المشبه به في الذهن أو بعده عنه :

كثرة حضور الشيء وتكراره على الحس من شأنه أن تألفه النفس وتأنس به وبعد الشيء عن الذهن وعدم تكراره على الحس من شأنه أن تندر رؤيته ومشاهدته ؛ لأن الحواس هي التي تحفظ صور الأشياء في النفس ، وتجدد عهدها بها ، وإلغائها فتمنعها من الزوال ، وعلى ذلك فإنه إذا كان المشبه به - وصفاً أو هيئة - غالب الحضور في الذهن إما عند حضور المشبه لقرب المناسبة بينهما ،

(١) رواه البخاري ، ٨ / ٥٢ - ٥٣ ، ومسلم ، ٣ / ١١٢ .

(٢) يعدُّ الشريف الرضي العبارة من قبيل المجاز ، وهو تشبيه صريح بأداته ، مع اشتغال العبارة على الاستعارة . ينظر كتاب المجازات النبوية ، تحقيق د / طه محمد الزيني ، ص ٣٣ ، مؤسسة الحلبي ، القاهرة .

(٣) الصلصلة : صفاء صوت الرعد . ينظر لسان العرب ، مادة (صلل) .

(٤) رواه أبو داود ، ٥ / ٢٣٥ .

وإما لتكراره على الحس ، كان الانتقال في التشبيه من المشبه إلى المشبه به من السهولة بمكان .

ولكن إذا كان المشبه به لا يتوارد إلى النفس عند حضور المشبه أو مطلقاً كان الانتقال في التشبيه بين المشبه والمشبه به لا يقع إلا بعد تأمل وفكر وثبت وروية . فندرة حضور المشبه به في الذهن ترجع إلى أحد أمرين :

أ - إما عند حضور المشبه لبعده المناسبة بينهما ، نحو تشبيه انتزاع روح الكافر من جسده كما ينتزع السّفود من الصوف المبتل فصورة انتزاع السّفود من الصوف المبتل ليست بعيدة الحضور عن الذهن ، ولكنها تندر عند استحضار صورة انتزاع الروح من الجسد ، للفرق الشاسع بين الصورتين .

ب - وإما مطلقاً لكونه :

١ - أمراً وهمياً لا وجود له خارجاً ، ومعلوم أن مالا وجود له خارجاً لا يستحضره إلا المتسع في المدارك ، فيكون إدراك وجه الشبه نادراً غير مألوف ، فلا ينتقل عند روم التشبيه إليه بسرعة ، وإن كان تعلقه بالمشبه ظاهراً ؛ لأن العبرة في الغرابة وعدمها إنما هو بسرعة الانتقال إلى المشبه به وعدمها لا العلم بالوجه في المشبه .

٢ - أو لكون المشبه به مركباً خيالياً : فالتركيب الخيالي لا وجود لصورته خارجاً ، فلا يعهد ، فيكون الشأن في إدراكه الندور ، ويلزم منه ندرة إدراك تعلق الوجه به أو عدمها قبل التشبيه^(١) . ومن هذا القبيل ماورد في قصة موسى والخضر عليهما السلام ، قال النبي ﷺ : « . . . فحمل موسى عليه السلام حوتاً في مكّتل وأنطلق هو وفتاهُ يمّشيان حتى أتيا الصخرة ، فرقد موسى عليه السلام وفتاه ، فاضطرب الحوتُ في المكّتل حتى خرج من المكّتل ، فسقط في البحر ، قال : وأمّسك الله عنه جرية الماء حتى كان مثل الطّاق ، فكان للحوت سرباً ، وكان لموسى وفتاه عجباً . . . »^(٢)

(١) انظر مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ، ٣ / ٤٥١ ، ابن يعقوب المغربي

(٢) رواه البخاري ، ٥ / ٢٣٢ - ٢٣٥ ، بعدة روايات ، والترمذي ، ٤ / ٣٧١ - ٣٧٣ .

« الطّاق : ما عُطف من الأبنية^(١) : أي جعل كالقوس من قنطرة ونافذة وما أشبه ذلك . . وقيل : عقد البناء وهو الأزج ، وما عقد أعلاه من البناء ، وبقي ما تحته خالياً . »^(٢) شبه الرسول ﷺ هيئة الماء حال إمساك الله جريانه عند مرور الحوت كهيئة عقد البناء ، فالرسول عليه الصلاة والسلام أخرج مالم تجر به العادة إلى ماجرت به العادة، فلم يرَ في العادة أن يكون في الماء الجاري جزء واقف كالطاق؛ ولذا ندر إدراكه، وندرته لكونه معجزة وآية مشهورة لموسى عليه السلام .

٣ - أو لكون المشبه به مركباً عقلياً: وذلك إذا اعتبر في المشبه به هيئة أو أوصاف مخصوصة عقلية - وإن كان متعلقها حسياً - ندر إدراك التشبيه .

إذا الحاجة إلى الفكر والتأمل والروية لا تكون إلا لخباء وجه الشبه وسبب خفائه أمران ، قد يشتركان أو ينفردان :

١ - كثرة التفصيل .

٢ - ندرة حضور المشبه به في الذهن .

والتفصيل يكثر أو يقل وهو أمرٌ يدخل في بناء الصورة . . . أما التكرار على الحس أو عدم التكرار فلا يدخل في بناء الصورة ، فالصورة أصلاً مكتملة ، لكنها تقل أو تكثر في تكرارها على الحس . . . واتفق البلاغيون على تسمية هذا النوع من التشبيه ، التشبيه البعيد ، وقسيمه المقابل له التشبيه القريب ، وهو ما ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به من غير تدقيق لظهور وجه الشبه ، وسبب ظهوره أحد أمرين :

١ - كونه أمراً جميلاً لا تفصيل فيه .

٢ - كونه قليل التفصيل مع غلبة حضور المشبه به في الذهن إما مطلقاً لتكرره على الحس . وإما عند حضور المشبه لقرب المناسبة .

(١) لسان العرب مادة « طوق » .

(٢) العيني ، عمدة القاري ، ١٨٩/٢ .

تقسيم التشبيه باعتبار أدواته :

ينقسم التشبيه باعتبار أدواته إلى قسمين :

١ - المرسل : ما ذكرت أدواته ، نحو قول الرسول ﷺ في رؤيا قصها على الصحابة رضوان الله عليهم - ورؤيا الأنبياء حق - « . . . فانطلقنا فانتبهينا إلى روضةٍ عظيمةٍ لم أر روضةً قط أعظم منه ولا أحسن . قال : قالالي : ارق ، فارتقيتُ فيها ، قال : فارتقينا فيها فانتبهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة ، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا ، فدخلناها فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ ، وشر كأكبح ما أنت راء ، قال : قالالهم : اذهبوا فقعوا في ذلك النهر ، قال : وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض من البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورةٍ . قال : قالالي : هذه جنة عدن ، وهذاك منزلك . قال فسمابصري صعداً فإذا قصرٌ مثل الربابة البيضاء ، قال : قالالي : هذاك منزلك ، قال : قلت لهما : بارك الله فيكما ، ذراني فأدخله ، قال : أما الآن فلا ، وأنت داخله » (١)

وردت في هذا الخبر القصصي الكريم أدوات للتشبيه تنوعت بتنوع السياق فنجد التشبيه بالكاف في قوله الكريم «فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء ، وشر كأكبح ما أنت راء» يحدثنا المصطفى عليه الصلاة والسلام عن هيئة هؤلاء الرجال ، فنصف خلقهم حسن والنصف الآخر قبيح .

كما نلمح التشبيه بالأداة كأن في القول الكريم : « وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض من البياض » فشب النبي ﷺ ماء ذلك النهر في صفائه وبياض لونه باللبن الخالص . واستعمل المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام لتحقيق هذا الشبه الأداة «كأن» لقوة الشبه والتماثل بين الطرفين .

وفي قوله الكريم : «قالالي : هذه جنة عدن وهذاك منزلك . قال : فسمابصري صعداً فإذا قصرٌ مثل الربابة البيضاء » نجد أداة التشبيه (مثل) التي «لا تستعمل إلا في حال أو صفة لها شأن أو غرابة» (٢) فالرسول عليه الصلاة والسلام ارتفع ببصره إلى الأعلى ، فإذا به يفاجأ بقصر شبهه بالسحابة البيضاء ،

(١) رواه البخاري ، ٨٥/٨ ، وأحمد في مسنده ، ٨/٥ - ٩ ، ٥/١٤ - ١٥ .

(٢) فن التشبيه ، ٢٠١/١ ، علي الجندي .

إما لكون بعضها ركب بعضاً ، أو بالسحابة البيضاء التي ترى دون السحاب ، أو بالسحابة البعيدة في السماء^(١) ، أو بالنظر إلى جميع تلك الأوصاف ، ولذا كان التعبير بأداة التشبيه (مثل) الدالة على عموم المشابهة من أي جهة .

٢ - التشبيه المؤكد وهو : ما حذفت أدواته ، وفيه ادعاء الاتحاد بين الطرفين ولذلك يرتقي مرتبة أبلغ من سابقه ، ولهذا السبب أطلق عليه بعض البلاغيين التشبيه البليغ^(٢) . . . ويقع في صياغات متفاوتة ، وتراكيب مختلفة منها :

أ - أن يقع المشبه به خبراً عن المشبه ، أو في حكم الخبر نحو : خبر إن ، وخبر الفعل الناقص ، والمفعول الثاني في باب «علم» ومن الأول - أعني وقوع المشبه به خبراً عن المشبه - قول النبي ﷺ : « . . . قلت : يا جبريل ما هذا؟ الكوثر الذي أعطاك ربك عز وجل . قال : فضربت بيدي فيه فإذا طينه المسك الأذفر . . . »^(٣) فالمسك خبر عن طينه . . فشبه المصطفى عليه الصلاة والسلام رائحة طين الكوثر برائحة المسك ، والجامع بينهما طيب الرائحة .

ب - أن يقع المشبه به مصدراً مبيناً لنوع المشبه ، نحو ما ورد في أحاديث الفتن - وهي أحداث ووقائع تأتي إرهابات بين يدي الساعة - منها قول الرسول ﷺ : « . . . فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن ، وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمير ، فعليهم تقوم الساعة . . »^(٤) وفي رواية أخرى « . . . فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً . . »^(٥)

بعد أن يقبض الله عز وجل روح كل مؤمن ومسلم لا يبقى على وجه الأرض إلا شرار الناس . شبههم المصطفى - عليه الصلاة والسلام - في اضطرابهم واختلاط بعضهم ببعض ، لا ينكرون منكراً ولا يقيمون معروفاً ، شبه صنيعهم

(١) انظر ، عمدة القاري ، ١٧٤/٢٤ .

(٢) يطلق الخطيب القزويني هذه التسمية على التشبيه البعيد لغرابته ، ينظر كتاب الإيضاح في علوم البلاغة ، ١١٩/٤ .

(٣) رواه أحمد في المسند ، ٢٣١/٣ - ٢٣٣ .

(٤) رواه مسلم ، ١٩٧/٨ - ١٩٨ .

(٥) المصدر السابق ، ٢٠١/٨ ، ورواه أحمد بن حنبل ، ١٦٦/٢ .

في ذلك بصنيع الحُمُر . . . أو كما قال النبي ﷺ : « في خفة الطير وأحلام السباع »
« بمعنى يكونون في سرعتهم إلى الشرِّ والفساد وقضاء الشهوات كطيران الطير . . .
وفي العدوان وظلم بعضهم بعضاً كأخلاق السباع »^(١)

فالتشبيه على الرواية الأولى محذوف الأداة وجعل المشبه به مصدراً مبيناً
لنوع المشبه . . . أما على الرواية الثانية فقد حذفت الأداة ، وجعل المشبه به حالاً
من المشبه .

ومن هذا النوع - أعني كون المشبه به مصدراً مبيناً للنوع - قول النبي
ﷺ : « . . . يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا تُضِيءُ وَجُوهَهُمْ إِضَاءَةُ الْقَمَرِ
لَيْلَةَ الْبَدْرِ . . . »^(٢) إخبارٌ عن أمر غيبي حدثنا عنه المصطفى - عليه الصلاة
والسلام ، فقد شبه إشراق وإضاءة وجوههم بإضاءة القمر ليلة البدر ، والقمر لا
يشتد ضوءه إلا ليلة تمامه ، فيكون هذا الضوء هادياً لهم يُنير طريقهم حال سيرهم
، كما أن الإسلام هادٍ لهم ، فأشرقت نفوسهم بتعاليمه كما أشرقت وجوههم بما
بثه في ضمائرهم من السكينة والأمان . .

ج - أن يقع المشبه به مضافاً إلى المشبه^(٣) ، نحو قول النبي ﷺ ، في قصة
المعراج : « . . . ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَغَشِيهَا أَلْوَانٌ لَا
أَدْرِي مَا هِيَ ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ ، فَإِذَا فِيهَا حَبَائِلُ اللَّوْلُؤِ ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ »^(٤)
قال ابن الأثير : أراد بالحبائل : مواضع مرتفعة كجبال الرمل ، والجبال :
جمع جبل ، وهو الرمل المستطيل^(٥) . وقول المصطفى الكريم : « فإذا فيها
حَبَائِلُ اللَّوْلُؤِ » بمعنى أن فيها اللؤلؤ كجبال الرمل . . .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، ٧٦ / ١٨ .

(٢) رواه البخاري ، ١٩٩ / ٧ .

(٣) يعدُّ بهاء الدين السبكي هذا النوع من التشبيه من قبيل الاستعارة . وبين أبو يعقوب المغربي
احتمال وقوع معنى الاستعارة ، فيقول عند تحليله لقول ابن خفاجة :

والريح تعبت بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

أن الذهب استعير لنفس الشعاع المصفر ، وتكون إضافته للأصيل من إضافة المظروف للمطرف . .
ينظر شروح التلخيص ، ٤٦٥ - ٤٦٦ / ٣ .

(٤) رواه البخاري ٩٧ / ١ .

(٥) عمدة القاري ، العيني ، ٤٦ / ٤ .

منازع صور التشبيه في القصة النبوية :

صور التشبيه في القصص النبوي تنتزع من عدة محاور منها :

١ - القرآن الكريم : كان النبي ﷺ يُبين ويفصل ما أجمله القرآن الكريم ، ومن ذلك ما ورد في قصة موسى - عليه الصلاة والسلام - وما حدث من أمر الحوت وكيف اتخذ سبيله في البحر بعد أن أمسك الله عز وجل عنه جرية الماء . فأصبح عليه مثل الطاق . هذه الصورة التشبيهية لم تذكر بعناصرها في القرآن الكريم ، وإن استمد الحديث النبوي منه بعضاً من جزئيات الصورة ، قال تعالى : ﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً . فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً . ﴾ (١)

٢ - ومنها انتزاع أجزاء الصورة من عناصر الطبيعة ، حتى تقترب الصور العقلية في طبيعتها الكلية إلى ذهن السامع والقارىء . « نبه البلاغيون إلى أن صور التشبيه حين يستمدّها الشاعر من عناصر كونية أو نفسية عامة يشترك في إدراكها والإحساس بها كافة المتذوقين ، كالتشبيه بالشمس والبدر والجبال ، وأحوال الخوف والأمن ، والغضب والرضا ، وما شابه ذلك مما هو شركة بين الناس والأمم ، يكون هذا الاستمداد من هذه العناصر أحفظ لبقائها وحيويتها ، وتأثيرها في أجيال الناس والأمم . » (٢)

وكذلك كانت صور التشبيه النبوي . . . فمن النبات ، ما ورد في وصف الدجال : « أعور العين اليمنى ، كأنها عبنة طافية . » (٣)

ومن الحيوان ، ما ورد في قول النبي ﷺ : « . . . فيرغبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيُرسل الله طيراً كأعناق البُخْت فتَحملهم فتطرحهم

(١) الكهف : ٦١ - ٦٢ . .

(٢) د / محمد أبو موسى ، التصوير البياني ، ص ١٥٧ .

(٣) رواه البخاري ، ٨ / ١٨٧ .

حيث شاء الله . «(١) وقول المصطفى عليه الصلاة والسلام : « يُؤتى بالموت كهيئة كبش أملح ، فينادي مُناد : يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت وكلهم قد رآه . . . »(٢)

وقوله عليه الصلاة والسلام في قصة موسى والخضر عليهما السلام : « ما نقصَ علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفورُ من البحر »(٣)

ومن الجماد ، قوله ﷺ في قصة المعراج : « ورُفِعَت لي سِدْرَةُ الْمُتَهَيِّ فإِذَا نَبَتْهَا كَأَنَّهُ قَلَالٌ هَجْر . . . »(٤) . وقوله : « . . . ثُمَّ أَدْخَلْتُ الْجَنَّةَ ، فإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمَسْكُ . »(٥)

٣ - ومنها انتزاع الصورة من أحوال البيئة العربية وموروثها الثقافي والفكري : كان الرسول ﷺ على علم بأحوال البيئة العربية من أعراف وعادات ، وأنظمة حياة ، وتضمنت صورته التشبيهية دلالات على تلك الأحوال ، نحو تصوير الفئة المارقة من الدين : « يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمِرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ . . . »(٦) و « مِثْلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْمُدَّهِنِ فِيهَا كَمِثْلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا ، وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلُهَا . . . »(٧) وقوله عليه الصلاة والسلام : « تَرَجَّفَ الْمَدِينَةَ بِأَهْلِهَا ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ ، فَلَا يَبْقَى مَنَافِقٌ وَلَا مَنَافِقَةٌ إِلَّا خَرَجَ إِلَيْهِ . فَتَنَفِي الْخُبْثِ مِنْهَا كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خُبْثَ الْحَدِيدِ ، وَيُدْعَى ذَلِكَ الْيَوْمَ يَوْمَ الْخِلَاصِ . »(٨) وقول المصطفى عليه الصلاة والسلام في

(١) رواه مسلم ، ٨ / ١٩٧ - ١٩٨ ، والترمذي ، ٣ / ٣٤٨ .

(٢) رواه البخاري ، ٥ / ٢٣٦ .

(٣) رواه البخاري ، ٥ / ٢٣٥ .

(٤) المصدر السابق ، ٤ / ٧٨ .

(٥) رواه مسلم ، ١ / ١٠٣ .

(٦) رواه البخاري ، ٨ / ٥٢ - ٥٣ ، ومسلم ، ٣ / ١١٢ .

(٧) رواه الترمذي ، ٣ / ٣١٨ .

(٨) رواه ابن ماجه ، ٢ / ١٣٦١ .

تصوير انتزاع روح الكافر : « نزلت عليه ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ فانتزعوا روحه ،
كما ينتزع السّفود الكثير الشعب من الصوف المبتل . . . » (١)

كما استمد النبي ﷺ ، بعض صور التشبيه من الموروث الثقافي والفكري
للعرب نحو تصوير حاله وحال أمته بالمنذر المخوّف « أنا النذير العريان . » (٢)

* * *

(١) رواه أحمد بن حنبل ، ٤ / ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٢) رواه البخاري ، ٨ / ١٤٠ .

الفصل الثاني

المجاز العقلي

الحقيقة والمجاز

تعريف الحقيقة :

الحقيقة في اللغة : « فعيلة بمعنى فاعل ، من حق الشيء ثبت ، أو بمعنى مفعول من حققته ، أثبته ، نقلت إلى الكلمة الثابتة في معناها الأصلي بالاعتبار الأول ، أو المثبتة في ذلك المعنى بالاعتبار الثاني . . . والتاء فيها للنقل من الوصفية للاسمية . » (١)

وفي الاصطلاح هي : « الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح التخاطب . » (٢) . . . أو كما قال الشيخ عبد القاهر الجرجاني : كل كلمة أُريد بها ما وقعت له في وضع واضح وقوعاً لا تستند فيه إلى غيره . » (٣)

والحقيقة إما أن تكون من طريق اللغة ، بحيث يكون لكل لفظ معنى محدد له لا يتجاوزه إلى سواه ، فحيث تستعمل تلك الكلمة في معناها الحقيقي الذي وضعت له في اصطلاح التخاطب وإما أن تكون من طريق العقل ، وذلك « بإسناد الفعل أو ما في معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر . » (٤)

تعريف المجاز :

المجاز في الأصل : « من جاز المكان يجوزه إذا تعدّاه ، فهو مصدر ميمي

(١) مختصر سعد الدين التفتازاني ، وكتاب مواهب الفتاح ، أبو يعقوب المغربي ، ضمن شروح التلخيص ، ٤ / ٤ .

(٢) المصدرين السابقين ، ٤ / ٥ ، وانظر كتاب عروس الأفراح ، بهاء الدين السبكي ، ضمن شروح التلخيص ، ٤ / ٤ .

(٣) أسرار البلاغة ، ص ٣٥٠ .

(٤) الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ١ / ٨٠ .

على وزن مَفْعَل . . . ثم نُقل للكلمة اتصفت بمعناه . « (١)

والمجاز منه مجازٌ عقلي ، ومنه مجاز لغوي ، والمجاز اللغوي هو :
«الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح به التخاطب على وجه
يصح مع قرينة عدم إرادته» (٢) وهو ضربان : مرسل ، واستعارة ، وسوف يأتي
الكلام عنه في الفصل الثالث .

والمجاز العقلي (٣) : عرفه الخطيب القزويني بقوله : « هو إسناد الفعل أو
معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول . » (٤)

وقيد الإسناد في المجاز العقلي بالملابسة ، وهذه الملابسة يمكن النظر إليها
من ناحيتين :

١ - العلاقة بين الفاعل المجازي والفاعل الحقيقي ، على اعتبار أنها قائمة
على مشابهة كل منهما الآخر في مطلق ملابسة الفعل وتعلقه بكل منهما وإن

(١) عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ص ٣٩٥ ، وانظر مختصر السعد ، ومواهب الفتح ،
ضمن شروح التلخيص ، ٢٠ / ٤ .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ، ١٢ / ٥ .

(٣) لما كان علم البيان موضوعاً لبيان ما يعرف به كيفية إبراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح
الدلالة واختلاف الطرق يكون بالحقيقية والمجازية في الجملة ، لذا نظمتُ المجاز العقلي في
سلك البيان مخالفة في ذلك الخطيب القزويني الذي ذكره في علم المعاني .

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة ، ١ / ٨٢ . . . بالإضافة إلى الإسناد الفعلي ، قد يقع المجاز العقلي
في الإسناد الاسمي كما يقع في النسبة الإضافية . ولقد تجاذب البلاغيون هذه الصور الإسنادية
فيما بينهم ، ما بين مؤيد لها ورافض . انظر - على سبيل المثال - مختصر سعد الدين
التفتازاني ، وحاشية الدسوقي على شرح السعد ، ضمن شروح التلخيص ، ١ / ٢٤٠ - ٢٤١ .
. . . مع أن الإمام عبد القاهر الجرجاني قد أشار إلى أنواع الإسناد العقلي ، ولم يُضيق الخناق
ويحصرها في الإسناد الفعلي - كما صنع الخطيب القزويني - مبيئاً إياها بالشواهد البلاغية ،
في كتابه : أسرار البلاغة ، ص ٣٦٦ - ٣٨٠ ، ودلائل الإعجاز ، ص ٢٩٥ . هذا وقد تعقب
الدكتور عبد العزيز أبو سريع جميع الآراء البلاغية حول الإسناد العقلي وصوره شارحاً ومقارناً
فيما بينها في كتابه « المجاز العقلي في البلاغة العربية » ، ص ١٨٩ - ٢٠١ ، الطبعة الأولى ،
١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .

كانت جهة التعلق مختلفة ، فهذه العلاقة مأخوذ في مفهومها أن الفعل يتعلق بفاعله وبمفعوله وبمصدره وبسببه وبزمانه وبمكانه . . . إلخ ، فحين يتعلق الفعل -على جهة الإسناد - بغير ما هو له حقيقة ، مثل المصدر أو الزمان أو المكان . . . إلخ يكون هذا المتعلق مشابهاً لما هو له في الحقيقة ، من حيث هذه الجهة (جهة التعلق) . (١)

٢ - العلاقة بين الفعل وفاعله المجازي : فالفاعل ليس فاعلاً على الحقيقة ، وإنما قد يكون سبباً للفعل ، أو آلة له ، أو زماناً أو مكاناً ، وقد تكون العلاقة المصدرية حين يسند الفعل إلى مصدره ، وقد تكون العلاقة المفعولية حين يسند الفعل - المبني للفاعل - إلى المفعول به ، وقد تكون العلاقة الفاعلية حين يسند الفعل - المبني للمجهول - إلى الفاعل الحقيقي . . . إلخ فالعلاقة هنا هي الملابس ، لكن بين الفعل وما جعل مسنداً إليه وملابساً له باعتبار الإسناد أيضاً . . . وبالإضافة إلى قيد الملابس ، فقد قيد المجاز العقلي بقيد آخر هو القرينة - وهذا معنى قول الخطيب ، بتأول - للدلالة على أن المتكلم لا يريد ظاهر الإسناد . . . وبسبب القرينة يخرج من دائرة المجاز قول الجاهل : « شفى الطبيب المريض » كما يخرج قول الملحد - كما ورد في القرآن الكريم : ﴿ ثموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ (٢) ويخرج كذلك الأقوال الكاذبة ؛ لأن قائلها لا يومئ إلى قرينة تصرف عن إرادة ظاهر الكلام بل يحرص على ترويح كذبه .

أنواع القرينة (٣) :

١ - إمّا لفظية ، بأن يذكر في الكلام لفظ يصرف الإسناد عن حقيقته . . .
٢ - وإمّا معنوية ، كاستحالة صدور المسند من المسند إليه المذكور أو قيامه به : عقلاً أو عرفاً أو عادة ، كما مثلت آنفاً باستحالة صدور الكلام من الموحد والجاهل ، فالقرينة هنا : علم السامع بحال المخاطب أو اعتقاده .

(١) يراجع لإيضاح الفرق بين الناحيتين ، كتاب المجاز العقلي في البلاغة العربية ، للدكتور

عبد العزيز أبو سريع ، ص ١٦٩ - ١٧٦ .

(٢) الجاثية : ٢٤ .

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة ، ١ / ٩٤ - ٩٥ .

ملابسات المجاز العقلي

١ - الملبسة الفاعلية :

تتم هذه الملبسة حين يُسند - الفعل المبني للمجهول - إلى الفاعل الحقيقي مثل قولهم : سيلٌ مُفْعَمٌ ، فالسيل في حقيقة الأمر وواقعه يملأ الوادي ويفعمه ، ولكنه جعل مملوءاً للمبالغة . فأسند ما هو بمعنى الفعل المبني للمجهول (مفعم) إلى ضمير السيل إسناداً مجازياً ، وحقه أن يسند إلى المفعول به - نائب الفاعل « الوادي » - ولكنه أسند إلى الفاعل الحقيقي .

٢ - الملبسة المفعولية :

وذلك بإسناد الفعل - المبني للفاعل - إلى المفعول به ، نحو قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَقَلَّتْ مُوَاظِنُهُ فُهُوفٌ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ (١) العيشة في حقيقة الأمر وواقعه مرضية وليست براضية ، وإنما الراضي صاحبها ، ولكن أسند ما هو بمعنى الفعل « راضية » إلى ضمير المعيشة إسناداً مجازياً - للمبالغة والتجوز - لأنه لغير ما هو له ، فالعيشة - أو الضمير العائد عليها بمعنى أصح - ما هي إلا مفعول حقيقي وليست فاعلاً ، فوقع معنى الفعل عليها في الحقيقة ، فسميت العلاقة المفعولية .

٣ - الملبسة المصدرية :

وذلك بأن يعمد إلى المصدر ، ويُجعل فاعلاً للفعل ، نحو قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ (٢) فالفعل (نُفِخَ) - المبني للمجهول - لم يسند إلى نائب فاعله الحقيقي ، وإنما أسند إلى مصدره إسناداً مجازياً . والذي

(١) القارعة : ٦ - ٧ .

(٢) الحاقة : ١٣ .

سوغ ذلك العلاقة بين الفعل والفاعل المجازي ، إذ أنه مصدر له - والقرينة التي صرفت الكلام عن ظاهره - استحالة صدور النفخ من النفخة .

ونحو قول أبي فراس الحمداني :

سيدكرني قومي إذا جدّ جدُّهم وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر

فالمجاز في قوله : (جدّ جدُّهم) حيث لم يسند الفعل « جدّ » إلى فاعله الحقيقي ، وإنما أسند إلى مصدره « جدُّهم » وبذلك جعل ما هو مصدرٌ في المعنى فاعلاً على سبيل المجاز العقلي .

٤ - الملبسة السببية :

وتكون بجعل سبب الفعل فاعلاً له ، كما ورد في القصة النبوية عن أصحاب الأخدود ، حيث أسند شفاء المرضى إلى الغلام ، وحقه أن يسند إلى الله عز وجل . قال النبي ﷺ : « . . . ومضى الناس فأتى الرَّاهِبَ فَأَخْبِرَهُ ، فقال له الرَّاهِبُ : أي بُني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرِك ما أرى وإنك سَتُبْتَلَى فَإِنْ ابْتَلَيْتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ . وكان الغلام يُبْرِئُ الأَكْمَةَ والأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ . » (١) فقد أسند الفعل إلى ضمير الغلام للمبالغة عن طريق الإسناد المجازي . . . وقيام غير الفاعل الحقيقي بدور الفاعل ، وما هو في الأصل إلا سبب للفعل . . . ذلك أنه لما كان الغلام يعالج المرضى ، أجرى الله عز وجل الشفاء على يديه ، استقر في أذهان الناس أنه الشافي لهم ، ولهذه العلاقة أسند الفعل إلى ضمير الغلام - الفاعل المجازي - لأنه سبب للفعل .

ومنه ما ورد عن النبي ﷺ قوله : «احتج آدم وموسى ، فقال له موسى : أنت آدم الذي أخرجتك خَطِيئَتِكَ مِنَ الجَنَّةِ ، فقال له آدم : أنت موسى الذي اصْطَفَاكَ اللهُ برسالاته وبكلامه ثم تلومني ؟ ، أمرٌ قُدِّرَ عليّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ .

(١) رواه مسلم ، ٢٢٩ / ٨ . وأحمد في مسنده ، ١٦ / ٦ - ١٨ .

(٢) رواه البخاري ، ١٣١ / ٤ ، وأحمد في مسنده ، ٢٤٨ / ٢ و ٢٦٤ .

. . . « (٢) في إسناد إخراجهِ إلى خطيئته إسناد مجازي ؛ لأن خطيئته لم تخرجه في الحقيقة والواقع ، إنما كانت سبباً ودافعاً ينهض ليحل محل الفاعل ، ولذلك أسند الفعل إليها .

٥ - الملابسة الآلية :

وذلك حين يكون الفاعل ، في الحقيقة آلة تحقيق الفعل ، وبذلك ترتفع الآلة إلى مرتبة الفاعلية . كما في قول النبي ﷺ : « إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ جَبْرَائِيلَ عِنْدَ رَأْسِي وَمِيكَائِيلَ عِنْدَ رِجْلِي ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : اضْرِبْ لَهُ مَثَلًا ، فَقَالَ : اسْمِعْ سَمِعْتَ أُذُنُكَ ، وَاعْقِلْ عَقْلَ قَلْبِكَ ، إِنَّمَا مَثَلُكَ ، وَمَثَلُ أُمَّتِكَ ، كَمَثَلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ دَارًا ، ثُمَّ بَنَى فِيهَا بَيْتًا ، ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَائِدَةً ، ثُمَّ بَعَثَ رَسُولًا يَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ . فَمِنْهُمْ مَنْ أَجَابَ الرَّسُولَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهُ ، فَاللَّهُ هُوَ الْمَلِكُ وَالِدَارُ الْإِسْلَامُ ، وَالْبَيْتُ الْجَنَّةُ ، وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ رَسُولٌ ، مَنْ أَجَابَكَ دَخَلَ الْإِسْلَامَ ، وَمَنْ دَخَلَ الْإِسْلَامَ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَكَلَ مَا فِيهَا . » (١) في قوله الكريم : « اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك » أسند الفعلين : « سمعت وعقل » إلى الأذن والقلب إسناداً مجازياً حيث أن السماع والتعقل لا يصدران على الحقيقة إلا من الشخص الذي يملك بإرادته أن يتحكم في ذلك بواسطة أذنيه ، وقلبه . . . فدورهما دور الآلة ، التي يتحقق بها الفعل . ومن أجل هذه العلاقة التي تربط بينهما صح هذا الإسناد فجعل ما هو آلة للفعل فاعلاً على سبيل التجوز والمبالغة . . . والقرينة التي صرفت الكلام عن ظاهره ، استحالة صدور الفعل : السمع من الأذنين ، والتعقل من القلب وحدثهما دون صاحبهما .

٦ - الملابسة المكانية :

هي أن يسند الفعل أو ما في معناه إلى مكانه ، نحو ما ورد عن النبي ﷺ من رؤيا قصتها على الصحابة رضوان الله عليهم : « . . . فَأَتَيْنَا بَابَ الْمَدِينَةِ

(١) رواه الترمذي ، ٤ / ٢٢٣ .

فاستفتحنا ففتح لنا ، فدخلناها فتلقانا فيها رجالٌ شطروا من خلقهم كأحسن ما أنت راء ، وشطروا كأقبح ما أنت راء . قال : قالوا لهم : اذهبوا فقعوا في ذلك النهر ، قال : وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض من البياض ، فذهبوا فوقعوا فيه (١)

ففي قوله : « وإذا نهر معترض يجري » مجاز عقلي ، فقد أسند الجريان لضمير النهر ، وإنما الجري للماء الذي في النهر . . . والنهر مكان الجريان ، ولهذه العلاقة بينهما صح إسناد الفعل إلى المكان .

٧ - الملبسة الزمانية :

وهي أن يسند الفعل أو ما في معناه إلى زمانه ، وليس إلى فاعله الحقيقي لغرض بلاغي ، نحو قول النبي ﷺ في قصة النفر الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار : « . . . فأتيت أهلي وأخذت محلبي فحلبت ، وغنمي قائمة ، فمضيت إلى أبي فوجدتهما قد ناما ، فشق علي أن أوقظهما ، وشق علي أن أترك غنمي ، فما برحت جالسا ومحلبي على يدي حتى أيقظتهما الصبح فسقيتهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنا . . . » (٢)

في قوله : « أيقظهما الصبح » مجاز عقلي فقد أسند الإيقاظ إلى زمن الصبح إسناداً إلى غير الفاعل الحقيقي . فالإيقاظ للشخص في الصباح ، والصبح زمن الاستيقاظ . . . لهذه العلاقة بينهما صح إسناد الفعل إلى الزمان ، اعتماداً على قرينة معنوية هي استحالة وقوع الفعل من الفاعل . . . ويظهر سر بلاغة الصورة المجازية هنا في تحقيق الهدف الديني - أعني الحرص على بر الوالدين - فبر الوالدين والرحمة بهما حق عظيم . والرجل شق عليه إيقاظ والديه ؛ لثلايشق ويثقل عليهما - حتى وإن كان الغرض إطعامهما - ولذلك مكث لديهما مضحياً براحته ، ساهراً متحيراً طوال الليلة ، ومحلبيه على يده ، حتى استيقظا بفعل الزمن .

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ، ٥ / ٨ - ٩ .

(٢) المصدر السابق ، ٤ / ٢٧٤ - ٢٧٥ .

ومنه قول النبي ﷺ - في قصة الرجل الذي أوصى بنيه بإحراقه حين وفاته : « . . . فانظروا إذا متُّ فأحرقوني حتى إذا صرتُ فحماً فاسحقوني - أو قال فاسحقوني - فإذا كان يومُ ريحٍ عاصفٍ فاذروني فيها . فقال نبي الله ﷺ : فأخذ موثيقهم على ذلك وربي ، ففعلوا ، ثم أذروه في يومٍ عاصفٍ . . . » (١)

في قوله : « فإذا كان يومُ ريحٍ عاصفٍ » العصف : اشتداد الريح ، فإسناد الوصف « عاصف » إلى موصوفها - ضمير الريح - كان على الحقيقة والواقع . وفي قوله : « ثم أذروه في يومٍ عاصفٍ » جعل العصف لليوم وهو زمن هبوبها على سبيل المجاز العقلي فأسند الوصف - عاصف - إلى ضمير اليوم إسناداً مجازياً للمبالغة . . . فالأبناء - تنفيذاً لوصية والدهم - انتظروا ريحاً شديدة عاصفة ، فاستحوذت شدة الريح على حواسهم فخيّل إليهم أن هذه الشدة قد انفصلت انفصلاً تاماً عن جنس الريح ، واتصلت اتصالاً وثيقاً بالزمن . حتى أن العصف ينبثق من خلاله . . . ولذلك صح إسناد الوصف إلى الزمن .

وقد ورد إسناد العصف إلى اليوم في القرآن الكريم ، حين صور الله عز وجل أعمال الكافرين من البرِّ والخير في ذهابها بالرماد الهش الذي لا يصمد أمام الرياح العاتية . قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البعيدُ ﴾ (٢)

« فقد أسند العصف لليوم وهو لما فيه من الريح أو الرياح ، لكونه زمان هبوبها على الإسناد المجازي . » (٣)

(١) رواه البخاري ، ٨ / ٢٠٠ .

(٢) سورة إبراهيم : ١٨ .

(٣) الزمخشري ، تفسير الكشاف ، تحقيق : محمد مرسي عامر ، ٣ / ١١٦ ، دار المصحف ، القاهرة ، وكتاب روح المعاني ، شهاب الدين السيد محمود الألوسي ، ٥ / ٢٠٤ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

هذه هي ملابسات المجاز العقلي التي أرتأها جمهور البلاغيين . وسُمي الإسناد فيها عقلياً لاستناده إلى العقل دون الوضع . . . وسُمي حكماً لأن «كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه من العقل لضرب من التأول .» (١) هذا بالإضافة إلى أسماء أخرى لهذا النوع من المجاز منها المجاز في الإثبات ، والمجاز في التركيب ومجاز الملابس . . . إلخ . (٢)

القيمة البلاغية للمجاز العقلي :

المبالغة أحد الأغراض البلاغية للإسناد المجازي ، ولأجلها يسند الفعل أو الاسم إلى غير ما حقه أن يُسند إليه ، تبعاً لأحوال معنوية ونفسية تقتضي ذلك الإسناد . . . فنرى سبب المسند أو زمانه أو مكانه أو آله قد ارتقى إلى مرتبة المسند إليه . وبهذا البناء الجديد تتحقق معنى المبالغة ، كما يتحقق - من خلالها - تأكيد المعنى الحقيقي وتقريره في النفس مرتين : مرة بالإسناد الحقيقي ، ومرة بالإسناد المجازي .

كما يتحقق معنى المبالغة والتوكيد في الإسناد المجازي ، يتحقق - كذلك - معنى الإيجاز ، فعن طريق الموازنة بين بناء الجملة قبل التجوز بها وبعده نلمس الإيجاز في البناء ، ويقابل ذلك إضافة صور جديدة للفعل ؛ لإسناده - زيادة على الصورة التي كان عليها في ظل الإسناد الحقيقي . . . وهذا من شأنه أن يثري التراكيب الأدبية ، وينوع الصور في الجملة سواء مع الفعل أو ما في معناه ، فتعطي كل واحدة منها من المعاني والأغراض ما لا تعطيه مع غيرها (٣) . . . هذه المعاني والأغراض أشار إليها الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، موضحاً أن بلاغة المجاز العقلي لا تكون إلا في ذلك النوع الذي لا يقدر عليه إلا الأديب المبدع .

(١) أسرار البلاغة ، ص ٣٨٥ .

(٢) ينظر كتاب المجاز العقلي في البلاغة العربية ، د / عبد العزيز أبو سريع ، ص ٢٠٢ - ٢٠٤ .

(٣) د / السيد عبد الفتاح حجاب ، من أسرار التركيب البلاغي ، ص ٣٤ - ٤١ ، المكتبة التوفيقية ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م « بتصرف » .

يقول الإمام عبد القاهر : « هذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة ، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان ، والاتساع في طرق البيان ، وأن يجيء بالكلام مطبوعاً مصنوعاً ، وأن يضعه بعيد المرام ، قريباً من الأفهام . . . ولا يغرُنك من أمره أنك ترى الرجل يقول : « أتى بي الشوق إلى لقاءك ، وساربي الحنين إلى رؤيتك ، وأقدمني بلدك حق لي على إنسان » وأشبه ذلك مما تجده لسعته وشهرته يجري مجرى الحقيقة التي لا يُشكل أمرها ، فليس هو كذلك أبداً ، بل يدقُّ ويلطّف حتى يمتنع مثله إلا على الشاعر المفلق ، والكاتب البليغ ، وحتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها ، والنادرة تأنق لها » (١).

* * *

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٢٩٥ ..

الفصل الثالث

المجاز اللغوي

١ - المجاز المرسل .

٢ - مجاز بالمشابهة (الاستعارة)

أ - الاستعارة التصريحية .

(١) المفردة (الأصلية ، التبعية)

(٢) المركبة (التمثيلية) .

ب - الاستعارة المكنية .

المجاز اللغوي

أولاً : المجاز المرسل

« هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه »^(١)

وسُمي مرسلًا ؛ لأنه أرسل عن التقييد بعلاقة واحدة، إذ له عدة علاقات . من أشهرها ، كما ذكر الخطيب القزويني :

١ - العلاقة الجزئية ، تسمية الشيء باسم جزئه : نحو قول المصطفى ﷺ : « كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعة وتسعين نفساً . . . »^(٢) وفي رواية أخرى : « قتل تسعة وتسعين إنساناً . »^(٣)

الرواية الثانية على الحقيقة والواقع ، فالقتل وقع على الإنسان بالكلية جسداً وروحاً . . . أما الرواية الأولى ففي قول المصطفى عليه الصلاة والسلام : « نفساً » مجاز مرسل علاقته الجزئية^(٤) ، فالقتل لا يقع على النفس دون الجسد إنما يقع بالحقيقة على المقتول كله جسماً ونفساً . . . والتعبير باسم الجزء ، فيه إشارة لما لهذا الجزء من خصوصية مهمة في هذا الكل ، فقد اعتُبر القتل به دون قسيمه ؛ لأن بموته ضياع الحياة ، فهذه النفس تسكن ذلك الجسد ويقتلها يكون القاتل كمن

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ، ٢٠/٥ .

(٢) رواه مسلم ، ١٠٣ / ٨ .

(٣) رواه البخاري ، ١٤٩ / ٤ .

(٤) وقد تكون العلاقة الملزومية ؛ لأن قتل الجسد يلزم منه إزهاق الروح .

استباح الحدود وهدم الجدار للوصول إلى صاحبه المستكن فيه فيصبيه ، ولذلك كان التعبير به مبالغة في التنفير من هذه الكبيرة ، وهذا ما لمسناه من تسرع الراهب بالرد عليه حينما سأله : هل له من توبة ؟ فقال الراهب : لا ، فقتله فكمّل به مائة .

٢ - العلاقة الكلية : تسمية الجزء باسم كله : نحو قول النبي ﷺ : « إن ثلاثة كانوا في كهف فوق جبل على باب الكهف فأوْصد عليهم . » (١)

يخبرنا المصطفى عليه أفضل الصلاة والتسليم عن ثلاثة نفر التجأوا إلى كهف يحميهم من المطر الذي أصابهم (٢) فإذا بالجبل يقع عليهم أو بمعنى آخر فإذا بصخرة من الجبل تقع على باب الكهف فتوْصد عليهم . انتهى اليأس وانقطاع الرجاء ، فهؤلاء الثلاثة انقطعت بهم الأسباب ، وما من وسيلة لخروجهم إلا أن تدركهم رحمة الله عز وجل فهاهم بمشاعرهم المضطربة من الخوف والوجل الذي ملأ قلوبهم حتى كأننا نسمع أنفاسهم المتلاحقة المتعاقبة ، ومما قرب هذه الصورة حرف (الفاء) بإيحاءها المتعاقبة « فوق الجبل ، فأوْصد عليهم » ، وفي رواية : « فانطبق عليهم » ، فالنبي ﷺ عبّر بالكل (الجبل) وأراد الجزء (الصخرة) لأن هذا الكل خير معين لتصوير المعاناة التي عاناها أولئك نفر الثلاثة .

٣ - العلاقة المسببية : تسمية السبب باسم المسبب :

اشتملت القصة النبوية على نماذج من هذه العلاقة ، منها : قول النبي ﷺ : « ما من مُسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهما الله وأباهم بفضل رحمته الجنة . . . » (٣)

عبّر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام عن الحلم بالحنث ، وأراد بذلك

(١) رواه أحمد في المسند ، ٤ / ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٢) على رواية البخاري ، ٤ / ١٤٧ - ١٤٨ . وحيث ورد قول النبي ﷺ : « بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر فأووا إلى غار فانطبق عليهم . . . »

(٣) رواه أحمد في مسنده ، ٢ / ٥١٠ .

الإشارة إلى بلوغه مبلغاً يحاسب فيه على المعصية ، ويجازى على الطاعة ، فذكر المسبب وأراد السبب ، وخص النبي ﷺ هذه الفترة الزمنية من العمر - كونه صغيراً - لأن القلوب به أعلق والآمال عليه تعقد ، والجزاء من جنس العمل ، فتأسي والديه وصبرهما واحتسابهما هو السبب في دخولهما الجنة .

ومن هذا القبيل قول النبي ﷺ : « لله أفرحُ بتوبة أحدكم من رجل خرج بأرض دويّة مهلكة معه راحلته عليها زادُه وطعامُه وشرابه ، وما يُصلحه ، فأضلّها فخرج في طلبها حتى إذا أدركه الموت . . . » (١) عبر المصطفى الكريم بإدراك الموت له عن إدراكه إماراته وأسبابه ، فأطلق المسبب وأراد السبب . والنبي ﷺ حينما عبر بهذه الكلمة كأنه قد استشعر بحالة هذا الرجل في هذه الدوية المهلكة ، وقد أضلّ راحلته ، وفقد كل ما عليها من طعام وشراب ، حتى أنه استسلم للموت دون أن تدركه أماراته وعلاماته . . . فكان التعبير بالمسبب دون السبب أدق وأبلغ في تصوير ما كانت عليه حالته . ولقد كثر استعمال كلمة (الموت) للدلالة على أسبابه حتى عدّت من الحقيقة .

٤ - العلاقة السببية : تسمية المسبب باسم السبب :

نحو قول الرسول ﷺ ، في حديثه مع سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ، حينما فرض الله عزّ وجلّ الصلوات المكتوبة على أمة محمد عليه الصلاة والسلام - كما ورد في معجزة المعراج - « . . . ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ ، قَالَ : فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي ، فَقُلْتُ : يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَيَّ أُمَّتِي ، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا . . . » (٢)

عبر الرسول ﷺ بالبلاء عن العرفان ، فأطلق السبب وأراد المسبب ، فكانه قال : قد عرفت بني إسرائيل ، وكذلك قوله في روايات أخرى « عاجلت بني إسرائيل . »

(١) رواه أحمد في مسنده ، ١ / ٣٨٣ .

(٢) رواه مسلم ، ١ / ١٠١ .

ومن هذا القبيل قول الرسول ﷺ - في رؤيا قصّها على الصحابة رضوان الله عليهم ، ورؤيا الأنبياء حق - « أتاني ربي عز وجلّ الليلة في أحسن صورة أحسبُه - يعني في النوم - فقال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملائ الأعلّى ؟ قال : قلت : لا ، قال النبي ﷺ : فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي ، أو قال : نحري ، فعلمتُ ما في السموات وما في الأرض ، ثم قال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملائ الأعلّى ؟ قال : قلت : نعم ، يختصمون في الكفارات والدرجات ، قال : وما الكفارات والدرجات ؟ قال : المكثُ في المساجد ، والمشى على الأقدام إلى الجمعات ، وإبلاغ الوضوء في المكاره . . . » (١) لقد عبّر الرسول ﷺ بالمكث في المساجد عن الذكر والدعاء والتسبيح من إطلاق السبب وإرادة المسبب . . . كما عبّر بالمشى على الأقدام إلى الجمعات عن فعل الخير والحسنات فأطلق السبب وأراد المسبب . . . وفي ذلك إشارة إلى الثواب الجزيل لمن قام بها ، وأيضاً لمن همّ بها ولم يفعلها ، لأمر داهمه فممنعه عن القيام بها .

٥ - تسمية الشيء باسم ما كان عليه : نحو قول النبي ﷺ : « افتخرت الجنة والنار ، فقالت النار : يا ربّ يدخلني الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف ، وقالت الجنة : أي ربّ يدخلني الضعفاء والفقراء والمساكين . . . » (٢) في قوله الكريم : الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف ، مجاز مرسل ، حيث سماهم جبابرة باعتبار ما كانوا عليه في الدنيا من الجبروت ، والمتكبرون باعتبار ما كانوا عليه في الدنيا من التكبر . . . إلخ . وتظهر بلاغة المجاز في تصوير استمرار هذه الأوصاف وملازمتها لهم ، باستمرار آثارها المترتبة عليها من ألوان العقاب والعذاب .

وفي قوله الكريم : الضعفاء والفقراء والمساكين مجاز مرسل ، حيث سماهم بذلك على اعتبار ما كانوا عليه في الدنيا من الفقر والضعف ، وكأن هذه

(١) رواه أحمد في مسنده ، ١ / ٣٦٨ .

(٢) رواه أحمد في مسنده ، ٣ / ١٣ .

الأوصاف ملازمة لهم ملازمة آثارها المترتبة عليها من النعيم والفوز بالجنة .
وبلاغة البيان النبوي في هذا الخبر القصصي تظهر واضحة جلية في
ألفاظها المتلائمة ، وما فيها من التناسب لاخفاء فيه ، لأنه لما ذكر ﷺ الجبابة
والتكبرون والملوك ، أردفه بما يلائمه من الضعف والفقر والمسكنة . . . وفي
التعبير بصيغة جمع التكسير (الجبابة) بدلاً من التصحيح (الجبارون) يوحى
بالشدة والغلظة التي انطوت عليها نفوسهم حتى عدت بعيدة عن نفوس وقلوب
البشر . كما أن الجرس الصوتي استطاع التنبيه على تلك القسوة .

٦ - تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه :

نحو قول النبي ﷺ في قصة جريج العابد : « . . . فولدت غلاماً ،
فقلت : من جريج ، فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه ، وسبوه ، فتوضأ وصلّى ،
ثم أتى الغلام ، فقال : من أبوك يا غلام ؟ قال : الراعي . . . » (١)

عبر المصطفى عليه الصلاة والسلام بالغلام عن الطفل ؛ لأنه يؤول إلى
غلام . . . طفل في المهد يتحدث ، ويجيب عن الأسئلة، ويُدلي باسم والده !
يصنع أموراً لا يصنعها إلا من تجاوز مرحلة المهد ، ولكنها إرادة الله التي تقول
للشيء كن فيكون ، ورحمة الله التي أدركت جريج العابد ، مع حسن ظنه بالله
وتوكله عليه (فتوضأ وصلّى ، ثم أتى الغلام . . .)

٧ - المحلية : تسمية الحال باسم محلّه :

نحو قول الرسول ﷺ - من حديث الدجال : « . . . وإن من فتنته أن يمرَّ
بالحيِّ فيُصدِّقونه ، فيأمرُ السماءَ أن تمطرَ فتمطرُ ، ويأمرُ الأرضَ أن تُنبِتَ
فُتْنِبُ . . . » (٢) الأمر للسحاب فأطلق المحل « السماء » وأراد الحال فيه
« السحاب » .

(١) رواه البخاري ، ٤ / ١٤٨ ، رواه مسلم ، ٤ / ٨ .

(٢) رواه ابن ماجه ، ٢ / ١٣٥٩ - ١٣٦٣ .

٨ - العلاقية الحالّية : تسمية المحل باسم الحال :

اشتملت القصة النبوية على نماذج من هذه العلاقة ، خصوصاً حين تروي القصة النبوية ، أحداثاً غيبية ، فالخبر القصصي الذي يصور ما يعانیه أهل النار من العذاب ، وما يتناولونه من أطعمة وأشربة . . . يحدثنا فيه المصطفى عليه الصلاة والسلام قائلاً : « . . . فيستغيثون بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلايب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم . . . » (١)

يستغيثون بالشراب فيرفع إليهم ماء حار شديد الحرارة ، فأطلق الحميم وأراد الإناء . . . فيدفع إليهم أطراف إناء فيه الحميم . . . والقرينة « يدفع إليهم بكلايب الحديد » فالماء لا يدفع بالكلايب إنما الإناء . والبلاغة في كون الماء والإناء من الحرارة الشديدة بحيث يتصور أنهما شيء واحد .

وقول النبي ﷺ في خبر قصصي آخر : « . . . فيقول الله تبارك وتعالى للنار : أنت عذابي أصيب بك من أشياء ، وقال للجنة : أنت رحمتي وسعت كل شيء ، ولكل واحدة منكما ملؤها . . . » (٢)

في القول الكريم : « أنت عذابي » مجاز مرسل علاقته الحالّية ، إذ أن عقابه وسخطه وغضبه وانتقامه عز وجلّ حالّ في النار .

كما نلمح في القول الكريم : « أنت رحمتي » مجاز مرسل آخر علاقته الحالّية ، إذ أن رحمة الله ونعمه وآلاءه حالة في الجنة .

ويظهر عدل الله ورحمته في حديثه إلى الجنة والنار حين يقول للنار : « أنت عذابي أصيب بك من أشياء » فهذا العقاب مصائب يسقطها الله عز وجلّ على من تنكب الطريق المستقيم وانصرف عن خيره العظيم . . . وفي مقابل ذلك يخاطب الجنة فيقول : « أنت رحمتي وسعت كل شيء » فهذه الرحمة واسعة شاملة . . . فكأنها شيء ذو سعة يستوعب كل شيء .

(١) رواه الترمذي ، ٤ / ٧٠٧ - ٧٠٨ .

(٢) رواه أحمد في المسند ، ٣ / ١٣ .

ومن هذا القبيل قول النبي ﷺ - من حديث خروج الدجال : «
ويأمر الأرض ، فتحبسُ نباتها كُلُّه ، فلا تنبتُ خضراء . فلا تبقي ذات ظلف إلا
هَلَكَتْ ، إلا ما شاء الله . » (١)

اشتملت العبارة النبوية على الأسلوب الكنائي في قوله : (ذات ظلف) ،
فكنى بها عن الحيوانات الداجنة المجتررة ، التي في بقائها حياة للبشر . لكنها
تهلك . وفي هلاكها أحد مؤشرات القحط والجذب الذي ستصاب به الأرض في
ذلك الزمان . . إلى جانب ذلك أنها - أعني الأرض - تحبس نباتها ، فلا تنبت
خضراء وفي هذه العبارة مجاز مرسل ، حيث أن الاخضرار لونٌ ، فهو عرض
قائم بالنبات لا يستقل بأن ينبت ، فهو حال ، والنبات محله ، وهو المقصود
بالاخضرار . . فالعبارة من إطلاق الحال وإرادة المحل . .

٩ - تسمية الشيء باسم آله :

نحو قول المصطفى عليه الصلاة والسلام في خروج يأجوج ومأجوج :
« . . . إذ قد أوحى الله إلى عيسى : إني قد أخرجتُ عبداً لي ، لا يدان لأحد
بقتالهم . . . » (٢) « فعبّر باليد عن القدرة والطاقة لأنها آلتها . » (٣)

(١) رواه ابن ماجه ، ٢ / ١٣٥٩ - ١٣٦٣ .

(٢) المصدر السابق ، ٢ / ١٣٦٥ - ١٣٦٩ .

(٣) اكتفيت بهذه العلاقات للمجاز المرسل ، بناءً على ما ذكره الخطيب القزويني في كتابه الإيضاح
في علوم البلاغة . . والباب الثاني يشمل بعضاً من العلاقات لم تذكر في هذا الفصل . .

ثانياً : الاستعارة :

الاستعارة في الأصل طلب الإعارة ، بمعنى : « رفع الشيء وتحويله من مكان إلى آخر ، يقال : استعار فلان سهماً من كئانته : رفعه وحوّله منها إلى يده . . . (١) » وعلى هذا صحّ أن يقال : استعار شخص من آخر شيئاً ، بمعنى أن الشيء المستعار قد انتقل من يد المعير إلى يد المستعير لغرض الانتفاع . . . ولذلك لا تتم عملية الاستعارة إلا بين متعارفين تجمع بينهما صلة ما . (٢)

أما تعريفها في اصطلاح علماء البيان ، يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني : « الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء ، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره ، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيّره المشبه وتجرّيه عليه . (٣) »

ويرى الخطيب القزويني أنها : « ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له . (٤) » فالاستعارة بإيجاز هي مجاز علاقته المشابهة بشرط المبالغة . (٥)

ونحن في الاستعارة أمام نوعين من المعاني : المعنى الحقيقي ، والمعنى المجازي ؛ ولا بد من علاقة واضحة بينهما تيسر الانتقال من لفظ الاستعارة إلى حقيقتها . فالاستعارة تؤدي نفس المعنى الذي تؤديه العبارة الحقيقية ، وليس ثمة فارق بينهما إلا ما تؤديه الاستعارة من التأثير الحسن في نفس السامع أو القارئ ،

(١) لسان العرب ، مادة « عير » .

(٢) هذا المعنى قرره ابن الأثير ومن بعده العلوي ، فقالا : « إن الاستعارة المجازية كالأستعارة الحقيقية ، لا تتم إلا بين المتعارفين » . ينظر كتاب « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » ، ١ / ٣٤٧ ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة المصرية ، بيروت ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م . وكتاب « الطراز المتضمن لأسرار البلاغة ، وعلوم حقائق المجاز » ، ١ / ١٩٨ ، مطبعة المقتطف ، مصر ، ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م .

(٣) دلائل الإعجاز ، ص ٦٧ ..

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة ، ٥ / ٣٧ .

(٥) انظر ، شروح التلخيص ، ٤ / ٤٥ . . وأسرار البلاغة ، ص ٣٩٨ .

فضلاً عن الترجمة الجيدة للمعنى مع المبالغة . . . ذلك أن الاستعارة تقوم على الادعاء . يقول الإمام عبد القاهر : « ليست الاستعارة في نقل الاسم عن الشيء ، وإنما هي ادعاء معنى الاسم للشيء . وإذا ثبت أنها ادعاء معنى الاسم للشيء ، علمت أن الذي قالوه^(١) من أنها تعليقٌ للعبارة على غير ما وُضعت له في اللغة ، ونقلٌ لها عما وضعت له ، كلامٌ قد تسامحوا فيه ؛ لأنه إذا كانت « الاستعارة » ادعاء معنى الاسم ، لم يكن الاسم مُزاًلماً عما وُضِعَ له ، بل مُقرأً عليه واعلم أنك تراهم لا يمتنعون إذا تكلموا في الاستعارة من أن يقولوا : « إنه أراد المبالغة فجعله أسداً » ، بل هم يلجأون إلى القول به . وذلك صريحٌ في أن الأصل فيها المعنى ، وأنه المستعار في الحقيقة ، وأن قولنا : « استعير له اسم الأسد » إشارة إلى أنه استعير له معناه ، وأنه جُعِلَ إياه .^(٢) « فإذا ثبت أن ليست الاستعارة نقل الاسم ، ولكن ادعاء معنى الاسم ، وكنا إذا عقلنا من قول الرجل : (رأيت أسداً) أنه أراد به المبالغة في وصفه بالشجاعة ، وأن يقول : إنه من قوة القلب ، ومن فرط البسالة وشدة البطش ، وفي أن الخوف لا يُخامرُه ، والذعر لا يعرض له ، بحيث لا ينقُص عن الأسد - لم نعقل ذلك من لفظ (الأسد) ، ولكن من ادعائه معنى الأسد . ثبت بذلك أن الاستعارة كالكناية في أنك تعرف المعنى فيها من طريق المعقول دون طريق اللفظ .^(٣) »

(١) يقصد الإمام عبد القاهر ما قاله الرّماني عن الاستعارة ، بأنها : « تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإيابة » . انظر النكت في إعجاز القرآن « ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن » تحقيق وتعليق : محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، ص ٨٥ ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩١م .

(٢) دلائل الإعجاز ، ص ٤٣٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٣٩ - ٤٤٠ . . في هذا النص يرى الشيخ عبد القاهر أن الاستعارة مجاز عقلي لا لغوي ، وحجته أن الاستعارة لا تطلق على المشبه إلا بعد الادعاء بدخوله في جنس المشبه به ، فلو كانت الاستعارة في النقل فقط لكانت الإعلام المنقولة ، كيزيد ويشكر ، استعارة . . والادعاء بحد ذاته ما هو إلا ضرب من التخيل والتأويل . . . على أن الشيخ في كتابه أسرار البلاغة يرى - كما رأها جمهور البلاغيين فيما بعد - أنها مجاز لغوي ، فيقول : =

هذا ، ويجب أن يكون واضحاً أن الاستعارة تغاير التشبيه ، وإن كانت مبنية عليه ، فأركان التشبيه أربعة : المشبه ، والمشبّه به ، والأداة ، ووجه الشبه . . . أما الاستعارة فهي تشبيه حذف أحد طرفيه وأداته ووجه الشبه ، ولذلك فهي أبغ من التشبيه ؛ لأننا مهما بالغنا في التشبيه فلا بد من ذكر الطرفين ، وهذا اعتراف بتباينهما ، وأن العلاقة بينهما ليست سوى التشابه والتقارب ، ولا تصل إلى حدّ الامتزاج أكثر من صورة التقارب بين شيئين ، ودُنُوّ أحدهما من الآخر ، بعكس الاستعارة فإن فيهما دعوى الاتحاد والامتزاج ، وأن المشبه والمشبّه به صاراً شيئاً واحداً ، يدل عليهما لفظ واحد ، وهذا ما يجعلنا نتناسى التشبيه ، وتبرز لنا صورة جديدة تعتمد على التخيل والتأثير في النفس لا نجد لها مثيلاً في التشبيه . . . وعلى هذا فاللجوء إلى الاستعارة أو المجاز ليس حلية للزينة يمكن الاستغناء عنه ، إنما هو عمل جوهري يستمد منه الشاعر أجنحة الخيال ليبر به عن مكنون نفسه حين تعجز الألفاظ الوضعية عن التعبير عما يجول في خاطره وأعماقه ، فالخيال هنا مكمل لما تعجز الألفاظ أن تعبر عنه ، ويعتبر أداة لاستيفاء ما يشعر به من نقص إزاء لغته . (١) .

= «إن الاستعارة أن يكون للفظ أصلٌ في الوضع اللغوي معروف تدلّ الشواهد على أنه اختُص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل ، وينقله إليه نقلاً غير لازم ، فيكون هناك كالعارية » ، ص ٣٠ .

ويقول في موضع آخر : « إن المستعير يعمد إلى نقل اللفظ عن أصله في اللغة إلى غيره ، ويجوز به مكانه الأصلي إلى مكان آخر لأجل التشبيه والمبالغة والاختصار . » ص ٢٤٠ .

فكان الشيخ عبد القاهر يرى أن المشبه يشترك مع المشبه به في أخص صفاته وأدقها مع بقاء الحقائق والصفات الأخرى دون مشاركة من المشبه فيها . ولكن مع ذلك يستعمل اللفظ بكل حقائقه في المشبه ، ومن هنا كان استعمال الكلمة في غير ما وضعت له .

ووجه آخر للتوفيق بين الرأيين ، ما ذكره السكاكي من أن ادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به يقتضي أن يكون لفظ المشبه به قسامين : متعارف وغير متعارف ، فالموضوع له المتعارف ، والمستعمل فيه غير المتعارف . يراجع كتاب « مفتاح العلوم ، ص ١٥٨ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، وكتاب الإيضاح في علوم البلاغة ، ٥ / ٥٥ - ٥٦ .

(١) د / عبد القادر حسين ، القرآن والصورة البيانية ، ص ١٧٤ ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة

الثانية ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م . .

وتقوم الاستعارة على أصول ثلاثة : المستعار ، وهو اللفظ المنقول ،
والمستعار له ، وهو المشبه ، والمستعار منه ، وهو المشبه به . تمتزج هذه الأصول
مع بعضها البعض لتدل على الصورة الاستعارية ، تلك الصورة التي عمادها :
تناسي التشبيه ، وبتناسيه تتحقق المبالغة ، ودعوى الاتحاد . . . ولكي يسهل
الانتقال من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي لا بد من قرينة مانعة من إرادة
المعنى الأصلي . قد تكون لفظية أو معنوية ، كما أنها أمرٌ واحدٌ أو أكثر . (١)

ويرى الدكتور محمد أبو موسى أن تستعمل قرينة الاستعارة في معانيها
الحقيقية ، يقول : « والوجه عندنا أن تكون هذه الروادف مستعملة في معانيها
الحقيقية ؛ لأنها حينئذ تبعث في الخيال ما أضيفت إليه بطريق الاستعارة في صورة
ما تضاف إليه بطريق الحقيقة ، فقولنا : شجاع يفترس أقرانه ، حين يكون
الافتراس باقياً على حقيقته ، تخيل إلينا أن الشجاع أسد ، وكذلك « تطفىء » في
قول المصطفى عليه السلام : « الصدقة تطفىء الخطيئة » يخيل إلينا أن الخطيئة نار
تحيط بصاحبها . (٢)



(١) انظر الإيضاح في علوم البلاغة ، ٥ / ٦٠ - ٦١ .

(٢) التصوير البياني ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

أقسام الاستعارة :

جميع صور الاستعارة تندرج تحت قسمين أساسيين هما : الاستعارة التصريحية ، والاستعارة المكنية .

القسم الأول : الاستعارة التصريحية :

هي : « أن تنقل الاسم عن مسماه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم فتجريه عليه ، وتجعله متناولاً له تناول الصفة مثلاً للموصوف . (١) »

فقولنا : رأيت أسداً : نُقلت كلمة الأسد عن مسماه الأصلي واستعيرت للرجل للدلالة على قوته وشجاعته . . . بمعنى أنها : ما صُرح فيها بلفظ المشبه به ، أو ما استعير فيها لفظ المشبه به للمشبه .

وتنقسم إلى قسمين : قد يكون المستعار فيها لفظاً واحداً ، فتكون استعارة مفردة « أصلية أو تبعية » .

وقد يكون المستعار فيها حالة أو هيئة مركبة فتكون استعارة تمثيلية .

١ - الإستعارة التصريحية المفردة :

أ - الاستعارة التصريحية الأصلية :

ما كان اللفظ المستعار فيها اسم جنس حقيقة ، أو تأويلاً ، أو اسم معنى (٢) . وسميت أصلية ؛ « لأن التجوز فيها بطريق الأصالة والاستقلال من غير أن تتوقف على استعارة أخرى تبني عليها » (٣) .

حين استعراض الصور الاستعارية في البيان النبوي نجد أن القصص

(١) أسرار البلاغة ، ص ٤٤ .

واتفق البلاغيون فيما بعد على أنها : اللفظ المستعمل في غير ما وضع له ، لعلاقة المشابهة ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي .

ينظر كتاب « البيان في ضوء أساليب القرآن » ، ص ١٦٦ ، عبد الفتاح لاشين ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤ م .

(٢) انظر كتاب « التصوير البياني » ، ص ٢١٩-٢٢٠ ، د/ محمد أبو موسى .

(٣) د/ عبد الفتاح لاشين « البيان في ضوء أساليب القرآن » ، ص ١٧٠ .

النبوي حفل بالكثير من الصور الاستعارية المختلفة ، التي أسهمت في تصوير الأحداث وتطورها . . . من ذلك حديث المصطفى عليه السلام عن المسلمين واليهود والنصارى في قبولهم للنور الذي جاء من عند الله أو عدم قبولهم له ، وبيان فوت أجر كل من اليهود والنصارى لعدم بقائهم على الإيمان بما أنزل الله بعد نسخ رسالاتهم ، أمّا المسلمون فقد استكملوا أجر الفريقين بإيمانهم بمحمد ﷺ ، وما جاء به من الحق إضافة إلى إيمانهم بالأنبياء السابقين ، وإقرارهم برسالاتهم ، وما جاءوا به من الدين الصحيح ، فكان جزاؤهم كما بينه النبي ﷺ بقوله : « مثلُ المسلمين واليهود والنصارى كمثُل رجل استأجرَ قومًا يعملون له عملاً ، يوماً إلى الليل على أجرٍ معلوم ، فعملوا له نصفَ النهار ، فقالوا : لا حاجة لنا إلى أجرِكَ الذي شرَطتَ لنا ، وما عملنا باطلٌ ، فقال لهم : لا تفعلوا ، أكملوا بقيةَ عملِكُمْ وخذوا أجرَكُم كاملاً ، فأبوا وتركوا ، واستأجرَ آخرين بعدهم ، فقال : أكملوا بقيةَ يومِكُمْ هذا ولكم الذي شرَطتُ لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حينَ صلاةِ العَصْرِ قالوا : لك ما عملنا باطلٌ ، ولك الأجر الذي جعلتَ لنا فيه ، فقال لهم : أكملوا بقيةَ عملِكُمْ ، فإن ما بقي من النهار شيءٌ يسيرٌ ، فأبوا ، واستأجرَ قومًا أن يعملوا له بقيةَ يومهم ، فعملوا بقيةَ يومهم حتى غابت الشمسُ ، واستكملوا أجرَ الفريقين كليهما فذلك مثلُهُم ومثلُ ما قبلوا من هذا النور . (١) » شبه الرسول عليه الصلاة والسلام الهدى بالنور بجامع الأهتداء في كلِّ . ثم استعار النور المحسوس المرئي للهدى المعقول المعنوي فوضح المعنى ، وجعل الصورة مأنوسة لدى النفس . ولم يقف البيان النبوي عند هذا الحد من إيضاح المعنى ، وحسن تصويره ، بل إن الجانب اللفظي ساعد على توضيح المعنى ، فكان اللفظ الموحى ، وهو لفظ (النور) المشار إليه باسم الإشارة الحسية « هذا » حتى بدت الصورة ظاهرة واضحة للعيان . . . فهذا النور يبدد الظلام الحسي ، وينير جوانب الطرق ، فيبعث الأمن والطمأنينة في النفس ، كما أن الهدى يبدد ظلام النفس ، ويدعوها إلى الهدوء والاستقرار ، ويقتل حيرتها ، ويقضي على اضطرابها النفسي والفكري . وهكذا يظهر أثر هذا النور في نفوس

(١) رواه البخاري ، ٣ / ٥٠ - ٥١ .

المسلمين بفضل طاعتهم نبيهم ؛ لينالوا الفوز العظيم فها هم هؤلاء عملوا
واستكملوا أجر الفريقين .

لقد أبرزت الاستعارة المعاني العقلية في صور محسوسة أو كما
يقول عنها الشيخ عبد القاهر الجرجاني : « أرتك المعاني اللطيفة التي هي من
خبايا العقل ، كأنها قد جسّمت حتى رأتها العيون^(١) وهذا الضرب هو
المنزلة التي تبلغ عندها الاستعارة غاية شرفها .^(٢) »

وإن كانت الاستعارة العقلية على هذه الدرجة من البلاغة . . . ففي البيان
النبوي نلمح صوراً للاستعارة الحسية لا تقل بلاغة عن العقلية ، ولها أثرها
وهدفها في توضيح مبهم أو أمر يقصر الإدراك العقلي عن سبر غوره ، ومعرفة
كنهه . ومن هذا المنطلق تستمد الاستعارة قيمتها ، نحو قول المصطفى عليه
أفضل الصلاة والسلام . كما ورد في معجزة المعراج ، وحال صعوده إلى
السموات ، حتى أنه سمع [صوت الأقلام حال كتابة الملائكة لوحي الله عزّ
وجلّ وأفضيته^(٣)] أما الأقلام وصورتها وكيفيتها ، فهذه أمور لا يعلمها إلا الله
وحده ، أو من أطلعه الله على شيء من ذلك من ملائكته ورسله . . . والرسول ﷺ
قرب إلى الأذهان شيئاً من هذا - بما أطلعه عليه - فقال عليه الصلاة والسلام :
« . . . ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام »^(٤) شبه النبي
الكريم صوت الأقلام حال كتابة الملائكة بها بصوت ألفه العربي ، ورددت
صحراؤه صدها ، وهو الصريف والصريف في الأصل صوت البكرة عند
الاستسقاء . واستعير لصوت جريان الأقلام بما تكتبه الملائكة من أفضية الله عزّ

(١) أسرار البلاغة ، ص ٤٣ . .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٦ . .

(٣) أبو سليمان حمد الخطابي ، أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري ، ١ / ٣٤٨ ، تحقيق
ودراسة د / محمد بن سعد آل سعود ، مطابع جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، الطبعة الأولى ،
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م . وينظر كتاب « صحيح مسلم بشرح النووي » ، ١ / ٢٢١ . .

(٤) رواه مسلم ، ١ / ١٠٢ - ١٠٣ . .

وجلّ ووحيه ، بجامع الحدة والقوة في كلّ ، والقرينة إضافة الصريف إلى الأعلام ، وفي الظهور « حتى ظهرت » بمعنى علوت . وفي السماع ملاءمة للطرفين فهي استعارة تصريحية أصلية مطلقة .

ومن ذلك قول النبي ﷺ في حديث الشفاعة : « . . . إذا كان يوم القيامة أذن مؤذنٌ ، تتبّع كل أمة ما كانت تعبدُ ، فلا يبقى من كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبدُ الله برًّا أو فاجرٌ . وغُبرَاتُ أهل الكتاب ، فيُدعى اليهودُ ، فيقال لهم : مَنْ كُنتُمْ تعبدون؟ قالوا : كُنَّا نَعْبُدُ عَزِيرَ ابْنِ اللَّهِ فيقالُ لهم : كَذَبْتُمْ ، ما اتَّخذَ اللهُ من صاحبة ولا وكْد . . . (١) »

أصل الغُبرَة : بقية الشيء ، وغلبت على بقية اللبن في الضرع ، وغُبرَّ الليل : آخره . . . فكأن كل أمة تبعت ما كانت تعبد : فأهل الأوثان والأصنام تبعوا أوثانهم وأصنامهم حتى تساقطوا في النار ، لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر ، وقليل من أهل الكتاب ، كانوا يدعون عبادة الله عزّ وجلّ ، ولذلك تأخروا مع المسلمين . فلما حققوا على عبادة من ذكر من أنبيائهم « عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله » ألحقوا بأصحاب الأوثان (٢) . . . وكلمة « غُبرَات » حيث صيغتها جمع المؤنث السالم توحى بمعنى القلة ، والأصل في الكلمة : بقايا الشيء أو آخره ، فشبه العدد المتبقي من أهل الكتاب بغبرات اللبن في الضرع بجامع القلة في كلّ ، واستعمل لفظ المشبه به في المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية . (٣)

والاستعارة في كلا القصتين الأخيرتين ، من قبيل الاستعارة الحسية التي قامت بدورها المنوط بها في بيان أمور حسية غيبية . . . حيث استطاعت إبراز هذه الأمور في أقرب صورة يدركها الإنسان ، في ذات الوقت الذي مزجت فيه

(١) رواه البخاري ، ١٧٩ / ٥ .

(٢) انظر فتح الباري ، ابن حجر العسقلاني ١١ / ٤٤٩ .

(٣) انظر أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري ، أبو سليمان حمد الخطابي ، ١ / ٥٣٣ . وانظر

«المجازات النبوية» ، ص ٣٤١ - ٣٤٢ ، الشريف الرضي .

بين أمور متباعدة ، متباينة ، ذلك أن كلَّ واحدة منهما قائمةٌ على استعارة الشيء للشيء من غير جنسه ، بجامع موجود بحقيقته في الطرفين .

ب - الاستعارة التصريحية التبعية :

هي ما كان اللفظ المستعار فيها فعلاً أو اسماً مشتقاً أو حرفاً . وسميت بالتبعية ؛ لأن التجوُّز فيها بطريق التبع . وسرُّ ذلك ، كما بيَّنه الإمام عبد القاهر الجرجاني « أن الفعل لا يُتصوَّر فيه أن يتناول ذات الشيء ، كما يتصور في الاسم ، ولكن شأن الفعل أن يُثبت المعنى الذي اشتق منه للشيء في الزمان الذي تدل صيغته عليه . فإذا قلت : « ضرب زيدٌ » أثبتَّ الضرب لزيد في زمان ماضٍ ، وإذا كان كذلك ، فإذا استعير الفعل لما ليس له في الأصل ، فإنه يُثبت باستعارته له وصفاً هو شبيه بالمعنى الذي ذلك الفعل مشتق منه » (١) .

إذا المقصود هو المعنى المثبت للشيء - وهو المصدر - فلا يمكن وصف الفعل بأنه مستعار ؛ لدخول الزمان - غير الثابت - في مفهومه .

يقول الخطيب القزويني : « التشبيه في الأفعال والصفات المشتقة منها لمعاني مصادرها ، وفي الحروف لمتعلقات معانيها » (٢) .

والاستعارة التبعية في الفعل تجري باعتبار حدثه ، أو باعتبار زمانه على نحو ما سألين الآن :

(١) الاستعارة في الفعل باعتبار الحدث :

استخدم الأسلوب النبوي الكريم الاستعارة التبعية وسيلة لتوضيح المعنى وتقريبه للأذهان . . . ومن ذلك - على سبيل المثال لا الحصر - لورودها كثيراً في أسلوب القصص النبوي - :

- استعارة الأخذ للعقاب . نحو قول النبي ﷺ في ما يحكى عن الله جل

(١) أسرار البلاغة ، ص ٥١ ، وص ٥٣ .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ، ٥ / ٩٠ - ٩١ .

وعلا ، لبيان مغفرته وسعة رحمته : « إنَّ عبداً أصاب ذنباً - وربما قال : أذنب ذنباً - فقال : ربُّ أذنبتُ ذنباً - وربما قال : أصبت - فاغفر ، فقال ربُّه : أَعْلَمَ عبدي أنَّ له ربّاً يغفرُ الذنبَ ويأخذُ به ؟ غفرتُ لعبدي . ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنباً - أو أذنب ذنباً - فقال : ربُّ أذنبتُ - أو أصبتُ - آخر فاغفره ، فقال : أَعْلَمَ عبدي أنَّ له ربّاً يغفرُ الذنبَ ويأخذُ به ؟ غفرتُ لعبدي . . . فقال : أَعْلَمَ عبدي أنَّ له ربّاً يغفرُ الذنبَ ويأخذُ به ؟ غفرتُ لعبدي ، ثلاثاً ، فليعمل ما شاء » (١) .

يدل هذا الحديث الشريف على عظيم فائدة الاستغفار . . ويهدف إلى فتح باب الأمل ، والتذكير بوسع رحمة الله عز وجل ، وسابغ عطفه وعفوه . . وهو تصوير للقيم الروحية التي يحاول البيان النبوي - من خلالها - أن يربطنا بالعالم الغيبي من ناحية ، كما يحاول أن يوثق صلتنا بالله تبارك وتعالى من ناحية أخرى . . والاستغفار والذكر وسائر ألوان الحمد قيم روحية ، تسمو بالإنسان وتقربه من الله عز وجل . . إن أصاب العبد ذنباً وبادر إلى التوبة ، وأتاب إلى الله تبارك وتعالى يسأله المغفرة ، فهو في مشيئته عز وجل إن شاء عذبه بذنبه ، وإن شاء غفر له . . واستعارة البيان النبوي الكريم الأخذ للعقاب ، بجامع التمكّن من الشيء في كل . . . نقول في إجراءاتها شبه العقاب بالأخذ ، ثم بولغ في التشبيه حتى ادّعى أن المشبه من جنس المشبه به ، ثم استعير الأخذ للعقاب ، واشتق من الأخذ بمعنى العقاب (يأخذ به) بمعنى (يعاقب به) على سبيل الاستعارة التبعية . . . والتعبير بالاستعارة أبلغ في توكيد المعنى ، وأدق في الدلالة عليه . . إن الله عز وجل واسع المغفرة ، وشديد العقاب . هذا ، وقد وردت استعارة الأخذ للعقاب والهلاك في مواضع من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٢) .

(١) رواه البخاري ، ١٩٩ / ٨ ، ومسلم ، ٩٩ / ٨ .

(٢) العنكبوت : ٤٠ .

ومن المعاني المجازية لمادة (أخذ) قول النبي ﷺ في بيان فضل سورة البقرة والحض على تعلّمها

وقد يستعار الرفع للزوال . كما قال الرسول ﷺ - في وصفه لما تكون عليه نفوس البشر حين نزول سيدنا عيسى عليه السلام : « فيكون عيسى بن مريم عليه السلام في أمتي حكماً عادلاً ، وإماماً مُقسطاً . يدق الصليب ، ويدبح »

: = « تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة . . . » رواه أحمد في مسنده ، ٤٠ / ٣ .

لسورة البقرة من الفضل ما كان مصداقاً لتلقيها فسطاط القرآن . . . أنها جمعت بين أصول الدين الإسلامي ، وعلو هديه ، وسموه على ما سبقه من الأديان . . . فضلاً عن بيانها لأصول شرائعه . . . ومن هنا كانت الدعوة النبوية الكريمة إلى تعلمها لما فيها من الأجر والثواب . . . وعبر البيان النبوي الكريم عن قواعد وأسس التعلم وهي الحفظ والفهم والتدبر والعمل بالأخذ ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية بجامع حيازة الشيء وتحصيله في كل . . . كما عبر الأسلوب النبوي الكريم عن نسيانها أو الانصراف عن قراءتها وحفظها والعمل بها بالترك . . . ويمكن حمل الكلمة (الترك) على الحقيقة ، بمعنى أن يدع الإنسان حفظها ، أو يحفظها لكنه لا يتدبر معناها ، أو إنه لا يعمل بها . . . وقد تستعمل مجازاً ، باستعارتها للنسيان بجامع الانصراف عن المنافع الشريفة في كل ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية . . . وأياً ما كان المراد ، فإن الإنسان حيثئذ يفوته الخير ولا يجني سوى الحسرة والندم . . . ونلمح من مجموع العبارة النبوية الكناية عن الخير العظيم الملازم لقراءتها وفهمها ، على ما في العمل بها من كمال النفس وطهارتها . .

ونلمح صوراً كناية في ذات الكلمة (أخذ) في مواضع من الحديث الشريف ، منها قوله ﷺ : « إن موسى سأل ربه فقال : أي رب أي أهل الجنة أدنى منزلة ، قال : رجل يأتي بعد ما يدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل . فيقول : كيف أدخل وقد نزلوا منازلهم وأخذوا أخذاتهم . . » رواه مسلم ، ١ / ١٢١ .

فقوله الكريم : « أخذوا أخذاتهم » كناية عن أنهم سلكوا طرقهم في درجات الجنة ، وقيل : كناية عن حصولهم للكرامة والثوبة من الله عز وجل . .

وقد يكتفى بها عن (المنع) في قول المصطفى عليه الصلاة والسلام - كما ورد في قصة القوم الذين اقتسموا السفينة - « . . . فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم ، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم » رواه الترمذي ، ٣ / ٣١٨ .

هذا ، وسيأتي تحليل هذه الصورة الكنائية في فصل الكناية . .

الخنزير ويضعُ الجزيةَ ، ويترك الصدقةَ ، فلا يسعى على شاة ولا بعير ، وترُفع الشحناء والتباغضُ ، وتُنزَعُ حمةُ كُلِّ ذاتِ حمةٍ (١) » .

شبه البيان الكريم الزوال بالرفع ، بجامع الانتهاء في كلِّ ، ثم تنوسي التشبيه وادعى أن المشبه من جنس المشبه به ، ثم استعير الرفع للزوال ، واشتق من الرفع بمعنى الزوال (ترفع) بمعنى (تزول) ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية . . . ونائب الفاعل (الشحناء) قرينة الاستعارة ، فلا يمكن أن يحدث للشحناء رفع حقيقي . . وفي الاستعارة دلالة على شيوع الأمن والطمأنينة ، كما أخبرنا بذلك الصادق المصدوق ﷺ .

ومن قبيل الاستعارة التبعية ، استعارة الوضع للجعل ، كما ورد في الخبر القصصي ، قول الرسول ﷺ : « إنَّ الله إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال : إنِّي أحبُّ فلاناً فأحبهُ ، قال : فيحبهُ جبريل ، ثم يُنادى في السماء فيقول : إنَّ الله يُحبُّ فلاناً فأحبُّوه فيحبهُ أهلُ السماء ، قال : ثم يُوضَعُ له القبول في الأرض . وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول : إنِّي أبغضُ فلاناً فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم يُنادي في أهل السماء إنَّ الله يبغضُ فلاناً فأبغضوه ، قال : فيبغضونه ثم تُوضَعُ له البغضاءُ في الأرض . (٢) » . . الوضع هنا مستعار لكلا الأمرين : في القبول ، والبغضاء بمعنى يجعل له القبول في الأرض ، ويجعل له البغضاء في الأرض . . ها هي المحبة في السماء يتردد صداها في الأرض ، ويكتب له القبول من أهلها ، بل إننا نشعر بها ونحسها ، ولذلك كان التعبير عنها بالوضع أبلغ ، ومثل ذلك في البغضاء ، فشبه البيان النبوي الكريم الجعل بالوضع ، ثم تنوسي التشبيه . وادعى أن المشبه من جنس المشبه به ، ثم استعير الوضع للجعل ، واشتق من الوضع بمعنى الجعل ، (يوضع) بمعنى (يجعل) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

ومن هذا القليل استعارة اللجام للمنع عن الكلام ، كما في قول الرسول

(١) رواه ابن ماجه ، ١٣٦٢ / ٢ .

(٢) رواه البخاري ، ١٩٥ / ٨ ، ومسلم ، ٤١ / ٨ .

ﷺ : « عَرَضَ عَلَيَّ مَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَأَمْرِ الْآخِرَةِ ، فَجُمِعَ الْأَوْلُونَ وَالْآخِرُونَ بِصَعِيدٍ وَاحِدٍ فَقَطَّعَ النَّاسَ بِذَلِكَ حَتَّى انْطَلَقُوا إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْعَرَقُ يَكَادُ يُلْجِمُهُمْ ، فَقَالُوا : يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ ، وَأَنْتَ اصْطَفَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ . . . (١) »

تستعرض العبارة النبوية الكريمة بعضاً من أحداث تقع في اليوم الآخر ، حين يجمع الناس بصعيد واحد في لحظات عصبية يتملكهم الخوف ، ويتصبب منهم العرق حتى يكاد يلجمهم ، أي يصل إلى أفواههم فيصير لهم بمنزلة اللجام ، يمنعهم عن الكلام . . . فشبّه المصطفى عليه الصلاة والسلام منع الناس عن الكلام بسبب العرق بالإلجام . . . بجامع منع اللسان في كلِّ ، واشتق من الإلجام (يلجم) بمعنى (يمنع) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

ومن الاستعارة التبعية ، استعارة الصبغ لظهور الأثر ، كما في قول النبي ﷺ : « يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّبَكُ نَعِيمٌ قَطُّ ؟ فيقول : لا والله يا رب . . . وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ ، فيقال له : يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ ، هَلْ مَرَّبَكُ شِدَّةٌ قَطُّ ؟ فيقول : لا يا ربُّ مَا مَرَّبِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ . (٢) »

القصة النبوية وسيلة من وسائل تربية نفوس المؤمنين ، وتكوينها تكويناً إسلامياً ، يؤهلهم لحمل رسالة الإسلام . . . قد استطاع الرسول ﷺ أن يوظف القصة توظيفاً جيداً في سبيل تحقيق غرضه التربوي بسلوك طرق مختلفة (٣) ، لها

(١) رواه أحمد في المسند ، ١ / ٤ - ٥ . .

(٢) رواه مسلم ، ٨ / ١٣٥ . .

(٣) ذكر الدكتور محمد بن حسن الزبير في كتابه (القصص في الحديث النبوي) جملة من طرق التربية في القصص النبوي الكريم ، هي :

أ - التربية عن طريق التعليم . ب - التربية بالترغيب والترهيب . .

ج - التربية عن طريق الموعظة والعظة المستقاة من قصص السابقين .

د - التربية عن طريق التوبة . انظر : ص ٤٤٢ - ٤٥٨ . .

أثرها الحيوي في تربية الإنسان وتوجيهه نحو الأفضل . والتربية بالترغيب والترهيب ، أحد هذه الطرق ، وهي نابعة أساساً من النفس البشرية ، وما ركب في فطرتها من طبيعتي الخوف والرجاء ، المتوازيتين في هذه النفس من ناحية ، والمتقابلتين فيها من ناحية أخرى . .

وقد حرص الإسلام - من خلال نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف - « أن يعمد إلى خطي الخوف والرجاء ، فينفذ عنهما أولاً كل خوف فاسد وكل رجاء منحرف ، ثم يعمد إليهما بعد ذلك فيوقع عليهما الإيقاع الصحيح الذي يصدر عن نفس بشرية سوية ينبغي لها أن ترجو وينبغي لها أن تخاف .^(١) » ومن هنا كان توجيه هاتين القوتين لدى الإنسان في القصة النبوية إلى الله عزّ وجلّ رجاءً لرضاه ومغفرته ، وتخويفاً من عذابه ونقمته . . . ومن هنا يعرض النص النبوي الشريف صورتين متقابلتين ، أولاهما : تشير الرهبة والفرع ، وبخاصة في القلب المؤمن . . والأخرى تشيع في النفس الإحساس بالأمان والاطمئنان . . . حيث نجد الرسول ﷺ حين يعرض صور الجحيم وما يلاقيه الكافر في النار . . . وصور النعيم وما يجده المؤمن من الكرامة في الجنة ، يعرضها بصور حسية متمثلة في قوله الكريم : « يؤتى بأهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيُصبغ في النار صبغة » فأنعم أهل الدنيا يُصبغ في النار صبغة ، وحين يسأل عن أثر تلك الصبغة عليه ، فيجيب بإقرار حاسم (لا والله) ، لم ير خيراً ولم يجد نعيماً قط . . .

وفي الصورة المقابلة ، نلمح إشراقها حين يُؤتى بأشد الناس بؤساً من أهل الدنيا ، ويصبغ صبغة في الجنة ، ويُسأل عن أثرها ، فيجيب بسعادة عجيبة بقوله : (لا والله يا ربّ ما مرّ بي بؤس قط ، ولا رأيتُ شدةً قط) . . . والصورة البيانية (يصبغ) تعني في الأصل : إضافة لون يخالف اللون الأصلي ، واستعيرت في هذا الخبر القصصي الكريم لإخفاء الأثر وزواله بجامع الانغماس والتمكن في الشيء في كلِّ استعارة تبعية في الفعل . . . وحين ننعم النظر في

(١) محمد قطب ، منهج التربية الإسلامية ، ١ / ١٢٨ ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، الطبعة

التركيب اللفظي للصورتين : « يصبغ في النار صبغة » ، و « يصبغ صبغة في الجنة » نجد تقديم الجار والمجرور في الصورة الأولى ؛ ليكون أول ما يفجأ السمع ، ويشير الروح في القلوب ، وليفيد التشديد في الوعيد .

ولقد استعمل القرآن الكريم مادة (صبغ) ، واستعارها لأثر الإيمان في النفوس وتداخله في القلوب ، وتطهيرهم به ، قال تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (١) .

وقد تقع الاستعارة في الفعل على سبيل التهكم ، فتسمى حينئذ استعارة تهكمية . . . والبيان النبوي حين يقصد التهكم والاستهزاء يقوم يؤثر استعمال لفظ من ألفاظ المدح ، ليفيد معنى الذم والإهانة . نحو قول النبي ﷺ في احتضار الرجل السيء وخروج روحه : « . . . اخرجني أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، اخرجني ذميمة ، وأبشري بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج . . . » (٢) وقوله عليه الصلاة والسلام في رواية أخرى : « . . . ويأتية أت قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بهوان من الله ، وعذاب مقيم ، فيقول : وأنت فبشرك الله بالشر ، من أنت ؟ فيقول : أنا عمك الخبيث . . . » (٣) .

البشارة هي الإخبار بما يسرُّ ، لكنها استعيرت للإنذار والوعيد - وهو الإخبار بما يسيء - فمن يُنبئ الآخر حين يلقاه بحميم وغساق ، وبهوان ومذلة ، وبعذاب مقيم ، لا يكون إلا متوعداً ومنذراً . . . كذلك الملائكة في الرواية الأولى ، والعمل الخبيث في الثانية ، كلاهما يتوعدان صاحب النفس الخبيثة بالماء الحار وبالماء البارد المنتن ، وبأصناف أخر من العذاب ، من هوان ومذلة من الله . وهذا الإنذار والوعيد كان بشارة على سبيل التهكم والاستهزاء ، فلذلك

(١) البقرة : ١٣٨ . . . ويراجع ، لتفسير الآية كتاب (الكشاف) الزمخشري ، ١ / ٩٦ . وكتاب

(روح المعاني) شهاب الدين الألوسي ، ١ / ٣٩٧ - ٣٩٨ .

(٢) رواه ابن ماجه ، ٢ / ١٤٢٣ - ١٤٢٤ .

(٣) رواه أحمد ، ٤ / ٢٩٥ - ٢٩٦ .

شُبّه الإنذار بالتبشير بجامع السرور في كلِّ - تحقيقاً في التبشير وتنزيلاً في الإنذار والوعيد - التنزيل هنا تهكماً - واستعار التبشير للإنذار ، ثم اشتق من التبشير بمعنى الإنذار (أبشرك) بمعنى (أنذرك) استعارة تبعية تهكمية . . والقرينة هي المفعول به - بواسطة حرف الجر - بحميم ، بهوان من الله . فإن تعلق البشارة بالحميم وبالهوان ، ووقوع الفعل بواسطة الباء ، قرينة على أن المراد بالبشارة غير معناها الحقيقي . .

* * *

٢ - وقد تكون استعارة الفعل بالنظر إلى زمانه ، مثل :

قول النبي ﷺ : « إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استشهدَ فأتى به فعرفه نعمه ، فعرفها . قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ ، قال : كذبتَ ولكنك قاتلتَ لأن يُقال جريءٌ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسُحبَ على وجهه حتى أُلقيَ في النار ، ورجلٌ تعلمُ العلمَ وعلمه ، وقرأ القرآنَ فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : تعلمتُ العلمَ وعلمته ، وقرأتُ فيك القرآنَ ، قال : كذبتَ ، ولكنك تعلمتُ العلمَ ليُقال عالمٌ ، وقرأتَ القرآنَ ليُقال هو قارىءٌ ، فقد قيل . ثم أمر به فسُحبَ على وجهه حتى أُلقيَ في النار . . . » (١)

هذا الحوار القصصي يرسم مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، يرسم صورة حية للخزي والعار الذي يناله المراءون يومئذ . . . فالأفعال « أمر به فسُحبَ على وجهه حتى أُلقيَ في النار » أفعال ماضية ، وكان مقتضى السياق أن يقال : يُؤمر به ، فيُسحب ، حتى يُلقى ، لكن البيان النبوي عبّر عن أحداث المستقبل تلك بصيغة الماضي ، وآثر هذا التعبير حتى صور ما سيقع في المستقبل كأنه حدث بالفعل ، إشارة إلى تحقيق الوعيد . وفي ذلك التنبيه إلى وجوب الإخلاص في العمل ، والتحذير من الرياء ؛ لأن عقابه حاصل وواقع ، وإنكاره غير مقبول . وفي بناء الأفعال للمجهول ما يفيد معنى الإكراه والقسر .

فشبه الأمر والسحب والإلقاء في المستقبل بالأمر والسحب والإلقاء في الماضي ، بجامع تحقق الوقوع في كلٍّ . ثم استعير كل من الأمر في الماضي للأمر في المستقبل ، والسحب في الماضي للسحب في المستقبل ، والإلقاء في الماضي للإلقاء في المستقبل . ثم اشتق من الأمر « أمرٌ » بمعنى يُؤمر ، ومن السحب « سُحبٌ » بمعنى « يُسحب » ومن الإلقاء « أُلقي » بمعنى « يُلقى » استعارة تصريحية تبعية .

وبعد هذا المشهد المؤلم نرى أن نعرض مشهداً آخر عن النفوس المؤمنة ،

(١) رواه مسلم ، ٤٧ / ٦ . وأحمد في المسند ، ٣٢٢ / ٢ ، والنسائي : ٢٣ / ٦ .

إنه حديث عن صور النعيم الدائم في الجنة . يقول الرسول ﷺ في قول الله عز وجل : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (١) ، « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نَادَىٰ مَنَادٌ ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يَنْجِزَ كَمُوهَ ، قَالُوا : أَلَمْ تُبَيِّنْ وَجُوهَنَا ؟ وَتَنْجِنَا مِنَ النَّارِ ؟ وَتَدْخُلُنَا الْجَنَّةَ ؟ قَالَ : فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ . قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ . » (٢) .

بعدما أنجاهم الله عز وجل من النار ، وأدخلهم الجنة بقي لهم نعمة من أجل النعم وأعظمها ، نعمة النظر إلى وجهه الكريم جميع هذه المشاهد أخروية ، وكان مقتضى السياق أن يقال : « ينادي » بدلاً من « نادى » والتعبير بصيغة الماضي أبلغ من المضارع ؛ لتحقيق وقوع المناداة في المستقبل وكأنها حدثت بالفعل . . . وفي ذلك ما يدفع المؤمنين ويرغبهم إلى التطلع نحو الأفضل في طريق الإيمان ، ابتغاء مرضاة الله ومغفرته . ومن ثم ما أعدّه لهم في الجنة من نعيم خالد ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . والترغيب أحد الوسائل التربوية في القصة النبوية إذ هو قائم على استغلال قوة الرجاء في النفس ، وتوجيهها إلى القيم الجديرة به . . . فشبّه النداء في المستقبل بالنداء في الماضي ، بجامع تحقق الوقوع في كل ، ثم استعير النداء في الماضي للنداء في المستقبل ، ثم اشتق من النداء « نادى » بمعنى « ينادي » استعارة تصريحية تبعية . والقرينة حالية . وفي تنكير الفاعل ما يشير إلى الالتفات والاهتمام بالمناداة ومضمونها ، أي دون النظر إلى منادٍ معين .

ومما هو من هذا القبيل أيضاً تصوير القصص النبوية لمجموعة من الشخصيات أسرفت على نفسها ، وتجاوزت الحد في المعاصي ، وإن كانت تنطوي على بذرة خير لا بد أن تثمر يوماً ، ولذلك تتداركها رحمة الله عز وجل ، وتكتب لها المغفرة وكأنها وقعت بالفعل ، مع أن مقتضى السياق إخبار عما سيقع

(١) يونس : ٢٦ .

(٢) رواه أحمد في مسنده ، ٣٣٢ / ٤ . والترمذي ، ٩٢ / ٤ .

يوم القيامة . (١) فقد عُفِرَ لمن أحرق نفسه خشية ، ومخافة من أن يلقي الله بذنوبه (٢) ، كما عُفِرَ لقاتل المائة (٣) . . وغفر لمن لم يتورع عن ذنب عمله (٤) .
ولمن لم يعمل خيراً قط سوى أنه كان يداين الناس ، ويتجاوز عنهم (٥) . فشبهت المغفرة في المستقبل بالمغفرة في الماضي ، بجامع تحقق الوقوع في كلٍّ ، ثم استعيرت المغفرة في الماضي للمغفرة في المستقبل ، ثم اشتق من المغفرة « غفر » بمعنى « يغفر » استعارة تصريحية تبعية .

(١) ورد في القرآن الكريم معنى المغفرة لهؤلاء وغيرهم ، بلفظها المستقبلي . قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ . إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ الزمر : ٥٣ .

(٢) قال رسول الله ﷺ : « أُسْرَفَ رَجُلٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَوْصَىٰ بِنِيهِ فَقَالَ : إِذَا أَنَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي ثُمَّ ذَرُونِي فِي الرِّيحِ ، فِي الْبَحْرِ ، فَوَاللَّهِ لئن قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبُنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا . » قال : ففعلوا به ذلك ، فقال للأرض : أدي ما أخذت . فإذا هو قائم . فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : خشيتك ، (أو مخافتك) يا رَبِّ ، فغفر له ، لذلك « رواه ابن ماجه ، ١٤٢١ / ٢ .

(٣) قال النبي ﷺ : « كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ فَاتَىٰ رَاهِبًا فَسَأَلَهُ فَقَالَ لَهُ : هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قَالَ : لَا . فَقَتَلَهُ . فَجَعَلَ يَسْأَلُ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا ، فَأَدْرِكْهُ الْمَوْتُ ، فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا ، فَاتَّخَصَّصَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَأَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَىٰ هَذِهِ أَنْ تَقْرَبِي ، وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَذِهِ أَنْ تَبَاعِدِي ، وَقَالَ : قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا ، فَوُجِدَ إِلَىٰ هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِيرٍ ، فَعُفِّرَ لَهُ « رواه البخاري ، ١٤٩ / ٤ .

(٤) قال رسول الله ﷺ : « كَانَ الْكُفْلُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَتُورَعُ عَن ذَنْبِ عَمَلِهِ ، فَآتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتِينَ دِينَارًا عَلَىٰ أَنْ يَطَّأَهَا ، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنْ امْرَأَتِهِ أُرْعِدَتْ وَبَكَتُ . . فقال : ما يبكيك ، أكرهتك ؟ قالت : لا ولكن هذا عمل لم أعمله قط ، وإنما حملني عليه الحاجة ، قال : فتفعلين هذا ولم تفعليه قط . قال : ثم نزل ، فقال : اذهبي فالدينانير لك ، ثم قال : والله لا يعصي الله الكفلُ أبداً . فمات من ليلته ، فأصبح مكتوباً على بابه قد غفر الله عز وجل للكفل . « رواه أحمد في مسنده ، ٢٣ / ٢ .

(٥) قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ رَجُلًا لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ فَكَانَ يَدَايِنُ النَّاسَ ، فَيَقُولُ لِرَسُولِهِ : خذ ما تيسر واترك ما عسر ، وتجاوز ؛ لعل الله يتجاوز عني ، فلما هلك قال الله عز وجل له : هل عملت خيراً قط ؟ قال : لا . إلا أنه كان لي غلامٌ وكنت أداين الناس ، فإذا بعثته يتقاضى قلت له : خذ ما تيسر ، واترك ما عسر ، وتجاوز لعل الله عز وجل يتجاوز عني ، قال الله عز وجل : . قد تجاوزت عنك . « رواه أحمد في مسنده ، ٣٦١ / ٢ .

وإذا كان يعبر عن المستقبل بالماضي لتحقق الوقوع ، كذلك يُعبر عن وقائع وأحداث ماضية بصيغة المستقبل ؛ لاستحضار صورته ، فتكون ماثلة في النفوس ، حاضرة في الخيال ، فتتمكن في النفس وتقرُّ بها ، وهذا من أهداف البيان النبويِّ ، ولذلك يلجأ إلى الأسلوب التقريري في تصوير الأحداث . . .

عن خباب بن الأرت^(١) قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ - وهو متوسدٌ برْدَةً له في ظلِّ الكعبة - قلنا له : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو الله لنا ؟ قال : « كان الرجلُ فيمن قبلكم يحفرُ له في الأرض فيجعلُ فيه ، فيجاء بالمنشار فيوضعُ على رأسه فيشقُّ باثنتين وما يصدهُ ذلك عن دينه ، ويمشطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عصبٍ وما يصدهُ ذلك عن دينه ، والله ليتمنَّ هذا الأمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءٍ إلى حضرموتٍ لا يخافُ إلا اللهَ أو الذئبَ على غنمه ولكنكم تستعجلون . » (٢)

ها هم السابقون من المؤمنين جعلت الأرض لهم أخاديد ، ونُشروا بالمناشير ، ومُشطوا بأمشاط الحديد . . . ثلاث مناظر تعديبية في كل صورة تشهق روحنا خوفاً وفزعاً ، وما إن نحاول أن نسترد أنفاسنا حتى تتلقانا الصورة الثانية بما هو أشد وأنكى - صور من العذاب لا يمكن للعقل أن يستوعبها ، لكن من المؤكد أننا نراها بعين الخيال ، بل إننا نراها ماثلة أمام أعيننا حقيقة . . . تُحفر الأرض فيجعلون فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رؤوسهم فيشق كل جسد اثنتين . . . ويمشطون بأمشاط الحديد ما دون لحمهم من عظم أو عصب . . . كل لفظة كانت شاهدة على هذا العذاب ، كما كانت حريصة على نقل ما أصابهم من بلاء وشدة ، ومع ذلك لم تضعف عزيمتهم ، ولم تستسلم نفوسهم للذل

(١) خباب بن الأرت بن جندلة التميمي ، صحابي جليل ، كان من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وأول من أظهر إسلامه ، وعذب عذاباً شديداً . . . شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، نزل الكوفة ، ومات بها سنة سبع وثلاثين للهجرة . . . انظر كتاب « الإصابة في تمييز الصحابة » ابن حجر العسقلاني ، ١ / ٤١٦ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، عام ١٣٢٨ هـ . .

(٢) رواه البخاري ، ٤ / ١٧٩ - ١٨٠ .

والهوان ، بل ظلوا على الإيمان ، ووقفوا في وجه الطغيان حتى نصرهم الله . .
. . والنبي ﷺ - في هذه الوسيلة التربوية - يصور أحياناً وقعت في صورة الحال
قصداً إلى استحضار صورة العذاب والهوان ؛ لتكون حاضرة في الذهن ماثلة في
الخيال ، فيكون ذلك أدعى إلى الصبر والثبات . والاستعارة في هذه الأفعال
أدت عملها الذي كُلفت به ، وقامت به على أكمل وجه .

* * *

الاستعارة في الحرف :

لكل حرف معناه الحقيقي ، ولكنها معان غير مستقلة بالفهم ، ولا يفهم معنى الحرف إلا إذا تعلق بغيره . فإذا استعمل الحرف في غير معناه الحقيقي كان مجازاً . ومن ثم قيل في الحروف المستعملة لغير ما هي له إنها تشير إلى استعارات في متعلقات معانيها - كما هو رأي الخطيب القزويني - أو المعنى العام للحرف - كما هو رأي الجمهور ، وعلى ذلك فالاستعارة في الحرف تجري في المجرور أو تجري في المعنى الكلي أولاً ، ثم تجري في المعنى الجزئي للحرف ثانياً بسبب سريان التشبيه من هذا العام إلى أفرادها ، فإجراؤها في المعنى الجزئي للحرف تابع لإجرائها في المعنى الكلي أو إجراؤها في معانيها العامة تابع لإجرائها في متعلقات معانيها ، ومن ثم سميت استعارة تصريحية تبعية^(١) قال الخطيب القزويني : « التشبيه في الأفعال والصفات المشتقة منها لمعاني مصادرها ، وفي الحروف لمتعلقات معانيها كالمجرور في قولنا : زيدٌ في نعمة ورفاهية .^(٢) » فالاستعارة في الحروف - عند القزويني - تابعة للتشبيه ، حيث نشبه المعنى الكلي بمتعلق معنى الحرف الذي هو معنى كلي فيسري التشبيه للجزئيات ، ثم نستعير الحرف الموضوع لجزئي من جزئيات المشبه به لجزئي من جزئيات المشبه

يقول النبي ﷺ ، في المشهد الذي عرضناه سابقاً ، وهو تصوير الحوار

(١) يرى ابن يعقوب المغربي : أن الاستعارة في مدخول الحرف استعارة مكنية ، وإثبات الحرف للمشبه استعارة تخيلية . . . ينظر (مواهب الفتحاح) ضمن شروح التلخيص ، ٤ / ١٢٠ - ١٢٣ . وهذا الرأي هو رأي الخطيب القزويني ، لكن الفرق بينهما أن الخطيب يسميها استعارة تبعية ، وابن يعقوب يسميها مكنية . . . ومن ثم يقول في إجراء الاستعارة في الحرف - في المثال الذي سنأتي به بعد قليل : شبهنا المعصية بالظرف والمكان الذي تحل فيه الأشياء بجامع مطلق التعلق في كلٍّ ، وأثبتنا اللفظ (في) الذي هو لازم من لوازم المشبه به (الظرف) للمشبه على سبيل الاستعارة التخيلية

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ، ٥ / ٩٠ - ٩٦

الذي دار بين العمل الخبيث وصاحبه : « . . . فيقول : وأنت فبشرك الله بالشرّ ، من أنت ؟ فيقول : أنا عمك الخبيث ، كنت بطيئاً عن طاعة الله ، سريعاً في معصية الله ، فجزاك الله شراً . . . »^(١) فهذا الرجل لفشله وتخبطه كان بطيئاً متراخياً عن الأعمال التي تقربه من الله عزّ وجلّ ، بينما نراه في الجانب المقابل « معصية الله » منغمساً في الذنوب والمعاصي ، يسير إليها سيراً حثيثاً سريعاً ، حيث تمكنت منه المعصية فانغمس فيها كما يتمكن الظرف بالمظروف ، ولذلك كان التعبير بحرف الجر (في) بمعنى (إلى) لأنها أبلغ في تحقيق المراد من المعنى ، فكلمة (سريعاً) الموحية ، وحرف الجر (في) ومجرورها (معصية الله) تضافرت جميعاً في تصوير حالة الرجل وبيانها خير بيان . . . ونقول في إجراء الاستعارة - تبعاً لرأي الخطيب - شبهنا مطلق المعصية بمطلق الظرفية والمكان الذي تحل فيه الأشياء ، بجامع مطلق التعلق في كل ، فسرى التشبيه إلى أجزاء معنى الظرفية ، ثم استعرنا لفظ (في) الذي هو جزئي من جزئيات المشبه به لجزئي من جزئيات المشبه .

كما نقول في إجراء الاستعارة - تبعاً لرأي الجمهور - شبهنا الارتباط الحاصل بين المعصية وصاحبها بالظرفية التي هي ارتباط حاصل بين الظرف والمظروف ، فسرى التشبيه من المعنى العام للظرفية إلى أفرادها ، فاستعرنا اللفظ (في) حيث هو فرد من أفراد المشبه به لفرد من أفراد المشبه .



(١) رواه أحمد في مسنده ، ٤ / ٢٩٥ - ٢٩٦ .

٢ - الاستعارة المركبة (التمثيلية) :

هي « اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه ، أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى ، ثم تدخل المشبه في جنس المشبه بها للمبالغة في التشبيه ، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه . (١) » نحو قول الرسول ﷺ (حينما سُئِلَ عليه أفضل الصلاة والسلام عن رؤية الله يوم القيامة) قال : « هل تُضَارُونَ في رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : هل تُضَارُونَ في الشمس ليسَ دونها سحابٌ ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : فإنكم تَرَوْنَهُ . (٢) » .

يقرر النبي ﷺ حقيقة رؤية المؤمنين لله عز وجل يوم القيامة ، (وهو مذهب أهل السنة والجماعة (٣)) وذلك في صورة تخيلية تمثيلية . فشبه النبي ﷺ تحقق رؤية المؤمنين لله عز وجل يوم القيامة ، ولا يلحقهم ضير ولا ضرر في رؤيته تعالى ، وأنها ثابتة لا مجال فيها للجدل أو التأويل بحال تحقق الرائي للبدر ليلة تمامه في الليلة الصافية ، وللشمس في اليوم المشرق . . . ولا يلحقه في ذلك مشقة ولا تعب . والجامع بينهما : زوال الشك والاختلاف ، وتحقيق الرؤية . ووضوحها . . . والتمثيل واقع في تحقيق الرؤية لا في الكيفية ، لأن الشمس والقمر متميزان ، والحق تبارك وتعالى منزه عن ذلك . .

(١) الخطيب الفزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ١٠٧ / ٥ - ١٠٨ .

(٢) رواه مسلم ، ١ / ١١٢ ، والبخاري ، ٧ / ٢٠٥ ، ورواه الترمذي برواية أخرى ، ٤ / ٩٣ بقوله : « تضامون » روي بالتشديد والتخفيف . وعلى رواية التشديد (تضامون) بمعنى : لا ينضم بعضكم إلى بعض وتزدحمون وقت النظر إليه . . . وعلى رواية التخفيف : أي لا ينالكم ضيم في رؤيته ، فيراه بعضكم دون بعض . ورواه ابن ماجه ، ٢ / ١٤٥١ بقوله : « هل تمارون » أي هل تجادلون في رؤية القمر والشمس ، أو يدخلكم فيه شك . .

(٣) ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن رؤية المؤمنين ربهم ممكنة يوم القيامة ، ونفتها المبتدعة من المعتزلة والخوارج ، وهو جهل منهم ، فقد تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة ، وإجماع الصحابة وسلف الأمة على إثباتها في الآخرة للمؤمنين ، انظر (فتح الباري) ، ١١ / ٤٤٧ .

وإذا تأملنا عناصر المستعار منه وجدنا الدقة في التعبير عن المعنى ، فالنبي ﷺ أكد وأثبت رؤية الله عز وجل يوم القيامة كما تثبت رؤية البدر عند تمامه لا يخفى على أحد ، ولو اكتفى الأسلوب النبوي بذلك لكان كافياً ، إلا أنه أكد عليه الصلاة والسلام ، بقوله : « هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ؟ هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ » ليدرك الأعمى ذلك ؛ لأن الأعمى لا يدرك صفة القمر حساً ، لكنه يجد حر الشمس ، ويحس بوجودها وإن لم يبصرها . . . ولهذا حسن تأكيد الرؤية بهما معاً^(١) . . . وفي الابتداء برؤية القمر قبل الشمس ، متابعة لإبراهيم عليه السلام ، في مثل ما حكى الله عز وجل على لسان الخليل : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأُنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾^(٢) . فاستدل بهما سيدنا إبراهيم عليه السلام على إثبات الوجدانية ، واستدل بهما المصطفى عليه الصلاة والسلام على إثبات الرؤية .

ومن هذا القبيل قول النبي ﷺ في بيان فضل الجهاد ، وتعظيم أجر المجاهد : « انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمه أو أدخله الجنة . ولو لا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ولو ددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل . »^(٣)

(١) ولهذا ينبغي النظر في جانب المستعار منه إلى مجموع الجملتين - أعني رؤية القمر والشمس معاً . . . حتى لا يقع في الوهم تحقق الرؤية بأحدهما دون الآخر . . . ويكون ذلك مدعاة لإنكار منكر (لا يبصر) لتلك الرؤية . . . وشبيه بهذا الأمر - أعني كون التشبيه معلقاً بمجموع الجملتين - قول القائل : (مالي أراك تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى) وحقيقة الكلام : مالي أراك متحيراً في أمرك متردداً . فقد شبهت هيئة المتردد في أمره بين الإقدام والإحجام بهيئة رجل قام ليعمل عملاً ، فتارة يعقد النية على العمل ، فيقدم رجلاً . . . وتارة يعدل عنه فيؤخر الأخرى . بجامع التردد تارة والإحجام أخرى . ثم استعيرت هيئة المشبه به للمشبه .

(٢) الأنعام : ٧٧ - ٧٨ .

(٣) رواه البخاري ، ١ / ٢٥٣ ، والنسائي ، ٨ / ١١٩ .

الجهاد في سبيل الله تعالى فريضة إسلامية ، كغيرها من الفرائض والتكاليف التي كتبها الله عز وجل على الأمة الإسلامية ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ . . . الآية (١) ﴾

إن الله سبحانه وتعالى - من خلال هذه الآية الكريمة - ينادي الأمة الإسلامية ، ويأمرها بالقيام بما كُلفت به على خير وجه ؛ لتنهض بحق عبادته عز وجل . . . أقول : لما كانت هذه الأمور تكليفية ، والمسلم مطالب بتأديتها . . . رأى البيان النبوي الكريم أن يصور تلك الأوامر والتوجيهات وكأنها نداء من الله عز وجل ، فكان التعبير عنها بصيغة تقريرية أعني (انتدب الله) فشبه المصطفى عليه الصلاة والسلام حال المجاهد وخروجه في سبيل الله ، ولا غرض له من جهاده سوى التقرب إلى الله عز وجل ، طلباً للمغفرة والثواب ، فأجابه الله تعالى إلى بغيته ، وتفضل عليه بإحدى الحسنين : إما الشهادة ، وإما أن يرجعه إلى بيته نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة - بحال من دُعي إلى أمر وسارع بالإجابة ، ثم استعير التركيب الدال على حال المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية .

والله سبحانه وتعالى تفضل على عباده المؤمنين ممن حملوا هذه الأمانة الجليلة أعني القيام بحق الجهاد في سبيله ، وقدّر لهم تحقق الوعد بالنصرة والثواب ، فضلاً منه سبحانه ، إنه كرم ربّاني لمن لبي نداء الله عز وجل ، وأخلص له عمله ، وقدم نفسه لإعلاء كلمته . وكان التعبير بصيغة الماضي في قوله « انتدب » إشارة لتحقيق المطلوب ، وكأنهم أجابوا ، والله يخبر عنهم بما حدث منهم .

* * *

القسم الثاني : الاستعارة المكنية

« قد يضمّر التشبيه في النفس فلا يصرح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه ، ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به من غير أن يكون هناك أمر ثابت حساً أو عقلاً أجرى عليه اسم ذلك الأمر . . . فيسمى التشبيه استعارة بالكناية أو مكنياً عنها ، وإثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخيلية . (١) »

فالاستعارة المكنية هي : ما حذف فيها المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه . . . وإثبات ذلك اللازم استعارة تخيلية ، وهذا ما ذهب إليه أكثر علماء البلاغة . (٢) وهي عند القزويني مجاز معنوي - أي فعل من أفعال النفس - وكذلك الاستعارة التخيلية ، وعلى هذا فهما غير داخلين في تعريف المجاز الذي هو : اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة . « فهاتان الاستعارتان ليستا في الألفاظ ، وإنما في أمور واعتبارات نفسية . (٣) »

والخطيب القزويني في رأيه هذا متأثر برأي الشيخ عبد القاهر الجرجاني الذي يقول : « أن يؤخذ الاسم على حقيقته ويوضع موضعاً لا يبين فيه شيء يُشار إليه ، فيقال : هذا هو المراد بالاسم ، والذي استعير له ، وجعل خليفة لاسمه الأصلي ، ونائباً منابه ، ومثاله ، قول لبيد :

وغداة ريح قد كشفت ، وقرّة
إذ أصبحت بيد الشمال زمامها .

وذلك أنه جعل للشمال يداً ، ومعلوم أنه ليس هناك مُشار إليه يمكن أن تُجري اليد عليه ، كإجراء « الأسد » و « السيف » على الرجل في قولك : « انبرى

(١) الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ١٢٣/٥ - ١٢٥ .

(٢) يعتبر السكاكي الاستعارة المكنية هي لفظ المشبه المستعمل في المشبه به بادعاء دخوله فيه ، وبذلك يصير المشبه به فردين : أحدهما حقيقي ، والآخر ادعائي . يراجع كتاب « مفتاح العلوم » ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٣) د / محمد أبو موسى ، التصوير البياني ، ص ٢٤٦ .

لي أسدٌ يزأر» ، و « سللتُ سيفاً على العدو لا يُفلّ » . . . وليس لك شيءٌ من ذلك في بيت لبيد ، بل ليس أكثر من أن تُخيل إلى نفسك أن (الشمال) في تصريف (الغداة) على حكم طبيعتها ، كالمُدبرِ المصرفِ لما زمامه بيده ، ومقادته في كفه ، وذلك كله لا يتعدى التخيلُ والوهم والتقدير في النفس ، من غير أن يكون هناك شيءٌ يُحسُّ ، وذات تتحصّل . (١) »

قلت : إن الخطيب القزويني متأثر في رأيه برأي الشيخ عبد القاهر الجرجاني . وليس في كلام عبد القاهر إلا استعارة واحدة هي : إثبات اليد للشمال - وهي عند القزويني - قرينة للاستعارة المكنية - وسميت استعارة تخيلية ، وهذه التسمية مستمدة من قول الإمام عبد القاهر : « ليس أكثر من أن تخيل إلى نفسك أن الشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمُدبرِ المصرفِ لما زمامه بيده » ، وكل ذلك لا يتعدى التخيل والوهم ، والتقدير في النفس من غير أن يكون هناك شيءٌ يُشار إليه ، بل جعل للشمال يدٌ وليس له يد . . . وبناء على ذلك سوغت هذه الاستعارة تشبيه الشمال بذي اليد ، ولكن الشيخ عبد القاهر لم يسم هذا التشبيه استعارة مكنية .

والخطيب القزويني استفاد من إشارات عبد القاهر ، وتابعه في طريقته ، فقال تعليقاً على قول لبيد السابق : « إنه جعل للشمال يداً ، ومعلوم أنه ليس هناك أمر ثابت حساً أو عقلاً تجري اليد عليه ، كإجراء الأسد على الرجل الشجاع ، والصراط على ملة الإسلام . ولكن لما شبه الشمال لتصريفها القرّة على حكم طبيعتها في التصريف ، بالإنسان المصرف لما زمامه بيده ، أثبت لها يداً على سبيل التخيل ، مبالغة في تشبيهها به . (٢) » فالخطيب يرى أن التخيلية هي إثبات لازم المشبه به للمشبه . إذاً التخيلية والمكنية عنده متلازمتان ، ولازم المشبه به مستعمل في حقيقته ، والتجوز إنما في الإثبات . (٣)

(١) أسرار البلاغة ، ص ٤٤ - ٤٦ .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ، ٥ / ١٢٥ .

(٣) الاستعارة التخيلية عند السكاكي هي اسم لازم المشبه به المستعار للصورة الوهمية التي أثبتت =

ومن الاستعارات المكنية التي وردت في البيان النبوي قول النبي ﷺ :
«تقيُّ الأرضُ أفلادَ كبدِها أمثالَ الأسطُوانِ من الذهبِ والفضةِ ، قال : فيجِيءُ
السَّارقُ فيقولُ في هذا قُطعتُ يدي ، ويجيئُ القاتلُ فيقولُ في هذا قُتلتُ ، ويجيئُ
القاتعُ فيقولُ في هذا قُطعتُ رَحِمِي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً . (١)»

مشهد غيبي يصور فيه المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام الأرض بصورة غريبة تبث الرعب والفرع الكائن في ذلك الوقت ، إضافة إلى الاحساس بمشاعر الاشمئزاز والتقزز فها هي الأرض تتحرك حركة مضطربة مخيفة ، وإذا بها تقيء ما بداخلها من كنوز الذهب والفضة ، وتطرحة على ظهرها ، فيرى من طمع بهذه الكنوز ، فسرق وقتل وقطع رحمه ويقرب بما أخبر به الدين الحنيف . فيتحسر إذا نظر إليها حيث عصى الله عز وجل فيها ، ثم تركها لا تغني عنه شيئاً .

وتشبيه الأرض بشخص يقيء صورة تبث الحياة في الأرض . وترتقي هذه الحياة حتى تصبح حياة إنسانية ، ذات عواطف آدمية ، ومشاعر إنسانية ، فنراها تلقي كل ما في داخلها من المتاع الزائل بكميات ضخمة

شبه النبي ﷺ الأرض بإنسان يقيء بجامع الحركة المضطربة الهائجة في كل . ثم حذف المشبه به (الإنسان) ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو (القيء) على سبيل الاستعارة المكنية . والقريئة المانعة من إرادة المعنى الأصلي ، لفظية ، هي (تقيء) وفي إثبات (القيء) للأرض استعارة تخيلية وإذا تأملنا هذه الاستعارة المكنية رأينا أنها قد ذكر معها ما يلائم المشبه به وهو (أفلاد كبدها) . ولهذا فهي استعارة مكنية ترشيحية كما أننا نجد - بالإضافة إلى هذه الصورة الاستعارية صورة تشبيهية ، حيث شبه المصطفى عليه الصلاة والسلام ما استقاءته الأرض (أفلاد كبدها) من الكنوز المخبأة في باطنها ، والتي كانت متاع

= للمشبه فهي عنده غير متلازمة مع المكنية ، لكن المكنية تستلزم التخيلية . انظر كتاب

«مفتاح العلوم» ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(١) رواه الترمذي ، ٣ / ٣٣٤ .

عصاة الناس في الدنيا ، ومنها الذهب والفضة بالأسطوان وهو العمود المستطيل الضخم ، بجامع الاستطالة والضحامة . . . والاستعارة من قبيل استعارة المحسوس للمحسوس . . . وفي تصوير الأرض بإنسان يقىء صورة كريهة ، وفي جعل متاع الدنيا من الذهب والفضة (قىء) ما يقوي شدة كراهة هذه الصورة ، يؤكد ذلك نهاية الحديث الشريف ، ونهاية الآية الكريمة التي تتحدث عن هذا المتاع : « اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهَيِجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ » (١) . إن هؤلاء العصاة يرون ذلك المتاع قيئاً ، أمام أعينهم ، ويشيرون إليه إشارة حسية (في هذا . . .) قتلوا ، وقطعوا أرحامهم ، وسرقوا . فإذا بحياتهم حياة مليئة بشيء مقزز ، تنفر منه النفوس السليمة وتأباه ، وبذلك خسروا الدنيا والآخرة . . . دنياهم قىء يرتعون فيه ، وأخراهم حساب وجزاء على ما اقترفوه بأيديهم .

لقد استطاعت تلك الصورة البيانية أن تتمثل ذلك المشهد الغيبي ، وتقربه إلى الأذهان ، مع وفائها بقوة الاتحاد بين الطرفين ، لتحقيق معنى المبالغة في تصوير الحدث .

(١) الحديد : ٢٠ .

بلاغة الاستعارة في القصة النبوية الكريمة :

بلاغة الاستعارة في القصة النبوية حلقة مفرغة لا يُدرى أين مبدأ الحسن فيها ، وأين منتهاه ، نلمح أسرار بلاغتها من جهة المعنى ، ومن جهة اللفظ ، ومن جهة التركيب . . . ولا يُؤخذ بجهة دون أخرى ، بل إنها تتضافر جميعاً في خلق صور استعارية ، فيها من جمال اللغة ما يملأ الصدر ، ومن جمال التعبير ما يُمتع العقل ، ويؤنس النفس ، ويحقق الهدف النبوي . . . ولكن حق الدراسة يدعوننا أن نُرجع النظر إلى كلِّ سرٍّ من أسرارها البلاغية ، وقد سبق الحديث عن شيء من ذلك .

ترجع بلاغة الاستعارة في القصص النبوي إلى إيضاح المعنى ، والكشف عن الفكرة ، بحسن تصويرها ، فتكسب المعنى قوة وجلاءً . . . يظهر ذلك في إضفاء الكثير من الصفات الإنسانية على المعاني الذهنية أو الماديات المحسوسة ؛ لأن أساسها التخيل والادعاء ، وتناسي التشبيه ، فتبعث الحياة والحركة والنطق في الجماد ، وقد لفت الإمام عبد القاهر الجرجاني الأنظار إلى شيء من ذلك بقوله : « إنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جليلة . . . إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل ، كأنها قد جسّمت حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطّفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون . (١) »

تظهر هذه المعاني حينما نقرأ - بالإضافة إلى ما سبق من صور استعارية - قول النبي ﷺ - حين تصوير إحراق النار لغنائم المعارك التي دارت بين الأمم السابقة : « . . . قال : فجمعوا ما غنموا فأقبلت النار لتأكله ، فأبت أن تطعمه ، فقال : فيكم غلولٌ . . . (٢) » هذه الصورة فيها من الحياة والروح ما لا تستقيم الجملة النبوية بدونه .

(١) أسرار البلاغة ، ص ٤٣ . .

(٢) رواه مسلم ، ٥ / ١٤٥ . . ونص الحديث النبوي : قال رسول الله ﷺ : =

إن مراعاة حسن التشبيه هو الأصل الذي تُبنى عليه الاستعارة ، يظهر ذلك جلياً في استعارة المحسوس للمعقول ، للمبالغة في أداء المعنى ، وتوظيف الاستعارة للمبالغة أمرٌ استقر في التراث النقدي والبلاغي ، يشهد بذلك ما كتبه علماءنا الأوائل ، أمثال الرّماني في باب الاستعارة في كتابه « النكت في إعجاز القرآن^(١) » وأبو هلال العسكري أيضاً يؤكد أن المبالغة أحد أغراض نقل العبارة واستعارتها^(٢) . أما ابن رشيق القيرواني فإنه يقول : « لو بطلت المبالغة كلها وعييت ، لبطل التشبيه ، وعييت الاستعارة .^(٣) »

ولكن ليست المبالغة في استعارات القصة النبوية لغرض المبالغة فحسب ، وإنما هي أيضاً لتقرير الفكرة في النفس إما ترغيباً وإما ترهيباً ، وبذلك تبلغ التربية الدينية هدفها وغايتها .

ومن شروط جمال بلاغة الاستعارة في القصة النبوية - فوق ما ذكرناه - اختيار الألفاظ وانتقائها ، وتآلفها مع بعضها ، وتناسق دلالاتها ، ذلك أن النبي

= « غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ : لَا يَتَّبِعُنِي رَجُلٌ قَدْ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ بِهَا وَلَمَّا بَيَّنَّ ، وَلَا آخَرَ قَدْ بَنَى بُنْيَانًا وَلَمَّا يَرْفَعُ سُقْفَهَا وَلَا آخَرَ قَدْ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلْفَاتٍ وَهُوَ مُتَتَّظِرٌ وَلَا دَهًا . قَالَ : فغَزَا فَادْتَى لِلْقَرِيَةِ ، حِينَ صَلَاةِ الْعَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ . فَقَالَ لِلشَّمْسِ : أَنْتَ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيَّ شَيْئًا ، فَحَبَسَتْ عَلَيْهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ . قَالَ : فَجَمَعُوا مَا غَنَمُوا فَأَقْبَلَتِ النَّارُ لِتَأْكُلَهُ فَأَبَتْ أَنْ تَطْعَمَهُ . فَقَالَ : فَيَكُمُ الْغُلُولُ ، فليُيَايَعُنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ فَيَايَعُوهُ ، فَلصَقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ . فَقَالَ : فَيَكُمُ الْغُلُولُ فَلتُبَايَعُنِي قَبِيلَتُكَ ، فبَايَعْتَهُ . قَالَ : فَلصَقَتْ يَدَ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ ، فَقَالَ : فَيَكُمُ الْغُلُولُ . أَنْتُمْ غَلَلْتُمْ . قَالَ : فَأَخْرَجُوا لَهُ مِثْلَ رَأْسِ بَقْرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ . قَالَ : فَوَضَعُوهُ فِي الْمَالِ وَهُوَ بِالصَّعِيدِ ، فَأَقْبَلَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهُ فَلَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِنَا ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا فَطَيَّبَهَا لَنَا . »

(١) يراجع فصل الاستعارة ، ص ٨٥ - ٩٤ .

(٢) ينظر كتاب « الصناعتين » ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص ٢٧٤ ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٧١ م .

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ٢ / ٥٥ . . . وفي موضع آخر من الكتاب ذكر ابن رشيق قول أبي الفتح عثمان بن جني بأن : « الاستعارة لا تكون إلا للمبالغة ، وإلا فهي حقيقة » يراجع نفس المصدر ، ١ / ٢٧٠ .

ﷺ في اختياره ألفاظه لا يتجه نحو التأنيق من حيث هو ، وإنما - بحسبه البلاغي - يميل إلى الألفاظ الدالة على معانيه دونما تعقيد أو التواء فيحدث التأنيق عفويًا غير متكلف ، حيث يضيف اللفظ من ضلاله على المعنى إحياءات تخدم الفكرة المراد بيانها . . . من هذا القبيل قول ابن عباس (١) - رضي الله عنه - حينما سُئل عمّن قتل مؤمنًا متعمدًا ثم تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى ، فقال ابن عباس : (وأنى له التوبة ، سمعت نبيكم ﷺ يقول : « يَجِيءُ (المقتول) مُتَعَلِّقًا بِالْقَاتِلِ تَشْخُبُ أَوْ دَاجُهُ دَمًا ، فيقولُ : أي ربّ سَلْ هذا فيمَ قَتَلْتَنِي ؟ ثم قال : والله لقد أنزلها الله ثم ما نسخها . (٢) »

إن تعظيم الدم ، وحرمة قتل النفس إلا بالحق ، من الحقائق التي أقرتها الشريعة الإسلامية ، والنبي ﷺ - في هذا الحديث - يصور قاتل النفس ، بأنه يجيء يوم القيامة وقد تعلق به المقتول ، ودمه ينزف ، يسيل شاهدًا على جرمه . يوم القيامة . . . والنبي ﷺ لا يُعبر عن سيلان الدم بـ (سال ، أو نزف) أو غيرها من الألفاظ الدالة على معنى السيلان ، بل يختار كلمة تفي بالعرض ، وتوحي بعظم الذنب وهي (تشخب) « وأصل الشخب ما يخرج من تحت يد الحالب ، عند كلِّ غمزةٍ وعصرةٍ لضرع الشاة » (٣) ، واستعيرت لسيلان الدم من الأوداج ، ليتجه الدهن في تخيل الموقف اتجاهات شتى . . ذلك أنها اللفظة التي تصور بدالاتها المعنى للعين . وتنقل بجرسها الصوت للإذن ، وفي ذلك ما يشير انتباه أهل الموقف يومئذ . . . كما أنها صورت الأمر الغيبي ملموسًا محسًا .

(١) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله ﷺ ، ولد بالشعب حين حصرت قريش بني هاشم ، كان له عند موت النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة ، دعا له المصطفى عليه الصلاة والسلام بقوله : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » ، مات بالطائف سنة ثمان وستين للهجرة ، وهو ابن إحدى وسبعين . راجع الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ، ٣٣٠ - ٣٣٤ .

(٢) رواه أحمد في مسنده ، ١ / ٢٢٢ ، والنسائي ، ٧ / ٨٥ .

(٣) لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (شخب) .

ومن شروط جمال بلاغة الاستعارة في القصة النبوية أيضاً حسن تركيب الكلمات والجمل والفقرات ، ذلك أنه كلما كانت العبارة أقوم تركيباً ، وأتقن ترتيباً . وطابقت حال القارئ أو السامع أدت فعاليتها في النفوس ، ووصلت إلى المقصود منها^(١) .

وبالإضافة إلى ذلك ترجع بلاغة الاستعارة إلى إيجازها ، فهي تشبيه حذف أحد طرفيه والأداة ووجه الشبه . . . وإذا كانت أعلى مراتب التشبيه ما حذف فيه الأداة والوجه ، فالاستعارة تبدأ حيث ينتهي ارتقاء التشبيه ، وتعلو قيمته البلاغية . يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني في مزية الاستعارة : « إنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ، وتجنبي من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر . . . فإنك لترى بها الجُماد حياً ناطقاً . . . »^(٢) .



(١) أجمع على ذلك نقادنا القدماء والمحدثون . فمن القدماء نقرأ للإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحليله للآية الكريمة ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ مريم : ٤ ، ينظر أسرار البلاغة ، ص ٢٧٤ . ومن المحدثين ، ننقل هذه العبارة « وتنظيم الكلمات عنصر هام في جماليات الاستعارة ، فالاستعارة من حيث هي ضرب من الإدراك الجمالي . ولكن تنظيم الألفاظ والكلمات يعطي لها غنى ، ومادة جديدة . » راجع كتاب نظرية المعنى في النقد العربي ، مصطفى ناصف ، ص ١٥ ، دار الأندلس ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

(٢) أسرار البلاغة ، ص ٤٣ .

الفصل الرابع

الكناية

الكناية

الكناية في اللغة: «أن تتكلم بشيء وتريد غيره . وقد كُنيت بكذا عن كذا - أو كنت - إذا تركت التصريح به^(١)» .

وفي الاصطلاح هي : « لفظ أريد به لازم معناه ، مع جواز إرادة معناه حينئذ^(٢) » . وقيدت الكناية بقيد هو : أنها بعد إرادة المعنى الكنائي بلفظها يجب ألا تصحبها قرينة تمنع من إرادة المعنى الحقيقي ، بل يبقى معها جواز إرادة المعنى الحقيقي مع المعنى الكنائي .

ولقد شغلت قضية الانتقال بين اللازم والملزوم في الكناية أذهان البلاغيين المتأخرين ، فاختلفوا في تحديد الانتقال هل هو من اللازم إلى الملزوم أو العكس . حتى إن الخطيب القزويني عَقَّب على قول السكاكي « إن الفرق بين الكناية والمجاز هو أن الانتقال في المجاز من الملزوم إلى اللازم . وفي الكناية من اللازم إلى الملزوم^(٣) » فقال : « وفيه نظر ؛ لأن اللازم ما لم يكن ملزوماً يمتنع أن ينتقل منه إلى الملزوم ، فيكون الانتقال حينئذ من الملزوم إلى اللازم . ولو قيل :

(١) لسان العرب ، مادة (كنى) .

(٢) الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ١٥٨ / ٥ .

وقد عبر الإمام عبد القاهر الجرجاني عن هذا المعنى الاصطلاحي بصورة أخرى ، فقال : « أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردُّفه في الوجود ، فيسمى به إليه ، ويجعله دليلاً عليه ، مثال ذلك قولهم : (هو طويل النجاد) يريدون (طويل القامة) . انظر : دلائل الإعجاز ، ص ٦٦ .

(٣) مفتاح العلوم ، ص ١٧٠ .

اللزوم من الطرفين من خواص الكناية دون المجاز ، أو شرط لها دونه ، اندفع هذا الاعتراض (١) .

أقسام الكناية :

تبلورت جهود البلاغيين عن تفريع الأسلوب الكنائي بحسب المطلوب به إلى ثلاثة أقسام هي :

كناية عن موصوف ، وكناية عن صفة ، وكناية عن النسبة .

أولاً : الكناية عن الموصوف (أي الكناية التي يطلب بأسلوبها الموصوف):

هي التي يطلب بها نفس الموصوف . . وقد يُكنى عنه بمعنى واحد ، أو بجملة معان . ومن أمثلتها في القصة النبوية الكريمة : قول النبي ﷺ في معجزة المعراج : « . . . ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل ، فأخذت اللبن . فقال : هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك ، ثم فرضت عليّ الصلاة ، خمسين صلاة كل يوم (٢) . . . » في قول المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام : (هي الفطرة) وعلى رواية أخرى (اخترت الفطرة) كناية عن العقيدة السليمة ، وهي عقيدة التوحيد الخالص ، بمعنى اخترت علامة الإسلام والاستقامة . . وجعل اللبن علامة لكونه سهلاً طيباً طاهراً سائغاً للشاربين ، سليم العاقبة . أما الخمر فإنها أم الخبائث ، وجالبة لأنواع الشرف في الحال والمآل (٣) . . ولقد وردت الفطرة في القرآن الكريم ، ويراد بها الدين الإسلامي ، في قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

ومن هذا القبيل قول النبي ﷺ : - كما ورد في قصة الأبرص والأقرع

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ، ٥ / ١٦٠ - ١٦١ . .

(٢) رواه البخاري ، ٤ / ٢٤٩ . .

(٣) انظر ، فتح الباري ، ٧ / ٢١٥ . .

(٤) الروم : ٣٠ . .

والأعمى - « . . . فقال : رجلٌ مسكينٌ تقطعتُ بي الحبالُ في سفري . فلا بلاغُ اليوم إلا بالله ، ثم بك . . . »^(١) كنى النبي ﷺ بالحبال عن الأسباب التي تقطعت في طلب الرزق .

ومنه قول الرسول ﷺ : « . . . وإنه سيجاءُ برجالٍ من أمتي فيؤخذُ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا رب أضحابي . فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك^(٢) . . . » كنى المصطفى عليه الصلاة والسلام بذات الشمال عن جهنم .

ومنه قول النبي ﷺ ، في بيان فضل الله عز وجل وإكرامه لمن استشهد في سبيله ، بعد أن أخلص الجهاد له تبارك وتعالى ، فقدّم نفسه لإعلاء كلمته : « . . . أفلاً أبشرك بما لقي الله به أباك ؟ قال : بلى يا رسول الله . قال : ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب . وكلم أباك كفاحاً . . . »^(٣) كنى المصطفى عليه الصلاة والسلام بقوله : (أحداً) عن سيدنا موسى عليه السلام .

في هذه الشواهد الكريمة ما اشترطه البلاغيون في الكناية عن الموصوف من الاختصاص بالمكنى عنه . حيث إن المعنى الكني به في هذه الأمثلة النبوية مختص بالمكنى عنه ومن ثم وقع الانتقال المقصود بيسر وسهولة .

ثانياً : الكناية عن الصفة (أي الكناية المطلوب بأسلوبها الصفة) :

وهي التي يطلب بها نفس الصفة . والمراد بالصفة (الصفة المعنوية) وهي ضربان : قريبة ، وبعيدة والبعيدة لا يتوصل إليها إلا بوسائط ، وقد أشار الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى نوعي هذه الكناية بقوله : معنى المعنى «تعنى بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ ، والذي تصل إليه بغير واسطة^(٤) . و (بمعنى المعنى) أن تعقل من اللفظ معنى ، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى

(١) رواه البخاري ، ٤ / ١٤٦ - ١٤٧ .

(٢) المصدر السابق ، ٧ / ١٩٥ .

(٣) رواه ابن ماجه ، ١ / ٦٨ . وكفاحاً : أي مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول .

(٤) وهذه الحقيقة المقابلة للكناية التي سيذكرها الإمام عبد القاهر في آخر ما نقلناه عنه في هذا

آخر^(١) « فكأن الكناية طريق تدل على معاني وراء المعاني ، ولهذا حاول البلاغيون دراسة المراحل المختلفة فيما وراء المعنى الأصلي للوصول إلى المعنى الثاني . وباختلاف هذه الوسائط من حيث الغموض والوضوح ، والبعد والقرب ، كان تقويمهم لبلاغة الكناية . يقول السكاكي : إن الكناية « تكون مسوقة لأجل موصوف غير مذكور ، كقوله علت كلمته في عرض المنافقين ﴿هُدَىٰ لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾^(٢) إذا فُسر الغيب بالغيبية ، بمعنى يؤمنون مع الغيبة عن حضرة النبي أو عن جماعة المسلمين على معنى هدى للذين يؤمنون عن إخلاص لا الذين يؤمنون عن نفاق ، فمتى كانت الكناية عرضية على ما عرفت كان إطلاقي اسم التعريض عليها مناسباً وإذا لم تكن كذلك نظر فإن كانت الكناية ذات مسافة بينها وبين المكني عنه متباعدة لتوسط لوازم كما في ، كثير الرماد ، وأشباهه كان إطلاق اسم التلويح عليها مناسباً ؛ لأن التلويح هو أن تشير إلى غيرك عن بعد ، وإن كانت ذات مسافة قريبة مع نوع من الخفاء ، كنحو عريض القفا وعريض الوسادة ، كان إطلاق اسم الرمز عليها مناسباً ؛ لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية^(٣) .

ولقد اشتملت القصة النبوية على الكثير من كنايات الصفة ، منها : قول الرسول ﷺ : - من حديث الشفاعة - « . . . فَتَحْنُ آخِرُ الْأُمَّمِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يُحَاسَبُ ، فَتُفْرَجُ لَنَا الْأُمَّمُ عَنْ طَرِيقِنَا ، فَنَمْضِي غُرّاً مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الطَّهُّورِ ، وَتَقُولُ الْأُمَّمُ : كَادَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ أَنْ تَكُونَ أَنْبِيَاءَ كُلِّهَا . . . »^(٤) اختصت الأمة المحمدية بالغرة والتحجيل ، فكنتي المصطفى عليه الصلاة والسلام بذلك عن صفة النور الذي يفيض من وجوه المؤمنين وأيديهم وأرجلهم ؛ لإسباغهم الوضوء ، فهو كنزٌ يدخر ثوابه عند الله ، ونور يكون لهم يوم القيامة . . ويرى

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٢٦٣ . .

(٢) البقرة : ٢ - ٣ .

(٣) مفتاح العلوم ، ص ١٧٣ .

(٤) رواه أحمد في مسنده ، ١ / ٢٩٥ - ٢٩٦ .

الزبيدي : « أنها كناية عن صفة إنارة كل الذات لا خصوص أعضاء الوضوء » (١) وأدت الكناية المعنى مصحوباً بدليله ، فالبياض ثابت مشاهد في غرة الفرس وتحجيله . والفرس حين يتصف بذلك يُعدّ من أحسن الجياد .

ومن هذا القبيل قول النبي ﷺ : « إن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربّه في الزرع ، فقال له : أأست فيما شئت ؟ قال : بلى ، ولكن أحبُّ أن أزرع . قال : فبذر ، فبادر الطرف نباته ، واستواؤه واستحصاده ، فكان أمثال الجبال . . » (٢) المراد أنه لما بذر لم يكن بين ذلك وبين استواء الزرع ونجازه أمره كله من القلع والحصد والتذرية والتكويم إلا قدر لمح البصر ، وذلك كناية عن السرعة على نحو خارق للعادة ، إذ إن النبات في بذرهِ وفي إنباته واستوائه واستحصاده ، سبق الطرف في حركته وكل هذا في دار المتقين ، لا يشتهي أحدهم فيها شيئاً إلا تحقق مهما كان . قال تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٣) . فهذا الرجل من أهل الجنة وهو ذو منزلة عظيمة ، ومن هنا تأتي له أن يطلب من الله عزّ وجلّ أن يسمح له بالزراعة ، وفي ذلك ما يدل على أن العمل رغبة فطرية في الإنسان المسلم ، تربى عليها في الدنيا ، ويرغبها في الآخرة ، ويحقق الله عزّ وجلّ له تلك الرغبة .

ومن ذلك ما ورد في حديث السفينة ، حيث قال الرسول ﷺ - بشأن من أراد الحصول على الماء دون أن يراعي حقوق الآخرين معه - « . . . فأخذ فأساً فجعل ينقر أسفل السفينة ، فأتوه ، فقالوا : ما لك ؟ قال : تأذيتم بي ، ولا بدّ لي من الماء ، فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجّوا أنفسهم ، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم » (٤) .

هذا الرجل استعد للإفساد بفأسه ، فأخذ ينقر السفينة ، معتقداً أن غايته تبرر

(١) فتح المبيدي شرح مختصر الزبيدي ، ١ / ١٢٤ .

(٢) رواه أحمد في مسنده ، ٢ / ٥١١ - ٥١٢ .

(٣) الزخرف : ٧١ .

(٤) رواه البخاري ، ٣ / ١٦٤ .

وسيلته « تأذيتم بي ، ولا بدّ لي من الماء » فإن منعه ، وحالوا بينه وبين ما يريد أنجوه ونجّوا أنفسهم ، وإلا أهلكوه وأهلكوا أنفسهم . فالنبي ﷺ يصور اللحظة الحاسمة الفاصلة بين النجاة والغرق (وهي صورة المنع) بصورة من يأخذ يدي الفاسد، ويشدها بالوثاق لمنعه بالقوة عن الحركة والعمل . . . فكنى المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام عن المنع بالأخذ على الأيدي .

وأيضاً كنى النبي ﷺ عن صفتي الإكرام والإعزاز ، والإذلال والمهانة في خبر قصصي ، يقول فيه : « تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان بن داود ، وعصا موسى بن عمران عليهما السلام ، فتجلو وجه المؤمن بالعصا ، وتخطم أنف الكافر بالخاتم (١) . . . » ففي قوله : « تجلو وجه المؤمن بالعصا » كناية عن الإكرام والإعزاز ، وفي خطم أنف الكافر كناية عن الإذلال والمهانة . وفي القرآن الكريم - ما هو نظير هذه الكناية الأخيرة - قوله تعالى : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطوم ﴾ (٢) بمعنى سنعلمه بعلامة على أنفه تظل باقية لا يمحي أثرها . . . وها هي دابة الأرض تخطم أنف الكافر كما يُخطم البعير ويُقاد ، فتترك أثراً على أنفه علامة للمهانة والمذلة التي تلحقه .

وقد اجتمع القسم الأول والثاني من أقسام الكناية - أعني الكناية عن الموصوف وعن الصفة - في قول الرسول ﷺ : « لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبرئيل إلى الجنة ، فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فجاءها فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، قال : فرجع إليه ، قال : فوعزتك لا يسمع بها أحدٌ إلا دخلها ، فأمر بها فحُفَّتْ بالمكاره ، فقال : ارجع إليها فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فرجع إليها فإذا هي قد حُفَّتْ بالمكاره ، فرجع إليه . فقال : وعزتك لقد خفّت أن لا يدخلها أحدٌ . . . قال : اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فإذا هي يركب بعضها بعضاً ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحدٌ فيدخلها ، فأمر بها

(١) رواه ابن ماجه ، ١٣٥١ / ٢ . .

(٢) القلم : ١٦ .

فحفت بالشهوات ، فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها ، فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحدٌ إلا دخلها . (١) »

حوار قصصي كريم ، من جوامع كلمه ﷺ ، وبديع بلاغته . يصور لنا المصطفى عليه الصلاة والسلام من خلاله ما كان من خلق الجنة والنار ، وما كان من إرسال الله عز وجل جبريل إليهما ، وإطلاعه عليهما ، وعلى ما أعد فيهما . فوجد في الجنة مغريات لا تقاوم ، وفي النار عقوبات لا تطاق ، ثم أمر الله عز وجل الجنة « فحفت بالمكاهه » وأمر بالنار « فحفت بالشهوات » .

فالجنة لا يصل إليها المؤمن إلا باحتمال المكاهه ، والصبر على مشاقها . فكنى النبي ﷺ بالمكاهه عن العبادات والمواظبة عليها ، واجتناب المنهيات قولاً وفعلاً ، كما يشمل ذلك كل ما دعت إليه الشريعة الإسلامية من أخلاق فاضلة حميدة ، مثل : كظم الغيظ ، والعفو ، والحلم ، والعفة ، والإحسان إلى المسيء . . . إلخ . وسُميت جميع هذه الأفعال بالمكاهه ؛ لمشتقتها على فاعلها وصعوبتها عليه . حيث يتجشم فاعلها الكره والمشقة . . . فكأن المكلف هنا مأمور بمجاهدة نفسه ، وحضها على الطاعات . . . أمّا النار في قوله الكريم : « حفت النار بالشهوات » فلا يصل إليها إلا إذا اقتحم المرء الشهوات . فكنى النبي ﷺ بالشهوات عن كل ما يستلذ من أمور الدنيا مما نهى الإسلام عن ارتكابه إما بالأصالة وإما لكون فعله يستلزم ترك شيء من المأمورات . . . ولما كانت هذه الأعمال في الأغلب ملائمة للطباع ، ولا تؤتى من طريق مشقة حسن أن يقال : إن النار حفت بالشهوات . . . والكناية في العبارتين النبويتين الكريمتين من قبيل القسم الأول ، أعني كناية عن الموصوف .

أما القسم الثاني ، وهو الكناية عن صفة فنلمحها في قوله الكريم : « فإذا هي يركب بعضها بعضاً » كناية عن صفة اضطراب جهنم وشدة غليانها . . . والتعبير النبوي هنا في غاية الروعة والجمال ، حيث نقل حركة النار ، وألسنة اللهب فيها تمتد يمينا ويساراً ، وما يعتربها من علو وانخفاض في حركة تبادلية مستمرة ، مما جعلنا نستحضر الصورة مجسدة بجميع أبعادها .

(١) رواه الترمذي ، ٩٧ / ٤ - ٩٨ ، ورواه أحمد في مسنده ، ٣٣٢ / ٢ - ٣٣٣ .

ثالثاً : الكناية عن النسبة (أي الكناية المطلوب بأسلوبها نسبة الصفة إلى الموصوف) :

ويراد بها إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه . نحو قول النبي ﷺ - حينما سُئِلَ عن الخيل : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وهي لرجل أجرٌ ، ولرجل ستر وجمالٌ ، وعلى رجل وزرٌ أما الذي هي له أجر ، فرجل يتخذها يُعَدُّها في سبيل الله ، فما غيبت في بطونها فهو له أجر . . . (١) »

يريد النبي ﷺ أن يبين للناس أن اتخاذ الخيول وإعدادها للجهاد في سبيل الله فضل لا يدانيه فضل وثواب ليس بعده ثواب . . فالخير كله ملازم للخيل ملازمة شديدة . فلا يكون الخير إلا حيث تكون الخيل . . وفسر النبي ﷺ الخير بقوله كما ورد في رواية البخاري : « الأجر والمغنم (٢) » الأجر في الآخرة ، والمغنم في الدنيا . . فكنى النبي ﷺ بقوله الكريم : « الخيل معقود في نواصيها الخير » عن ثبوت الخير وملازمته للخيل . . والصفة هنا مذكورة بلفظها الصريح ، وإنما وقعت الكناية في نسبتها .

وفي عقد الخير بناصية الخيل إشارة إلى إقدامها على العدو ، وتظهر بلاغة الكناية في تصوير المعنى في هذه الصورة الحسية . علاوة على ما في اللفظ من البلاغة والعدوية مع المجانسة بين الخيل والخير .

* * *

(١) رواه أحمد في مسنده ، ٢ / ٢٦٢ .

(٢) فتح الباري ، ابن حجر العسقلاني ، ٦ / ٥٦ .

بلاغة الكناية في القصة النبوية :

١ - الأسلوب الكنائي يقوم على التعبير عن المعنى بطريق غير مباشر ،
ويبرز من خلاله المعنى المجرد في صورة محسوسة ، فيترك أثراً في النفس لا نجد
في المعنى الذهني . . . والمصطفى ﷺ كان حريصاً على التعبير عن المعاني
بالصور الحسيّة ، خاصة فيما يتعلق بالغيبيات .

٢ - الإيجاز ، حيث دلالة الكلمة الواحدة على عدة معان ، يحتاج كل
معنى فيها إلى التعبير عنه بلفظ خاص . . . والاستعاضة عن التطويل بلفظ
الكناية الذي يحمل في طياته العديد من المعاني .

٣ - الكناية باب من أبواب توكيد المعنى ؛ لأنها تدل عليه دلالة مقترنة
بالدليل والبرهان ، وكأن صور الكناية أدلة على معانيها المقصودة . يقول الإمام
عبد القاهر الجرجاني : « أما الكناية فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا
تكون للتصريح ، أن كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه ، أن إثبات الصفة بإثبات
دليلها ، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها أكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء
إليها فتثبتها هكذا ساذجاً غفلاً ، وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ، ودليلها إلا
والأمر ظاهرٌ معروفٌ ، وبحيث لا يُشك فيه ، ولا يُظنّ بالمُخبر التجوز
والغلط (١) » .

* * *

وبعد :

فهذه دراستي للوجوه البيانية في القصة النبوية على ما اتفق عليه علماء
البلاغة المتأخرون التشبيهي ، والمجاز ، والكناية .

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٧٢ .

ولكنني أرى أن الوجوه البيانية في القصة النبوية يمكن أن تكون مضيئة أكثر إذا ما عُدتُ بها إلى ما ارتأه علماء البلاغة المتقدمون ، أعني مرحلة الإمام عبد القاهر وما قبلها حيث يكون المراد من وجوه البيان ، وجوه الإبانة .

ولما كان حديث الرسول ﷺ أداة لتبليغ الدعوة ، وآلة للإبانة الفكرية عن الحقائق والقضايا الكلية ، للنهوض بالأهداف الدينية . فإنني سأقوم بدراسة القصة النبوية مرة أخرى على هذا المنهج القائم على الإبانة . . . فأقول وبالله التوفيق :

* * *

الباب الثاني

الوجوه البيانية في القصة النبوية

وبيان أسرارها الدقيقة

من حيث الفكر النقدي الحديث

الفصل الأول : الحوار القصصي ..

الفصل الثاني : المثل القصصي .

الفصل الثالث : الخبر القصصي .

الفصل الرابع : القصة الطويلة .

الوجوه البيانية في القصة النبوية وبيان أسرارها الدقيقة

من حيث الفكر النقدي الحديث

مدخل:

القصة في البيان النبوي دوحة عميقة الأصل ، بأسقة الفرع ، دانية الجنى . . . لا ينتهي ظلها ، ولا يذهب رونقها . . . تفيض بألوان المعارف وأسمى الحقائق والغايات التربوية التي تقصر عنها القصة الأدبية الفنية . . . إنها قوة في الحق ، وإبداع في البيان ، ووضوح في المعالجة ، ووسيلة من وسائل البيان ، وسبيل من سبل الدعوة . . . ضمّنها المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام الكثير من القضايا والحقائق: فيها تحقيق التوحيد، وإثبات الوحدانية، ورسوخ العقيدة، والتضحية في سبيلها، وفيها إثبات الوحي والرسالة، وبراهين الإيمان بالغيب، والبعث بعد الموت، ومظاهر القدرة الإلهية. وفيها الإنذار والبشارة، والترغيب والترهيب، وعقبي المتقين، ومصارع الظالمين، وأثار الصبر وعقبي الجزع. وفيها تصحيح الفكر وفق منهج الحق والعقيدة. وفيها يتجسد الصراع الدائم بين الحق والباطل، والكفر والإيمان، كما يتجلى فيها التمسك بالإيمان في كل حال، والتعلق بالصبر في كل شدة، ذلك أن الفرج يصاحب الشدة، واليسر يرافق العسر.

إذا ليست القصة النبوية الكريمة عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه، وطريقة عرضه، وإدارة حوادثه، كما هو الحال في القصة الأدبية الفنية، التي ترمي إلى أداء غرض فني مجرد، قوامه الخيال وهدفه الإمتاع، ذلك أنها ذات هدف خاص، ومصدر خاص، فقائلها - كما قرر الله سبحانه - ﴿ وما يَنْطِقُ عن الهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (١).

وقد خضعت القصة النبوية خضوعاً تاماً للغرض الديني في الموضوع وطريقة العرض ، وإدارة الأحداث ، ومع ذلك فهذا الخضوع للغرض الديني لم يمنع من أن تبرز فيها الخصائص الفنية من مخاطبة العقل والوجدان في عرض المواقف والحوادث تحقيقاً لهدفها الإقناعي والإمتاعي معاً . كما أن القارئ يلمح بوضوح في هذا العرض جزالة في اللفظ ، ووضوحاً في الدلالة ، ودقة في الوصف والتعبير ، وإبداعاً في التصوير ، وإجادة في الحوار ، وإيجازاً في القول ومجانبة التكلف ، ولاغرو في ذلك فقد أُعطي الرسول الكريم جوامع الكلم ، وفصل الخطاب ، بل إنه يكره الفضول في القول ، ويعمد إلى التأثير في النفس ، ويهدي إلى الجادة ، وهذه الأمور من خصائص النبوة ، وآيات الإعجاز في الكلام النبوي .

وللقصة النبوية ألوان مميزة من ناحية البناء الفني ، ذلك أنك قد تلمح تفاوتاً في أهمية العناصر التي اشتمل عليها البناء القصصي الكريم ، بحسب طبيعة كل قصة ، وما تهدف إلى تحقيقه من غرض ، فأحياناً يكون الحوار هو العنصر المسيطر في القصة ، وغالباً ما يكون الحدث هو العنصر الواضح والأهم ، وقد تعتمد القصة النبوية على تسلسل الأحداث التي لا تتعارض ولكن تتلاحق وتتساند لابرز الفكرة الأصلية ، كما أنك قد تلاحظ في بعض القصص النبوية أن تلك العناصر تجتمع وتوزع لتخلق مضموناً معيناً يجيء في أعقاب المعاني - أو يبرز المعنى من خلالها - لتزيدها وضوحاً وبياناً . . . ومن هنا رأيت أن القصة النبوية تتنوع من حيث بناؤها الفني إلى :

١ - الحوار القصصي (١) .

٢ - الخبر القصصي (٢) .

(١) أكثر ما يكون الحوار القصصي في تلك القصص التي يقصد من ورائها تثبيت المؤمنين ، والدفاع عن الدعوة الإسلامية ، والرد على المعارضة .

(٢) أكثر ما يكون الخبر القصصي في القصص التي يقصد منها إلى التخويف والإنذار ، أو الترغيب والبطانة .

٣- المثل القصصي (١) .

٤- القصة الطويلة (٢) ، التي تضم لباب ما تتضمنه القصص الطوال في المجال الأدبي المعروف ، حيث فيها التشويق العاطفي ، وفيها التصوير النفسي ، والعظة الهادفة ، كما أنها قد تعتمد على الوحدة الفنية التي تكون هدفها الذي يرمي المصطفى عليه الصلاة والسلام تحقيقه بما يعرض من مواقف ومشاهد ، وما يعالج من أحداث ، وما يرسم من شخصيات ، بحيث تجتمع وتتلاحم في بناء قوي متماسك يبرز تلك الوحدة الفنية .

وحيث إن دراستي لأسرار القصة النبوية في الباب الأول كانت دراسة جزئية لاتنهض ببيان التفاصيل الدقيقة لهذه الأسرار ، وجدت من الضرورة بمكان أن أعقد هذا الباب الذي يُجَلِّي هذه الأسرار بوضوح من خلال عرض نماذج كاملة للقصة النبوية الكريمة - كما هو رأي أهل النقد الحديث - كما أنني رأيت أن أضع عنواناً لهذه القصص يتناسب مع مضمونها من جهة ، ويكون مؤثراً في تجلية الأسرار الدقيقة للوجوه البيانية فيها من جهة أخرى .



(١) أكثر ما يكون المثل القصصي في تلك القصص التي يقصد منها إلى تعميق الحقائق الدينية والأحكام التشريعية ، وتقريرها في النفس .

(٢) تهدف القصة الطويلة إلى التعبير عن المبادئ والقضايا الكلية .

الفصل الأول

الحوار القصصي

- ١ - البطاقة العظيمة .
- ٢ - دعاة على أبواب جهنم .

البطاقة العظيمة

١ - البطاقة العظيمة

عن عبد الله بن عمرو بن العاص^(١) ، قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ^(٢) رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُنْشَرُ عَلَيْهِ^(٣) تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ سَجَلًا ، كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَتَنْكُرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ أَظَلَمَكَ كِتَابَتِي الْخَافِظُونَ ؟ يَقُولُ : لَا ، يَا رَبِّ . فَيَقُولُ : أَفَلَاكَ عُدْرٌ^(٤) ؟ فَيَقُولُ : لَا ، يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ : بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً ، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ ، فَيُخْرِجُ بَطَاقَةً فِيهَا أُشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأُشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَيَقُولُ : احْضِرْ وَزَنِّكَ ، فَيَقُولُ : يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبَطَاقَةُ مَا هَذِهِ السَّجَلَاتُ ؟ فَقَالَ : فَإِنَّكَ لَا تُظَلَمُ . قَالَ : فَتُوضَعُ السَّجَلَاتُ فِي كِفْتِهِ ، وَالْبَطَاقَةُ فِي كِفْتِهِ فَطَاشَتْ^(٥) السَّجَلَاتُ ، وَثَقُلَتْ الْبَطَاقَةُ ، وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ .^(٦) » رواه الترمذي وابن ماجه ، واللفظ للترمذي ، وقال : هذا حديث حسن غريب .

(١) ترجمة راوي الحديث :

عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم ، يقال كان اسمه (العاص) فغيره النبي ﷺ إلى (عبد الله) ، روى عن رسول الله ﷺ الكثير من حديثه عليه الصلاة والسلام ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : ما أجد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب . . . أسلم قبل أبيه . . . مات بالشام سنة خمس وستين للهجرة ، وهو يومئذ ابن ائتين وسبعين سنة . . انظر : (الإصابة في تمييز الصحابة) ، ابن حجر العسقلاني ، ٢ / ٣٥٢ .

(٢) ورد في سنن ابن ماجه ، ٢ / ١٤٣٧ ، قوله ﷺ : « يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي . . . »

(٣) في المصدر السابق ، قوله ﷺ : « . . . فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سَجَلًا . كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ . . . »

(٤) في المصدر نفسه ، قول النبي ﷺ : « . . . ثُمَّ يَقُولُ : أَلَاكَ عَنْ ذَلِكَ حَسَنَةٌ فِيهَا بُرْجَانُ الرَّجُلِ ، فَيَقُولُ : لَا . . . »

(٥) الطَّيْشُ : الخَفَّةُ ، انظر لسان العرب ، مادة (طيش) .

(٦) رواه الترمذي ، ٤ / ١٣٤ ، وابن ماجه ، ٢ / ١٤٣٧ ، وصححه الحاكم في مستدركه ،

٦ / ١ . دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

تحليل الأسلوب النبويّ الكريم :

أساس الإسلام عقيدته ، وأساس العقيدة الإيمان بوجود الله عزّ وجلّ ووحدانيته ، وإفراده بالألوهية ، والخضوع والتذلل له بالعبادة . والإيمان بملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره . هذه الأصول الستة هي أصول العقيدة الإسلامية الصحيحة التي نزل بها كتاب الله العزيز ، وبعث الله عزّ وجلّ بها رسوله محمداً ﷺ ، ويتفرع عن هذه الأصول كلّ ما يجب الإيمان به من أمور الغيب التي أخبر بها الله عزّ وجلّ ورسوله محمد ﷺ .

وقد حرص الإسلام على غرس أصول العقيدة وتعميقها في نفوس الناس ؛ لينشئ منهم خلقاً آخر يصنعه الله على عينه ، ويغذوه الرسول ﷺ بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، ويتولاه بالتربية والتوجيه ، ومن هنا لزم انتزاع كل ما كانت تحويه نفوسهم من عقائد فاسدة ، وتصورات سقيمة . . . ولعل من أخطر القضايا التي واجه بها رسول الله ﷺ العرب - بعد قضية التوحيد - قضية اليوم الآخر ، وما يكمنفه من أحداث البعث والنشور ، والثواب والعقاب ، لذا كان لا بد أن يقوم المصطفى عليه الصلاة والسلام بتأكيد أصول الإيمان عامة ، وهذين الأصلين خاصة ، بكلّ ما يتاح من الوسائل والأساليب . .

والقصة النبوية في أساليبها الرائدة إحدى هذه الوسائل التي اقتفت أثر القرآن الكريم في تحقيق ذلك الغرض الديني^(١) . . . ومن هنا كان اختياري لهذا الحوار القصصي الكريم ، الذي يتعرض لوحدانية الله تبارك وتعالى ، كما يتعرض لبعض صفاته عزّ وجلّ مما يعمق في النفس الإيمان بقدرته وسعة ملكه ،

(١) أشار الأستاذ سيد قطب في كتابه (التصوير الفني في القرآن) ، ص ١٥٥ - ١٧٠ إلى آثار

خضوع القصة في القرآن الكريم للغرض الديني ، أوضحها ما يلي :

أ - تكرار المادة القصصية في مواضع شتى من القرآن الكريم .

ب - الاكتفاء بعرض القدر الذي يكفي لأداء الغرض الديني .

ج - مزج التوجيهات الدينية بسياق القصة ، قبلها وبعدها وفي ثناياها كذلك . . .

دار الشروق ، القاهرة ، بيروت ، الطبعة الثانية عشرة ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .

والحوار القصصي النبويّ الكريم يوجه الأنظار إلى إثبات وحدة الإله ، وإفراده بالعبادة . . .

وما يترتب عليه من آثار عظيمة يوم القيامة . . . يراجع كتاب (القصص في الحديث النبوي)

محمد حسن الزير ، ص ٤٢٧ ، وما بعدها .

وهيمنتها الشاملة على هذه الحياة في أولها وأخرها . . . وهذا الحوار الكريم يتخذ أحداثه مما سيقع من مشاهد يوم القيامة .

استهل الرسول الكريم ﷺ الحوار القصصي بحدث مثير لا يخلو من التشويق والإثارة ؛ لقسر السامع على الانتباه ، يظهر ذلك من خلال القول الكريم : « إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، إنها صورة الإكرام العظيم لذلك الرجل المختار ، الذي يميزه الله عز وجل عن بقية الخلق . . . ومتى ؟ يوم القيامة ، خاصة إذا تذكرنا ما في هذا اليوم العصيب من أهوال ، وما يلاقيه الناس من عناء وشدة . . . حينئذ سندرك كيف يبدو الإكرام جليلاً عظيماً^(١) - وإن انتاب الرجل شيء من الخوف حال اختياره على رؤوس الأشهاد يوم القيامة - كما أن ذلك التمييز والاختيار لن يكون في الخفاء ، بعيداً عن الأعين . إنه على رؤوس الخلائق ، كل الخلائق يوم القيامة في مشهد عظيم من مشاهد اليوم الآخر المتعددة ، عرضه الرسول ﷺ تعميقاً وتجسيداً له في إحساس المسلمين ..

وإذا تأملنا القول الكريم : « إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وجدناه قد احتوى على الكثير من عناصر التوكيد : الجملة الاسمية الدالة على الثبوت ، و « إِنَّ » الداخلة عليها ، وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي ، وحرف الاستقبال « السين^(٢) » ، وما يقتضيه ذلك من تقوية المعنى

(١) بدت الصورة مختلفة بعض الشيء - كما ورد في الرواية الأخرى المذكورة ، ص ١٢٤ ، هامش

رقم (٢) من هذا البحث ، قوله ﷺ : « يُصَاحُّ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي . . . » ..

يلاحظ أن الحوار الكريم بدأ بموقف عنيف ، حين يواجه الرجل بصيحة ملفتة للنظر . . . وما يزيد في قوة هذا الموقف المثير استعمال الفعل المبني للمجهول ، فمن الصائح ؟ لا نعلم ! ولكن البداية تضفي على جو القصة النبوية عنصر الإثارة والحيوية ..

(٢) زعم الزمخشري أنها إذا دخلت مع فعل محبوب أو مكروه أفادت أنه واقع لامحالة ، وتوضيح

هذا عند ابن هشام بأنها تفيد الوعد بحصول الفعل ؛ فدخولها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتضى لتوكيده وتثبيت معناه ، انظر كتاب مغني اللبيب عن كتب الأعراب ، الإمام أبي محمد عبد الله جمال الدين بن هشام الأنصاري ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،

١/ ١٣٩ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ..

وتقريره في الأذهان ؛ دفعاً لأيّ شك أو استغراب ، ولأن توضيح أحداث اليوم الآخر - وهي أمور غيبية - تعمل على ترسيخ العقيدة في النفوس . . . كما أن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي يفيد اختصاص المولى عز وجل بهذا التمييز .

ولكن السياق الكريم لم يلق بالأحداث دفعة واحدة ، إنما انتقل بها من مستوى إلى مستوى آخر ، وفق تسلسل معين للمواقف ، ومن خلال تدرج صاعد نحو تأزيمها . . . فنلاحظ أن تلك الصورة العظيمة أعقبتها موقف صعب لذلك الرجل ، حين يواجه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مثل مدّ البصر ، قد أحاطت به من كل جانب ، وكلها تدينه ، أحصت فيها الملائكة كل صغيرة وكبيرة ، ثم يواجه من قبل الله عز وجل بسؤال تقرير خطير : « أتتكر من هذا شيئاً ؟ » وأنتى له أن ينكر ، وأن يفر من سلطان الله تبارك وتعالى . . . كما أن السؤال عن كونه ينكر ما في هذه السجلات مفاجأة للمسئول تسترعي انتباهه ، فالسائل هو الله العليم الخبير ، والمسئول ذلك العبد الذي يستحيل عليه إنكار شيء مما أقره الله تبارك وتعالى وأثبتته . . . وها هو ذا يقر في وجل وتذلل : لا ، يا رب . ثم يقول الله عز وجل : أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقر بعدم الظلم . وأنتى يقع عليه ظلم من ملائكة الله الذين وكل الله عز وجل إليهم أمر كتابة الأعمال وحفظها في تلك السجلات ، وفي وصفهم بالحافظين ما يشير إلى تنزيههم عما ينافي قدرتهم على القيام بما أسند إليهم من أعمال . . . كما تشير الإضافة في قوله : « كتبتي » إلى التشريف والاختصاص .

ثم يقول الله عز وجل : (أفلك عذرٌ ؟) أي لك فيما فعلته من كونه سهواً أو خطأً أو جهلاً ، أو نحو ذلك حجة . . . فيقول الرجل في هيبة وقد أسقط في يده : لا . . . وهنا تصل المشكلة إلى ذروتها ، حيث تستحكم الأزمة .

لقد استطاعت الصورة البيانية في قوله الكريم : « فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مدّ البصر » تحقيق الهدف الديني الذي أنيطت به ، وهو أن الحياة ليست عبثاً ، وأن الإنسان لن يتخلص من جريرة ما عمل ، فالأعمال محصية مسجلة ، والإنسان سيجدها محضرة يوم القيامة ، قال تعالى ﴿ وُكِّلَ إِنْسَانٌ

الزَمَانَةُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ . وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يُلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١﴾ لَقَدْ كُنِيَ الْمُصْطَفَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِنَشْرِ السَّجَلَاتِ وَعَرْضِهَا مَفْتُوحَةً عَنْ سُرْعَةِ الْإِطْلَاعِ عَلَى جَمِيعِ مَا عَمِلَ ، حَيْثُ إِنَّ الْكِتَابَ يَحْضُرُ بِمَجْرَدِ وَصُولِ صَاحِبِهِ وَيَكُونُ مَفْتُوحًا لِلْمَطَالَعَةِ . كَمَا أَنَّ صِفَةَ تِلْكَ السَّجَلَاتِ مِنَ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ ، لَكِنَّ الْقَوْلَ الْكَرِيمَ عَرْضِهَا عَلَيْنَا حَتَّى كَأَنَّهَا نَرَاهَا بِأَعْيُنِنَا ، فَ (كَلَّ سَجَلٌ مِثْلُ مَدِّ الْبَصْرِ) ، لَقَدْ كُنِيَ الرَّسُولُ ﷺ بِمَدِّ الْبَصْرِ عَنْ اتِّسَاعِ كُلِّ سَجَلٍ وَعَظْمِهِ ، ثُمَّ جُعِلَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ الْكِنَائِيَّةُ أَحَدَ طَرَفِي التَّشْبِيهِ (السَّجَلٌ مِثْلُ مَدِّ الْبَصْرِ) شَبَّهُهُ الْمُصْطَفَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اتِّسَاعَ السَّجَلِ الْوَاحِدِ مِنْ تِلْكَ السَّجَلَاتِ بِقَدْرِ مَا يَمْتَدُّ إِلَيْهِ بَصَرُ النَّازِرِ . وَوَجْهَ الشَّبْهِ الْجَمَاعِ بَيْنَهُمَا السَّعَةُ . وَالْغَرَضُ مِنَ التَّشْبِيهِ : بَيَانُ مَقْدَارِ حَجْمِ ذَلِكَ السَّجَلِ ، وَأَنَّهُ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِمَدِّ الْبَصْرِ . وَسُرُّ بِلَاغَةِ الصُّورَةِ الْبَيَانِيَّةِ الْحَسِيَّةِ الْكَرِيمَةِ ، يَكْمُنُ فِي اسْتِطَاعَتِهَا أَنْ تَمُدَّ الصُّورَةَ الذَّهْنِيَّةَ بِشَيْءٍ مِنَ التَّصَوُّرِ ، فَأَخْرَجَتْ مَا لَا يُعْلَمُ بِالْبَدِيهَةِ إِلَى مَا يُعْلَمُ . فَكُلُّ سَجَلٍ مِنْ هَذِهِ السَّجَلَاتِ لَا يُعْلَمُ غَايَتُهُ وَلَا مَنْتَهَاهُ .

وَإِذَا تَأَمَّلْنَا تَوَالِي أَسَالِيْبِ الْإِسْتِفْهَامِ : أَتَنَكَّرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا . . . أَظْلَمْتُ كِتَابَتِي ؟ أَفَلَيْكَ عَذْرٌ ؟ . . . لَوْ جَدْنَا تِلْكَ الْمَعَانِي تَصْعَدُ بِالْيَقِظَةِ إِلَى قِمَّتِهَا ؛ لِاسْتِحْضَارِ كُلِّ الْقُوَى النَّفْسِيَّةِ لِإِدْرَاكِ بَارِقَةِ الْأَمَلِ ، وَبِصَيِّصِ النُّورِ بِمِيزَانِ الْعَدْلِ الْقَائِمِ عِنْدَ اللَّهِ حَيْثُ تَكُونُ الْفُرْصَةُ قَائِمَةً ، لِيُدَافِعَ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَكِنْ حِينَ يَرْجِفُ الرَّجُلُ ثُمَّ يَظْهَرُ عَجْزُهُ ، يَلُوحُ الْأَمَلُ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمِيزَانِ فَضْلِهِ سَبْحَانَهُ ، حَيْثُ يَخْبِرُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَنَّ لَهُ حَسَنَةً ، وَأَنَّ لَا يَظْلَمُ عَلَيْهِ الْيَوْمَ . . . فَتَخْرُجُ لَهُ بَطَاقَةٌ ، وَقَدْ كُتِبَ فِيهَا « أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ » اعْتِرَافٌ حَقِيقِيٌّ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ تَجِبُ عِبَادَتُهُ ، وَيُعْمَدُ إِلَيْهِ فِي قَضَاءِ الْحَوَائِجِ الْخَارِجَةِ عَنْ مَتَنَاوِلِ الْبَشَرِ إِلَّا اللَّهُ ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَيُبِيدُهُ وَحْدَهُ الْأَمْرَ وَالتَّيْدِيرَ . . . وَكَذَلِكَ الْإِعْتِرَافُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرِّسَالِ ؛ لِهُدَايَةِ الْبَشَرِ ، وَإِرْشَادِهِمْ لِمَصَالِحِهِمُ الْحَقِيقِيَّةِ ، وَإِعَانَتِهِمْ عَلَى شُؤْنِ الْحَيَاةِ . . . وَالْإِعْتِرَافُ بِالْوَحْدَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبِالرِّسَالَةِ لِمُحَمَّدٍ ﷺ أَسَاسُ الْإِعْتِرَافِ بِالْحَقَائِقِ ، وَمَبْدَأُ الْهُدَايَةِ الْحَقَّةِ .

ومع هذا الاعتراف ما زال الرجل يشعر بالأزمة التي هو فيها ، تؤثر في نفسه ، ولا يزال يتخوف من تلك السجلات العريضة ، يدل على ذلك اتجاهه إلى ربّه قائلاً : يا ربّ ما هذه البطاقة الواحدة مع هذه السجلات الكثيرة ؟ فيأتي الردُّ شافياً وافيّاً بأنك لا تظلم . قيل : وجه مطابقة هذا الجواب - أعني إنك لا تظلم - لقوله : ما هذه البطاقة ؟ أن اسم الإشارة للتحقير ، كأنه أنكر أن تكون هذه البطاقة المحقرة موازنة لتلك السجلات ، فرد بقوله : إنك لا تظلم بحقيرة ، أي لا تحقر هذه ، فإنها عظيمة عنده سبحانه ، إذ لا يثقل مع اسم الله شيء ، ولو ثقل عليه شيء لظلمت^(١) وهذا القول يبعث في نفس الرجل الاطمئنان ، ويزيد في فسحة الأمل . . . ولكن لا بد من اعتبار الوزن كي يظهر أن لا ظلم عليه . فاحضر الوزن^(٢) ، إنه ميزان عادل دقيق ، وكلُّ سيجد ما قدّم في رحاب العدل المطلق أمام محكمة العدل الإلهية ، وتأتي حينئذ لحظة الانفراج ، حين توضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فترجح كفة الشهادتين ، ويفوز الرجل بفضل الله عزّ وجلّ ورحمته ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾^(٣) .

إن التوحيد من أسباب المغفرة ، بل هو السبب الأعظم فيها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾^(٤) ، فمن جاء مع التوحيد بقراب الأرض خطايا ، لقيه الله تبارك وتعالى بقرابها مغفرة - مع مشيئته عزّ وجلّ - .

(١) انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ، ٣٩٦/٧ ، أبو العلي محمد المباركفوري .

(٢) أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان ، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة والذي يخفضه ويرفعه هو الله تبارك وتعالى على وجه يليق بجلاله . . . فهناك ميزان لا نعلم حقيقته ، لأنه من عالم الغيب ، وكل شيء من هذا العالم لا نستطيع أن ندخل فيه إلا بمقدار ما يرد إلينا عن الله عزّ وجلّ ، ورسوله محمد ﷺ . . . يراجع كتاب (فتح الباري) ابن حجر العسقلاني ، ٥٣٨/١٣ - ٥٣٩ . ويراجع كتاب مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية ، جمع وترتيب : عبد الرحمن بن قاسم ، ٣٠٢ / ٤ ، إدارة المساحة العسكرية ، القاهرة ، ١٤٠٤ هـ .

(٣) يونس : ٥٨ .

(٤) النساء : ٤٨ .

وإذا تأملنا القول الكريم : « . . . إن لك عندنا حسنة ، وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » وجدنا الدقة التامة في انتقاء الألفاظ ، وحسن اختيارها . . . حيث التضاد بين حرفي الجر (لك ، و عليك) يضيفي على العبارة مزيداً من التناغم والتلاؤم ، فليس الطباق مجرد تحسين للكلام في حديثه ﷺ ، ولا لهواً من لهو الأدب البشري ، إنما الطباق في هذا الوحي الإلهي ذو أغراض أصيلة لا تؤدي دونه . (١)

كما أن حرف الجر (اللام) يستعمل فيما يجلب منفعة ، وحرف الجر (على) يستعمل فيما يقع منه مضرة وسوء . يقول الله سبحانه وتعالى في مثل هذا المقام عن النفس البشرية : ﴿ لا يَكْفُفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ . ﴾ (٢) كما أن التعبير بضمير الشأن وتقديمه - بما في ذلك من إبهام وغموض - يثير في النفس تطلعاً إلى الجملة ، حتى إذا ما استقبلتها النفس استقبلتها متشوقة لها ، مقبلة عليها في حرص ورغبة . . . فتقديم الضمير ليس إلا تمهيداً لما سيكون بعده ، وإشارة لما سيتوجه إليه المعنى .

والتعريف في (اليوم) للعهد ، وهو يوم القيامة ، وإطلاق اليوم عليه مشهور ، وهو مستعمل في الوقت ، أو وقت محاسبتهم ، وفائدة ذلك التنويه به ، وبأنه يوم العدل . . . وفي تنكير كلمتي (حسنة ، وبطاقة) إشارة إلى أنهما عظيما الشأن جليلتا الخطر .

(١) انظر كتاب (الحديث النبوي من الوجهة البلاغية) ، عز الدين علي السيد ، ص ٢٣٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٦ . . . ومن ذلك أيضاً ، قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ فصلت : ١٦ .

وقوله تعالى : ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لئُرسلَ عليهم حجارةً من طينٍ مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسرِّفِينَ ﴾ الذاريات : ٣٢ - ٣٤ .

إن التصوير بالموازنة أسلوب كثير الورد في الحديث النبوي نلمحه في القول الكريم : « طاشت السجلات وثقلت البطاقة » ، « فقد جمع هذا الأسلوب بين الإمتاع والإقناع ، أما الإمتاع فلأن السامع والقارئ يكونان أمام صورة تربط بين شيء معروف وأمر جديد يتعرفانه ، وأما الإقناع فلأن الموازنة تجعل المرء يأخذ بالرأي يدل عليه الدليل . » (١)

والصلة واضحة بين المعنيين عن طريق التقابل ، فالسجلات طاشت ، والبطاقة ثقلت ، ولهذا كان الوصل بينهما . . . والتعبير بصيغة الماضي « طاشت ، ثقلت » أبلغ من المضارع ؛ لتحقيق وقوع الفعلين في المستقبل ، وكأنهما حدثا بالفعل ، مما يقوي في النفس أثر وحدانية الله عز وجل ، ويرسخ فيها معنى العدالة الإلهية في ذلك اليوم . . . فشبّه الطيش في المستقبل بالطيش في الماضي ، بجامع تحقق الوقوع في كل ، ثم استعير الطيش في الماضي للطيش في المستقبل ، ثم اشتق من الطيش طاشت بمعنى تطيش استعارة تصريحية تبعية . كما شبه الثقل في المستقبل بالثقل في الماضي بجامع التحقق في كل ، ثم استعير الثقل في الماضي للثقل في المستقبل ، ثم اشتق من « الثقل » ثقلت بمعنى « تثقل » استعارة تصريحية تبعية . والقرينة في الاستعارتين حالية .

وفي نهاية الحديث النبوي يقرر المصطفى ﷺ الحجة بالمنطق الفطري في قوله : « ولا يثقل مع اسم الله شيء » فذكر الله عز وجل لا يقاومه شيء من الذنوب والمعاصي ، بل يترجح ذكر الله تبارك وتعالى عليها ؛ لأن من يحقق بكلمة التوحيد قلبه يخرج منه كل ما سوى الله محبة وتعظيماً ، وإجلالاً ، ومهابة ، وخشية ، ورجاء ، وتوكلاً . عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من نفس تموت تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله - ﷺ - يرجع ذلك إلى قلب مؤقن ، إلا غفر الله لها . » (٢)

(١) محمد الصباغ ، التصوير الفني في الحديث النبوي ، ص ٥١٤ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ،

الطبعة الأولى ، عام ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م .

(٢) سنن ابن ماجه ، ٢ / ١٢٤٧ .

والعلاقة بين أجزاء الحديث واضحة، والكلمات والجمل مترابطة ؛ لتؤدي المعاني الدينية التي أصلها وأساسها الإيمان بوجود الله عزّ وجلّ ووحدانيته . . . إنّ أعدل العدل وأصله : الاعتراف وإخلاص التوحيد لله عزّ وجلّ ، والإيمان بصفاته وأسمائه الحسنى ، وإخلاص الدين والعبادة له ، وأعظم الظلم ، وأشدّه الشرك بالله .

وفضلاً عن ذلك كله فإن الحوار قد زاد من عنصر التشويق الذي اعتمدت عليه هذه القصة النبوية اعتماداً واضحاً حيث استطاع - على إيجازه - أن يُعبّر عن أثر العقيدة الإسلامية أصدق تعبير ، وأن يستخدم الصور الحسية بأسلوب رائع يحقق الغرض الديني العظيم .

دعاء على أبواب جهنم

٢ - دعاة على أبواب جهنم

عن أبي إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة بن اليمان^(١) يقول : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت : يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير شر ؟ قال : نعم . فقلت : هل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم ، وفيه دخن . قلت : وما دخنه ؟ قال : قوم يستنون بغير سنتي ، ويهدون بغير هديي ، تعرف منهم وتتكبر . فقلت : هل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم ،

(١) ترجمة راوي الحديث :

هو أبو عبد الله حذيفة بن حسيل ، أنصاري ، حليف بني عبد الأشهل . شهد مع رسول الله ﷺ أحداً هو وأبوه وأخوه صفوان . قُتل والده يومئذ ، قتله بعض المسلمين خطأ ، فتصدق بديته على المسلمين ، آخى الرسول ﷺ بينه وبين عمارة بن ياسر . . . استعمله عمر بن الخطاب على المدائن . توفي - رضي الله عنه - سنة ست وثلاثين للهجرة ، بعد مقتل عثمان بن عفان - رضي الله عنه - بأربعين ليلة . له مكانة عظيمة بين كبار الصحابة - رضوان الله عليهم - لقبه الرسول ﷺ بصاحب السر الذي لا يعلمه غيره . .

قال علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - بشأنه : هو أعلم أصحاب محمد بالمنافقين .

وهو الذي أشار على أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنهما - بنسخ المصحف ؛ درءاً لاختلاف الأمة . . كما أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - بجمع القرآن بين دفتي مصحف واحد ؛ خوفاً عليه من الضياع بموت الصحابة واستشهادهم في المعارك الإسلامية . لقد بلغ حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - بما ألهمه الله عز وجل ما يريد حتى إن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه ، وهو الملقب بالفطن الأريب - كان يستدل برأيه وببصيرته في اختيار الرجال ومعرفتهم ، كما أنه كان لا يشهد جنازة لم يشهدا حذيفة .

تراجع الترجمة في : كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، أبو عمر يوسف بن عبد الله القرطبي ، ١ / ٢٧٧ ، على هامش كتاب الإصابة في تمييز الصحابة ، وكتاب تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، جمال الدين المزي ، تحقيق : بشار عواد معروف ، ٥ / ٤٩٥ - ٥١٠ ، الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥ هـ . والإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ، ١ / ٣١٨ ، وكتاب حياة الصحابة ، محمد يوسف الكاندهلوي ، ١ / ٣١٢ - ٣١٤ ، مطبعة دار المعارف العثمانية ، حيدرآباد ، ١٣٧٩ هـ ، وكتاب الكامل في التاريخ ، عز الدين أبي الحسن علي المعروف بابن الأثير ، ٣ / ١١١ - ١١٢ ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ .

دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا . فقالت : يا رسول الله صفهُمُ لنا : قال : نعم ، قومٌ من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا (١) ، قلتُ : يا رسول الله ، فما ترى إن أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . قلتُ : فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمامٌ . قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعضَّ على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك . (٢) « رواه البخاري ومسلم ، واللفظ لمسلم .

تحليل الحوار القصصي الكريم

بدأ الحوار الكريم بمقدمة قائمة على مبدأ السببية التي تقف وراء وجود الحدث أساساً . . . فقوله - رضي الله عنه : (يا رسول الله إننا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير) أعاد إلى الأذهان ما كانوا يرتعون فيه من جاهلية جهلاء ، حين كانوا يعيشون في ظل النعرات القبلية ، والحروب الطاحنة التي تثيرها تلك النعرات ، فلا تسمح لهم بالاستقرار أو حتى التفكير في الأمن والطمأنينة . علاوة على عبادتهم للأصنام . . . وإتيانهم الفواحش .

ويأشراقه نور الإسلام الذي بدد الظلام وأحرق بنوره الساطع تلك الشرور ، انتشل العرب من حماة الجاهلية ، ومن الذل والهوان إلى العزة والقوة . . . أسس النبي ﷺ المجتمع الإسلامي على قاعدتين عظيمتين هما : إيمان نقي أساسه الاستسلام لله طاعة لأوامره كلها . . . وأخوة في الله أساسها الاعتصام بحبل الله ، ولهذا ذابت الفوارق العصبية والنعرات القبلية . ولقد صدق المسلمون ما عاهدوا الله عز وجل . فكانوا في رباط حقيقي ، فسما بهم إلى القمة العليا ، وأخبر أنهم جديرون أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس .

(١) في صحيح مسلم ، ٦ / ٢٠ برواية أخرى « قول النبي ﷺ : « يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدائي ولا يستنون بسنتي ، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس . . . قال : قلت : كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك ؟ قال : تسمع وتطيع للأمر وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك ، فاسمع وأطع . »

(٢) رواه مسلم ، ٦ / ٢٠ ، والبخاري ، ٤ / ١٧٨ .

وإذا أنعمنا النظر في قوله - رضي الله عنه : (إنا كنا في جاهلية وشر) وجدناه حشد في عبارته من عناصر التوكيد : الجملة الاسمية ، و (إن) الداخلة عليها ؛ ليؤكد ما كانوا يعانونه من عقائد فاسدة ومفاهيم سقيمة ، انغمسوا في أتونها . . . ثم صور معاني الشر الذهنية في صورة حسية ، حيث شبه إحاطة تلك الشرور بهم ، وتمكنها من نفوسهم كما يتمكن الظرف بالمظروف ، على سبيل الاستعارة التبعية ، لذا عبّر بلفظ (في) التي تدل على الظرفية والانغماس في الشيء . وهذا أبلغ في تأدية المعنى .

والتنكير في قوله : (جاهلية وشر) لتعظيم تلك الجاهلية والشر ، ومع هذا الغرض البلاغي للتنكير هناك وجه آخر هو إفادة التنكير في الكلمتين للنوعية ، أي هذه الجاهلية وذاك الشر نوع خاص غير ما يتعارفه الناس . وأفاد الطباق في قوله : (خير ، شر) تقوية المعنى المقصود ؛ فوجود الشيء الحسن مع ضده يزيده حسناً ، كما يزيد الشيء القبيح قبحاً . . . وفي إظهار المسند إليه دون الإضمار ، وجعله الاسم الأعظم لله سبحانه في قوله - رضي الله عنه : (جاءنا الله بهذا الخير) تنبيه على عظم هذا الخير ، وإيماء إلى حرصه - رضي الله عنه - عليه . . . وفي الإشارة الحسية إلى الإيمان - وهو أمر معنوي - ما ينبىء عن عمق الإيمان في نفس حذيفة - رضي الله عنه - حيث يدركه شيئاً قريباً ومحسوساً . . . لقد عايش حذيفة - وعاش معه الصحابة رضوان الله عليهم - الجاهلية من قبل ، لكنه لما انتقل إلى الإسلام أدرك حقيقة عظم تلك النقلة . فإذا هو في نشأة جديدة أعيدت فيها نفسه على صورة جديدة تختلف كل الاختلاف عما ألفه في حياته السابقة .

من خلال هذه المقدمة التمهيديّة - التي اكتسبت أهمية بارزة في بناء الحوار القصصي - تعبّر نفس حذيفة الملهمة إلى بداية حوار غيبي كريم مع النبي ﷺ يستقرىء مستقبل المجتمع المسلم ، ويحمل همومه ، حيث يقول - رضي الله عنه : (فهل بعد هذا الخير شرٌّ ؟ قال : نعم .) سؤال يوحي بأن هناك نوعاً من الاستبعاد يستبطن شعوراً مبهماً في نفس حذيفة - رضي الله عنه . كما أنه يؤدي وظيفة حيوية في تهيئة الأذهان وتوجيهها إلى الارتباط بضمون القصة الغامضة التي تحتوي قلبه وعقله ، ويتطلع أن يجد لها إيضاحاً ، وتفسيراً لدى وحي

رسول الله ﷺ في الإجابة عن هذا السؤال . وكانت الإجابة النبوية إنباءً عن صدق إلهام نفس حذيفة ، إن الخير الذي أشرقت بنوره النفوس يعقبه شرٌّ .

إننا من خلال تتبع الواقع التاريخي للأمة الإسلامية ، بعد وفاة الرسول ﷺ ، نجد أن المجتمع الإسلامي تعرّض لأحداث جسام أو شكت أن تهدد وتعوّق حركته وهي في مهدها فحروب الردّة - مثلاً - أول ابتلاء ابتلي به المجتمع الإسلامي ، لكن إيمان المسلمين بالحق الذي اعتنقوه ، وثقتهم العميقة بوعد الله بالتمكين لهذا الدين في الأرض ، وعمق صلّتهم بربهم ، وإخلاصهم لدينهم مَحَقَّ إيمان المرتدين بباطلهم الذي يحكمه الهوى والشهوات حيث وقف الصحابة - رضوان الله عليهم - صفًا واحدًا خلف إمامهم ، وخليفة رسولهم ، أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ونصر الله دينه كما وعد وتوقدت جذوة الجهاد في نفوس المسلمين في قوة لا تبارى ، تهاوت أمامها عروش الفرس والروم بعد ذلك .

لكن تصدّعت وحدة المسلمين ، وتفرقت كلمتهم بعد حين حتى أصبحوا فرقًا وأحزابًا ، واختلط الأمر عليهم ، واشتبهت الطرق أمامهم . . . فلم يعرفوا مستقيمها من معوجها ، وقتل في ظلام هذه الفتنة أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه . ومنذ ذلك الحين دخل المسلمون في ليل داج بهيم ، يضرب بعضهم رقاب بعض وتأججت نار الفتنة^(١) بعد اختيار المسلمين لإمامين عظيمين ، هما : علي بن أبي طالب - رضي الله عنه ، ومعاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه ، واشتد الخلاف في جميع البلاد الإسلامية ، وانقسم المسلمون إلى جيشين متحارين ، يعمل كل منهما سلاحه في الآخر في حروب طاحنة أريقت فيها الدماء وأوقد جذوتها المنافقون ، واشتد سعيرها^(٢) حتى أبرم

(١) لقد وجد خصوم الإسلام في هذه الفتنة مادة دسمة للتشيع على الصحابة رضوان الله عليهم ، والتهوين من شأن المسلمين جميعهم . . . وقد جرّد بعض المؤرخين أقلامهم للرد على تلك الأباطيل . انظر كتاب «أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ» ، إبراهيم شعوط ، فصل : الفتنة الكبرى ومدلولها في التاريخ ، دار الشروق ، جدة ، الطبعة السادسة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م . .

(٢) عن أبي ذر رضي الله عنه ، قال : قال لي رسول الله ﷺ : يا أبا ذرّ ، قلت :

الله عزّ وجلّ لهذه الأمة أمرَ رشد ، فجمع كلمتها على يد صحابي من كتّاب وحيه سبحانه ، هو معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه ، فاستقرت أحوال المسلمين بعد اضطراب ، وعادوا مرة أخرى إلى هدفهم السامي ، وهو نشر الدعوة الإسلامية في ربوع أرض الله الواسعة . . . والراجح أن تلك الفتنة التي أملت بالمسلمين بعد مقتل عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وما تلا ذلك من الخلاف الذي أدى إلى القتال بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - هي الشرُّ الذي قصده النبي ﷺ ، وخاف حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - إدراكه . (١)

وأعود الآن إلى عملية البناء القصصي في هذا الحديث الشريف فأقول : إن الحادثة الأولى ، أعني فتنة مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - خلقت عمراً طبيعياً يعبر المتلقي من خلاله إلى أحداث ومواقف جديدة في القصة النبوية الكريمة . . . كما أنها من زاوية أخرى تعطي لتلك الأحداث المبرر الذي يهيبء لنمو الصراع^(٢) فيها إلى مدى بعيد ، يلمح ذلك بسهولة من يقرأ الحوار الكريم : « فقلت : هل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم ، وفيه دَخَنٌ ، قلت : وما دخنه ؟ قال : قوم يستنون بغير سنتي ويهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر » فبعد ذلك الخلاف ، وما أحدثه من فرقة في صفوف المسلمين استطاع الخليفة

= لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : كيف أنت إذا أصاب الناس موتٌ يكون البيت فيه بالوصيف ؟ قلتُ : الله ورسوله أعلم ، أو قال : ما خار الله لي ورسوله ، قال : عليك بالصبر ، أو قال : تصبر . ثم قال لي : يا أبا ذر ، قلت : لبيك وسعديك ، قال : كيف أنت إذا رأيت أحجارَ الزيت قد غرقتُ بالدم ؟ قلت : ما خار الله لي ورسوله ؟ قال : عليك بمن أنت منه ، قلت : يا رسول الله ، أفلا أخذ سيفي وأضعه على عاتقي ؟ قال : « شاركت القوم إذن ، قلتُ : فما تأمرني ؟ قال : تلزم بيتك ، قلت : فإن دُخلَ عليَّ بيتي ؟ قال : فإن خشيت أن يهرك شعاعُ السيفِ فألقِ ثوبك على وجهك يَبُوءُ بإثمك وإثمه . رواه أبو داود ، ٤ / ١٠١ .

(١) كانت وفاة حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه بأربعين ليلة .

(٢) انظر كتاب « دراسات في القصة العربية الحديثة » ، محمد زغلول سلام ، ص ٢٧ ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ م .

معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه ، ومن تولى أمر المسلمين من بعده توحيد الصف ، واجتماع الكلمة ، فاستقرت أحوال المسلمين ، وحملوا نور الإسلام - من جديد - إلى جهات لم تكن تعرفه ، في آسيا وأوروبا ، فأسكتت المآذن الإسلامية أجراس كنائس المسيحيين ، وبيع اليهود بالنداء الخالد (الله أكبر) . . . لكن ذلك الخير لم يكن خالصاً ، بل شابه شوائب من : الانغماس في الترف المفسد الذي أصاب الحياة بتأثير تدفق الأموال . فإذا أضفنا إلى ذلك ظهور الفرق - مثل الخوارج والشيعة والمرجئة ثم الصوفية وغيرها (١) - أدركنا عمق الصراع القصصي ووصوله إلى الذروة التي تبلغ به درجتي الجمال والكمال .

والراجح أنه من الممكن أن يكون أصحاب تلك الفرق هم الذين قصدهم النبي ﷺ بقوله الكريم : « قوم يستنون بغير سنتي ويهدون بغير هديي ، تعرف منهم وتنكر » أي يتبعون غير طريقة النبي ﷺ ، ويدعون لسيرة غير سيرته ، بل يسيرون بغير علم ولا بصيرة (٢) .

(١) كانت هذه الفرق من أشد البلايا التي ابتلي بها الإسلام ، حيث كانت في أول أمرها سياسية محضة ، تعتمد في أفكارها على الاستنتاج من الكتاب والسنة - وإن كان لها نهج خاص في هذا الاستنتاج - ثم أصبحت بعد ذلك فرقة دينية محضة ، لخوضها في قضايا الصفات والقدر ، والجبر والاختيار ، وشيئاً فشيئاً تزايدت خطورة تلك الأفكار مع امتداد الزمن ، فانزلق أصحابها إلى تصورات ذهنية فلسفية . انظر كتاب « تاريخ الفرق الإسلامية ، ونشأة علم الكلام عند المسلمين » ، علي مصطفى الغرابي ، مطبعة محمد علي صبيح ، مصر ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٨ هـ .

(٢) ويمكن أن نؤيد هذا الرأي أيضاً بقول النبي ﷺ : « يخرج فيكم قوم تحقرون صلواتكم مع صلواتهم وصيامكم مع صيامهم وعملكم مع عملهم ، ويقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يرقون من الدين كما يرق السهم من الرمية ، ينظر في الریش فلا يرى شيئاً ، ويتمارى في الفوق » رواه البخاري ، ١١٥ / ٥ .

وقد يكون المراد بهؤلاء - أعني القوم الذين ورد ذكرهم في الحوار القصصي الكريم - بعض من ولي أمر المسلمين ، وأتى بشيء من البدع والمنكرات تخالف سنة النبي ﷺ ، وتناقض ما كان عليه السلف الصالح . . . ويؤيد هذا القول ما قاله حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - حين سأل النبي ﷺ ، فقال : « يا رسول الله أيكون بعد هذا الخير شرٌّ ، كما كان قبله شرٌّ ؟ قال : نعم . قال : قلت : فما العصمة يا رسول الله ؟ قال : السيف . قال : قلت : وهل بعد هذا =

وفي قول المصطفى عليه الصلاة والسلام : « دَخَنٌ » يجتمع سرّ البيان في العبارة النبوية كلها ، فالدخن في الأصل اسم للون الذي فيه كدورة ، والصحيح أنه مأخوذ من الدخان لكدر أجزائه وارتداد ألوانه ، فكأن الرسول ﷺ شبه الفساد الذي انطوت عليه قلوب القوم المقصودين من مبادئ منحرفة وأفكار مضلة بالدخان الذي يدل على النار ، بجامع دلالة كل منهما على ما بعده ، على سبيل الاستعارة التصريحية^(١) . ثم نلمح لونا آخر في صفة هذا المعنى ، وهو ما اصطبغت به تلك القلوب من لون مظلم حجب الكثير من معالم الخير في الأمة . . كما أنها - أعني لفظة دخن - توحى للمتلقي بانطفاء جذوة الإيمان في نفوسهم ، ولم تُخلف إلا دخانا أسودا ، وهذا كله تصوير لدقائق المعنى بتلك اللفظة الجامعة . . ومن زاوية أخرى نجد أنها ذات قيمة كبرى في تماسك البنية الفنية للحوار القصصي ، ورفعها من مستوى حواري يتسم بالطابع الإخباري إلى مستوى أرفع وأدق في النسج الفني الذي يعتمد على علاقة الأسباب بالتأثير . . ولذا كان سؤال حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - للرسول ﷺ : (وما دخنه؟) ليزداد علما . .

وإذا تأملنا التكرار - بالنسبة للمسند إليه ؛ قوم ، وواو الجماعة - في قوله الكريم : « قوم يستنون بغير سنتي ، ويهدون بغير هديي » وجدنا أن الغرض هو التوكيد ، وذلك يشعر بأهمية الأمر وخطورته . . كما أن المطابقة في قوله : « تعرف منهم وتنكر » تدل على الحيرة التي يقع فيها الناس من جراء منافاة أعمال أولئك القوم لمقتضى عقيدتهم . فبعض أعمالهم وسلوكهم قد تتفق مع الشرع

= السيف بقية؟ قال : نعم ، تكون إمارة على أقذاء ، وهدة على دَخَن . قال : قلت : ثم ماذا؟ قال : ثم تنشأ دعاة الضلالة ، فإن كان لله يومئذ في الأرض خليفة جلد ظهره ، وأخذ مالك فالزمه ، وإلا فمت وأنت عاصُ على جذل شجرة . رواه أحمد بن حنبل في مسنده ، ٤٠٣ / ٥ .

وقد يكون المراد بقول النبي ﷺ في الحوار القصصي جميع هؤلاء - أعني أصحاب الفرق ، ومن ولي أمر المسلمين وخالف نهج المصطفى عليه الصلاة والسلام - والله ورسوله أعلم . .

(١) انظر ، المعجازات النبوية ، ص ٢٤٨ - ٢٥٠ ، الشريف الرضي .

فيقرهم الناس عليها ، وأمور أخرى منكرة لا يقبلها الشرع ولا العقل ، فينكرونها عليهم . . . ومهما يكن في هذا الخير من دخن فإنه أحسن مما سيأتي بعده ، فقد أنبأنا الرسول ﷺ عن أن هذا الخير ذا الدخن سيعقبه شرٌّ في صورة أشدّ (دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها) ، ما أكثر هؤلاء الدعاة في زماننا هذا - وفيما سيأتي من الزمان - يغيرون شريعة الله عزّ وجلّ ، ويهزؤون بأحكام الدين ، وهم ليسوا بعيدين عن الدين والعروبة ، إنما هم كما وصفهم الرسول ﷺ بقوله الكريم: « من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا » لكنهم تذهبوا بمذاهب هدّامة ، وأفكار^(١) ضالة ، فخرجوا على الدين خروجاً سافراً في أقوالهم وأفعالهم وسلوكياتهم ؛ ليقول الناس عنهم إنهم أحرار التفكير ، ورواد التطور والمدنيّة . . . فصارت كلمة رجعية سلاحاً يستعمل لهدم التراث ، وما يرتبط به من قيم وعادات وتقاليده . . . كما صارت كلمة تقديميّة سلاحاً لخدمة التبعية العمياء للغرب ، وقيمه وأخلاقه وعاداته . . . ولا يكون انزعاج هؤلاء الأحرار الذين يطلقون على أنفسهم لقب (الرؤّاد !!) من الإسلام وحضارته إلا من منطلق قول الشاعر :

قد تُنكرُ العينُ ضوءَ الشمسِ من رمدٍ ويُنكرُ الفمُ طعمَ الماءِ من سقمٍ

إن المسلمين اليوم في حرب لا هوادة فيها ، مع هؤلاء الرواد الذين يمتلكون أسلحة فتاكة تنجح فيما عجز السلاح عن تحقيقه إنها الكلمة والرأي والحيلة ، والنظريات ، والشبهات ، وخلاصة المنطق ، وبراعة العرض . وهذه الأمور جميعاً ليست إلا مداد الأقلام المسمومة الممزوجة بالعسل ، تتغذى منه عقول الشباب الذين لم يدركوا حقيقة دينهم ذلك الإدراك الذي يفضح الكثير من المفتريات ، ويكشف عن تلك السموم ، فيرتع الكثير من أبناء الإسلام في مستنقعات الضلال

(١) من سوء حظ البشرية عامة ، والمسلمين خاصة أن غزتها مذاهب هدّامة ، وتيارات معادية لكل القيم (مثل الاشتراكية والرأسمالية والوجودية والماسونية وغيرها) يجمعها هدف واحد هو تحطيم الفضائل والقيم الخلقية في الناس ، والقضاء على نوازع الخير فيهم ، والانسلاخ من جميع العقائد السماوية . . . انظر كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » ، محمد قطب ، دار الشروق ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ .

والفساد ، وشيئاً فشيئاً يذوب كيانهم النفسي ، فيقبلون التلاشي والفناء في بوتقة أعدائهم ، أو يصبحون امتداداً ذليلاً لهم .

كما أن من وسائلهم لتحقيق مآربهم احتقار علماء المسلمين وازدراءهم ، وإجاءهم إلى أضيق مسالك اكتساب الرزق ؛ لتفسير المسلمين منهم ومن طريقتهم ، ثم تقديم جهلة منحرفين إلى مراكز الصدارة ؛ ليعطوا صورة مشوهة سيئة عن التطبيق الإسلامي توسلاً إلى تشويه الإسلام نفسه عن طريقهم ولكن تذهب محاولات النيل من تلك القمم التي تبوأَت مكانتها في العالم بأصالتها ، وعظم عطائها أدراج الرياح ، فلا نملك إزاءها إلا ترديد قول الشاعر :

كناطحِ صخرَةً يوماً ليوهنها فلم يَضُرْها وأوهى قرنه الوعلُ

ولنتعم النظر مرة أخرى في الحوار الكريم : « دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها ، قلت : يا رسول الله صفهم لنا ، قال : نعم ، قومٌ من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا » حيث نجد أن الصورة البيانية استطاعت التعبير عن أدق المعاني . حيث عبر النبي ﷺ بالمجاز المرسل في قوله : « دعاة على أبواب جهنم »^(١) عن دعوة أولئك الدعاة إلى الشر والفساد ، وتزيينهم للناس الأعمال التي تستوجب العذاب ، فكأنهم إذ يدعونهم إلى تلك الأعمال وقوف على أبواب جهنم يدعونهم إلى الدخول فيها ، فيحتويهم ما فيها من شر وبلاء علاقته ما يؤول إليه حالهم ، بإطلاق الدعوة إلى أبواب جهنم على الدعوة إلى الشرور والمعاصي باعتبار مآلها . أو العلاقة اللزومية بينهما من قبيل المجاز المرسل ؛ لأن من يسلك طرق الشرور والكبائر لزم أن يكون مدعواً إلى جهنم . . . ثم إن هذه الأبواب بعضها قد فتحناه نحن بأيدينا ، وبعضها قد فتح لنا بيد أعداء الله المتربصين بنا الدوائر ، فدفعوا بنا دفعاً إلى تلك المهاوي . قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ . (٢)

(١) ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، ١٣ / ٣٦ .

(٢) الرعد : ١١ .

من دقة البيان النبوي وضع الألفاظ مواضعها المناسبة لها ، فالقذف في نار جهنم نتيجة حتمية لتلك الإجابة . . . كما أن الفعل (قذف) يصور المعنى بجرسه تصويراً دقيقاً . . . يوحى بذلك التربص ، فالإلقاء السريع . . . كما نلمح في قوله الكريم « هم من جلدتنا » إخبار عن هوية هؤلاء الدعاة ، فكنتي المصطفى ﷺ بهذه العبارة عن كونهم من العرب ، فهم ليسوا أجانبا عنا إنما هم من عشيرتنا وملتنا . لكنهم لا يحملون من صفات العرب إلا الظاهر منها فقط ، وفي الباطن مخالفون لهم ، ولهذا كان التعبير بقوله : « من جلدتنا » أدق في توضيح المعنى - فجلدة الشيء ظاهره^(١) - كما أن قوله الكريم : « يتكلمون بألسنتنا » إشارة إلى أنهم يتحدثون العربية ، وقيل معناه يتكلمون بلسان الشريعة مما قال الله عز وجل ورسوله محمد ﷺ وليس في قلوبهم شيء من الخير .^(٢)

وكما حرص حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - على معرفة مآتي الفتنة ومسالك الشرور حرص كذلك على كيفية تجنبها ، ولهذا سأل الرسول ﷺ النصيحة إن أدركته تلك الفتنة . فوجهه النبي ﷺ إلى لزوم الجماعة الإسلامية الذين اجتمعوا على طاعة إمامهم . . . ثم يستحضر الحوار الكريم موقفاً آخر ساهم في تطوير الحدث ، « فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ » سؤال عجيب من صحابي أفاء الله عز وجل عليه بصراً بالدنيا ، وبصيرة بالناس . . . فكأنه

(١) قال حذيفة - رضي الله عنه : « لا تقوم الساعة حتى يسود كل قبيلة منافقوها . » يراجع كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، أبو عمر يوسف القرطبي ، ١ / ٢٧٨ .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٢ / ١٣١ . . . ويؤكد تلك المعاني ما ورد في الرواية الأخرى ، قوله ﷺ : « يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدائي ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس . . . » ينظر ص ١٣٥ ، هامش رقم ١ ، من هذا البحث . . . وصف دقيق لهؤلاء الدعاة وما تنطوي عليه قلوبهم من الشر والضلال . فهم لا يحملون بين حناياهم إلا قلوب شياطين وإن حملتها أجساد بشرية . . . فالمشبهه قلوب هؤلاء الدعاة ، والمشبهه به قلوب الشياطين ، والجامع بينهما المكر والخديعة والضلال . . . ولقوة الاتحاد بين المشبه والمشبه به كان التعبير بصورة التشبيه البليغ أنسب وأدق لما في ذلك من إفادة التأكيد ، والغرض من هذه الصورة التشبيهية تقبيح المشبه ، حيث المشبه به قبيح قبحاً حقيقياً .

علم أنه سيأتي على الناس زمن لا يجتمعون فيه على جماعة ولا إمام (١)
وحيث ينصح المصطفى عليه الصلاة والسلام حين يفترق الناس أحزاباً ، ولم
يكن لهم إمام يجتمعون عليه ، فالأولى له اعتزال الجميع إن استطاع ذلك خشية
الوقوع في الشر وقد كنى النبي ﷺ عن لزوم جماعة المسلمين وطاعة
سلاطينهم ولو عصوا بالعض على أصل الشجرة كناية عن مكابدة المشقة ،
كقولهم : فلا يعض الحجارة من شدة الألم (٢) .

في هذا الحوار الكريم من دلائل النبوة ، ومظاهر الرسالة ما فيه فقد أشار إلى
أمور غيبية تقع للعرب في مستقبلهم ، وقد حدث ما أخبر به الصادق المصدوق
ﷺ ، حيث كثرت الفتن والنكبات على العرب والمسلمين ، واشتد عليهم
البلاء ، وحلت بهم الكوارث . وذلك كله ناتج عن تغيرهم وانحرافهم عن هدي
الإسلام الخفيف . واستبدلهم النظم والقوانين الغربية الوضعية بالنظام الإلهي .
. . . عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يُوشك أن
تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قلنا : يا رسول
الله أمن قلة بنا يومئذ ؟ قال أنتم يومئذ كثير ، ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ،
تتنزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن . قلنا : وما الوهن ؟
قال : حبُّ الحياة وكراهية الموت . (٣) »

لقد استطاع الحوار النبوي الكريم - كغيره من الأحاديث النبوية الشريفة - أن
يثير في نفوسنا ألواناً شتى من الانفعالات المختلفة إزاء مواقفه وأحداثه ، مما
جعلنا نتجاوب مع العرض القصصي فتلبس بشيء من الفزع والخوف ، مع
الترقب والمهابة مما سيقع . . . وهذا يعكس مدى الارتباط الوثيق بينه ﷺ وبيننا
كمتلقين لهذا الأسلوب الكريم . . . علاوة على أن كلا المتحاورين - أعني

(١) أوردت بعض كتب تاريخ الرجال عن حذيفة - رضي الله عنه - أنه قال : « لقد حدثني رسول
الله ﷺ ما كان وما يكون حتى تقوم الساعة » الإصابة في تمييز الصحابة ، ١ / ٣١٨ .

(٢) ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، ٣٦ / ١٣ .

(٣) رواه أحمد في المسند ، ٥ / ٢٧٨ .

الرسول ﷺ وحذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - يديران المسائل في الفكر والعقل بأسلوب حكيم « ينطلق من مقدمات يسلم بعضها إلى بعض ، وتوصل في سرعة وسلامة إلى النتيجة وتلك خصيصة في البيان النبوي الكريم تكسبه قوة الاستيلاء ، وشدة الهيمنة على قلوب السامعين»^(١) ، ولهذا لاحظنا أن حذيفة ابن اليمان - رضي الله عنه - كان يثير الفكرة ، والرسول ﷺ يؤكدها ويفصلها ، ولذلك كان السؤال بحرف الاستفهام (هل) دون غيره ، فهو الذي يتحمل عبء إثارة القضية وبلورتها^(٢) . . كذلك لو تأملنا ترتيب الأضداد في الجمل لوجدنا توازناً صوتياً يوجب المعنى ، وتقتضيه طبيعة الصورة . أعد قول حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه :

فهل بعد هذا الخير شرٌّ؟

وهل بعد ذلك الشر من خير؟

فهل بعد ذلك الخير من شرٌّ؟

ثم تأمل تجد النسق اللفظي يجري على النسق الطبيعي للأحداث ، فالمتقدم في الكلام أسبق في الوجود . كما تجد الدقة في اختيار لفظي الإشارة (هذا - ذلك) حيث هما مطابقان للبعد الزمني . . . كما أفاد حرف الجر الزائد (من) توكيداً لعموم ما بعدها ، لأن (خيراً وشرّاً) صيغتا عموم . . .

إن الحوار القصصي الكريم مع إيجازه وسرعته ، دالٌّ على الموقف ، ومعبر عن الغرض والغاية التي أنشئ من أجلها . . من أجل هذا جاءت جملة مؤدية للمعنى المراد من غير اضطراب أو حشو لا طائل تحته . . فسبحان من آتاه ﷺ جوامع الكلم .

* * *

(١) د / عز الدين علي السيد ، الحديث النبوي من الواجهة البلاغية ، ص ٢٤٥ .

(٢) من خصائص حرف الاستفهام (هل) السؤال عن مضمون الجملة كما قال البلاغيون . . .

يراجع كتاب (الإيضاح في علوم البلاغة) ، ٣ / ٥٧ - ٦١ .

الفصل الثاني

امثل القصصي

١ - وصايا الله للأمم في خمس كلمات للأنبياء .

٢ - رفع الأمانة .

وصايا الله عز وجل للأمر في خمس كلمات للأنبياء

١ - وصايا الله عز وجل للأمم في خمس كلمات للأنبياء

عن الحارث الأشعري^(١) أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ، وإنه كاد أن يُطىء بها . قال عيسى : إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها . فإما أن تأمرهم وإما أن أمرهم . فقال يحيى : أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب . فجمع الناس في بيت المقدس فامتلاً المسجد وقعدوا على الشرف ، فقال : إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن ، أولهن : أن تعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئاً ، وإن مثلاً من أشرك بالله كمثّل رجلاً اشتري عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق ، فقال : هذه داري وهذا عملي فاعمل وأد إلي ، فكان يعمل ، ويؤدي إلى غير سيده . فأياكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟^(٢) وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلقوا ، فإن الله ينصب^(٣) وجهه لوجه عبده في صلواته ما لم يلتفت^(٤) . وأمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثّل رجل في عصابة معه صرة

(١) ترجمة راوي الحديث :

الحارث بن الحارث الأشعري ، من أهل الشام ، صحابي جليل ، روى عن النبي ﷺ ، وروى عنه أبو سلام الأسود ، يكنى أبا مالك . انظر : تهذيب التهذيب ، ابن حجر العسقلاني ، ١٣٧/٢ ، دار الفكر العربي ، حيدرآباد ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٥ هـ . وكتاب «أسد الغابة في معرفة الصحابة» ، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير ، ١ / ٣٢٠ ، المكتبة الإسلامية .

(٢) زاد في مسند أحمد ، ٤ / ١٣٠ ، قوله ﷺ : « وإن الله عز وجل خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » .

(٣) يقال : نَصَبَ الشيءَ يَنْصِبُهُ وَيُنْصِبُهُ (بضم الصاد وكسرها في المضارع على باب فَعَلَ يَفْعَلُ ويفعل) ، وقد ورد في المعجم الكبير قوله : يَنْصِبُ ، ٣ / ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، أبو القاسم سليمان الطبراني ، تحقيق : حمدي السلفي ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م . أو يقال : نَصَبَ الشيءَ يَنْصِبُهُ (بفتح الصاد في المضارع على باب فَعَلَ يَفْعَلُ) ، « والنصب : إقامة الشيء ورفع ، انظر لسان العرب ، مادة (نصب) ..

(٤) في المستدرک علی الصحیحین فی الحدیث ، ١ / ٤٢١ قوله ﷺ : « وإذا قمتم إلى الصلاة =

فيها مسكٌ فكلُّهُم يُعْجَبُ - أو يُعْجِبُهُ رِيحُهَا ، وإنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ . وَأَمْرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أُسِرَهُ الْعَدُوُّ فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ ، وَقَدَمُوهُ لِيَضْرَبُوا عُنُقَهُ ، فَقَالَ : أَنَا أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ فَقَدَا نَفْسَهُ مِنْهُمْ ، وَأَمْرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حَصْنٍ حَصِينَ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ . كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرَزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ . (١) قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : وَأَنَا أَمْرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمْرَنِي بِهِنَّ : السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ ، وَالْجِهَادَ ، وَالْهَجْرَةَ وَالْجَمَاعَةَ ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ ، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يُرَاجَعَ . وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّهُ مِنْ جُنَى جَهَنَّمَ ، فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ ؟ فَقَالَ : وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ . فَادْعُوا بِدَعْوَى اللَّهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ . (٢) « وَاللَّفْظُ لِلتَّرْمِذِيِّ ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ ..

تحليل الأسلوب النبوي الكريم :

التربية بالقصة إحدى الوسائل التي ساهمت في تكوين المجتمع المسلم تكويناً إسلامياً يؤهله لحمل رسالة الإسلام ، والسير على منهجها القويم
والتعليم أحد الطرق التي سلكتها القصة النبوية لتحقيق المطلب التربوي للوصول إلى هدف أكبر وغاية أبعد ، هي بسط حقائق الدين وشرح تعاليمه ومبادئه وتوضيحها في عقول المسلمين وتمكينها من نفوسهم ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى تتيح القصة إمكانية تجسيد القضايا والمفاهيم التجريدية الذهنية التي تظهر للسامع والقارئ في صورة حسية من خلال التصوير القصصي للحدث . والمثل القصصي يؤدي وظيفة مهمة في أنه يعمق تلك المفاهيم ، ويؤكد لها في النفوس .

= فلا تلتفتوا فإن الله يقبل بوجهه إلى وجه عبده ما لم يلتفت ، أبو عبد الله محمد المعروف بالحاكم النيسابوري .

(١) في «مسند أحمد» ، ٤ / ١٣٠ قوله : « وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل . »

(٢) رواه الترمذي ، ٤ / ٢٢٥ - ٢٢٦ ، ومسند أحمد بن حنبل ، ٤ / ١٣٠ .

إن طرق التعليم في القصة النبوية متعددة ومتنوعة ، منها - كما ورد في هذا المثل القصصي الكريم - التعليم بالتوجيه التقريري على لسان شخصية من شخصيات القصة وهو يحيى بن زكريا عليهما السلام ، بل إن التقرير برز من خلال المقدمة التمهيدية التي جرى فيها الحوار التقريري ، « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكْرِيَا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا ، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا . قَالَ عَيْسَى : إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا . فَأَمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ وَإِمَّا أَنْ أَمُرَهُمْ . فَقَالَ يَحْيَى : أَخْشَى أَنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخَسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ . »

مقدمة وجيزة تمهد للمثل القصصي ، وتتضمن مجموعة عناصر هي :

١ - الأمر بالتبليغ ، فالرسل سفراء الله إلى عباده ، وحملة وحيه ، ومهمتهم الأولى هي إبلاغ هذه الأمانة التي تحملوها إلى عبادة الله ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (١) . ثم إن هذا الأمر يتضمن العدد ، فإذا هي خمس كلمات « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكْرِيَا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ » فالجملة التقريرية تثير في نفوس المستمعين التشوق إلى معرفة ما تضمنه المعدود على التفصيل بعد ذكر العدد إجمالاً . هذه نكته ، والنكته الأخرى أن هذا التعبير يفيد الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال .

٢ - التحديد التاريخي لزمان القصة ، بكونها حدثت في بني إسرائيل ، وهم قوم كثيرأما تنقل عنهم الأحداث العجيبة . . كما عُرف عنهم العناد والإعراض عن كل ما لا يوافق أهواءهم .

٣ - انطوت المقدمة التمهيدية على جانب من شخصية يحيى بن زكريا ، يظهر ذلك في القول الكريم « كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا » أي بتبليغ أمر الله بهذه الخمس فقد أتاه الله عزّ وجلّ الرحمة والحنان والشفقة على بني إسرائيل من سوء العاقبة حال عصيانهم ، وذلك لمعرفته بما انطوت عليه نفوسهم من الإعراض والجدال ، قال تعالى : ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ (٢) .

(١) المائدة : ٦٧ .

(٢) مريم : ١٢ - ١٣ .

ولكن الإبلاغ يحتاج إلى الشجاعة خاصة حين يقوم المبلِّغ بإبلاغ الناس ما يخالف معتقداتهم ، من هنا كانت الشجاعة في هذا البلاغ ميدان تنافس بين النبيين ، يحيى ، وعيسى عليهما السلام . وفي القول الكريم : « أَخْشَىٰ إِن سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخَسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ . » الخسف : انقلاب بعض ظاهر الأرض إلى باطنها . . . (والباء) للمصاحبة ، أي أن يخسف الله الأرض مصاحبة له ، فهو مخسوف مع الأرض التي هو فيها . . . وبناء الفعل للمجهول للعلم بالفاعل ، إذ لا يكون ذلك إلا من الله عز وجل . . . والصورة الحركية في الفعل (يُخَسَفُ بِي) أدت معنى الخوف الذي يَشْعُرُ به يحيى بن زكريا - عليهما السلام - حيث جسَّدَ هذا الخوف بهذه الصورة ، أعني خسوفه مع الأرض . . . وهذا الخوف دفعه إلى جمع الناس حتى أصبح المسجد ممتلئاً بهم ، فالقوم قد فاض بهم المكان وأطبقوا على كل موضع فيه حتى - كما صور الأسلوب النبويّ الكريم - (قعدوا على الشرف^(١)) . . . وهذه الصورة تأتي في مقابلة الخوف الكائن في الصورة الحركية السابقة . . .

ثم تبدأ أحداث القصة الكريمة ، بأن يبلغ يحيى بن زكريا عليهما السلام أوامر الله بالحكمة والموعظة الحسنة . . . وإذا تأملنا العبارة الكريمة : « إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَأَمُرُكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ . . . أَوْلَهُنَّ : » وجدنا التعبير عن غير العاقل بضمير العقلاء يدل على أن لهذه الكلمات الخمس الأثر السلوكي العظيم في العقلاء ؛ إذ هي حقائق تهدي نفوس البشر إلى ما فيه صلاحها ، يفصح عن ذلك الأثر الحسن لدى أفعال العقلاء الذين يطبقونها . . . وأصل هذه الكلمات الخمس وأعظمها ، هي :

الكلمة الأولى : عبادة الله وحده لا شريك له :

الرسالات التي جاء بها الأنبياء جميعاً منزلة من لدن حكيم عليم ، لذلك فإنها تمثل صراطاً واحداً يسلكه السابق واللاحق . ولبُّ دعوات الرسل ،

(١) الشرف (بفتح الفاء والعين) : كل نَشَزَ من الأرض سواء كان رملاً أو جبلاً . . . قال الجوهري : الشرف : العلوُّ ، والمكان العالِي . انظر لسان العرب ، مادة (شرف) . .

وجوهر الرسالات السماوية التوحيد . . فهو أساس الدين ، فما منهم أحد إلا افتتح دعوته لقومه بقوله : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ . ﴾ (١)

انطلق الأنبياء والرسول في دعوتهم من منطلق واحد ، فهم يدعون الناس إلى عبادة الله ، فهو ربهم وإلههم . . . ويبينون لهم كيف تكون العبادة الحقّة ، ولأنهم رسل الله فهم مبعوثون من عنده ، ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (٢) ، ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٣) .

والإسلام هو الدين الأوحى لدعوة الرسل جميعاً ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (٤) ، وهو شعارٌ عام هتف به جميع الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور إلى عصر النبوة المحمدية . . . وليس الإسلام اسماً لدين خاص ، إنما مفهومه يدور حول الطاعة وإخلاص القصد والإرادة له سبحانه في أداء سائر العبادات ، والانقياد والاستسلام لله تعالى وحده ، فله الربوبية المطلقة على الأشياء كلها خلقاً وملكاً وتديراً لا شركة لأحد معه ، لا في خلق شيء ولا في تديير أمر . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٥) . لهذه المعاني كانت أول الكلمات الخمس التي بلغها يحيى بن زكريا بنو إسرائيل ، أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً . الأمر بعبادة الله وحده هو القاعدة الأساسية التي تنطلق منها جميع العبادات ، وإذا تحقق ذلك منهم كان النهي عن الشرك متحقق تبعاً .

(١) الأعراف : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ . .

(٢) النحل : ٣٦ . .

(٣) الأنبياء : ٢٥ . .

(٤) آل عمران : ١٩ . .

(٥) الأعراف : ٥٤ . .

. . ومجموع الحملتين في قوة صيغة حصر ، إذ مفاد العبارة : اعبدوا الله ولا تعبدوا غيره ، فهما على معنى إثبات ونفي لكنهما ليسا مثل القول - على صيغة القصر - لا تعبدوا إلا الله ، إذ الغرض الأول هنا هو الإثبات ، ثم يُقصد بعد ذلك نفي الحكم عمّا عدا المثبت له ، ولكن مع أسلوب القصر يكون المقصد الأول هو نفي الحكم عمّا عدا المذكور ثم إثباته للمذكور ، وهذا ما لا يقتضيه المقام ، إذ المقصود تحقيق العبادة وتحصيلها ثم التأكيد النصّي على عدم تجاوز ذلك مهما خلصت النوايا سداً للذرائع المدّعاة في ذلك من مثل ما حكى الله في عبادة الأصنام عن قول المشركين : ﴿ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (١) .

ولما كان أسلوب التصوير عن طريق التشبيه التمثيلي من الأساليب التي تمسُّ الاحساس النفسي الإنساني ، كان ضربُ المثل في مثل ما نحن فيه من مقام ، ومن هنا كان القول الكريم : « إن من أشرك بالله كمثّل رجل اشترى عبداً من خالص ماله . . . إلخ » الله عزّ وجلّ خلق الإنسان ، وأوجده من العدم ، ورزقه ، ووهبه من الطاقات المكنونة ، كي ينهض بمقام الخلافة في الأرض ، وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيق هذه الخلافة ، ومن ثم تكون العبودية لله وسيلة من وسائل شكره سبحانه ، لكن الإنسان يتناسى ذلك وينصرف عنه إلى آلهة أخرى . . . فشبّه المصطفى عليه الصلاة والسلام حال من أشرك بالله مع معرفته بحق الله عزّ وجلّ عليه بحال رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق ، وأعلمه بحقوقه وواجباته ، لكنه يعمل ويؤدي إلى غير سيده . . . ووجه الشبه : الانحراف عن الطريق السويّ في كلّ . .

وإذا أنعمنا النظر في عناصر المثل وجدنا الألفاظ دقيقة في التعبير عن معناها ، ففي قوله في جانب المشبه به : « اشترى عبداً » دون غيرها من الكلمات نحو (فتى أو شخصاً أو غير ذلك) بيانٌ لأن المراد تحقيق مدلول العبودية بالامتثال

والخضوع والتذلل ، وكأن هذه العبارة تشير إلى أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى ، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله ، وعلت درجته . . . واختيار مادة الشراء ، وتعيين خالص المال بأنه من ذهب أو فضة - وقد كان الكلام الكريم يستقيم لو اكتفى بقوله : (من خالص ماله) حيث الدلالة على المال المختار المخلص من الدنس والذي لا تشوبه شائبة - يشير إلى أن القصد هو الجمع بين الأمرين : بيان أن هذا المال الخالص ملكٌ له ، ثم بيان أنه من أنفس المال ، ففي الإضافة إلى الضمير ما يفيد ملكيته لهذا المال واختصاصه به .

وفي تنكير (ذهب أو ورق) ما يدل على الكثرة ، فالسيد يملك أموالاً طائلة ، يدفع - لا يبالي - من ذهبه أو فضته مقداراً كثيراً ثمناً لشراء العبد . « والباء » في قوله « بذهب » للاستعانة ، حيث يستعين هذا السيد بنفيس ماله ، وهو الذهب أو الفضة على إمتاع نفسه بعزّ طاعة العبد له . على أن مسارعة صاحب الدار والعمل في إيضاح حقوقه وواجباته على عبده المشار إليها في القول الكريم : (هذه داري وهذا عملي ، فاعمل وأدّ إلي) وفي جعل ذلك بطريق الإضافة إلى ياء المتكلم ما يفيد معنى الاختصاص ، فالدار والعمل ملكٌ للسيد ، ويترتب على ذلك الأمر بالعمل والأداء له خالصاً دون غيره ، حتى يتحقق معنى الاختصاص فيه أيضاً . لكن العبد مع ذلك كله يعمل بعيداً عن توجيهات سيده ؛ إنه يعمل ويؤدي لغيره .

وفي التعبير بصيغة المضارع في القول الكريم (فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده) ما يدل على الاستمرار والتجدد ، وأن ذلك دأبه وعادته .

من هنا كانت خاتمة المثل هذا الاستفهام الذي يدلّ على أن هذا الصنيع مذموم لدى الناس جميعاً : (أيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟) استفهام إنكاري في معنى النفي ، والمعنى : ما من أحد يرضى من عبده ذلك . . . فلم يكونون مع الله على مثال ما يكرهون لأنفسهم من عبيدهم وهم عبيده ؟ !

واسم الإشارة (ذلك) - في نهاية الاستفهام الإنكاري - يلخص ويطوي ما مضى من أحوال المشبه به ، كما أنه يشير إلى أن تعامل العبد مع سيده بتلك

الصورة من الأمور البعيدة عن التصديق العقلي ، فضلاً عن منافاتها للخلق الكريم ، والفطرة السليمة . (١)

وقضية الإشراف بالله عرضها القرآن الكريم في مثل هذا المعرض التمثيلي أيضاً ، حيث قال الله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٢) .

فهذا مثل ضربه الله عز وجل لمن عبده وحده فسلم له ، ولمن عبد من دونه آلهة فصار حائراً متخبطاً . . . كان ضرب هذا المثل في الآية القرآنية الكريمة تمثيلاً لحال المشرك في تقسم عقله بين آلهة كثيرة متعاندة ، فهو في حيرة وشك من رضى بعضهم عنه ، وغضب بعضهم عليه ، إن مثله في هذه الحال مثل حال مملوك اشترك فيه ما لكون شتى ، وليس ذلك فحسب ، بل هم مختلفون متشاكسون ، يتجادبون في مهن شتى ، فهو متحير في أمره ، قد تشعبت الهموم بقلبه ، وتوزعت بعقله الأفكار . . . لا يدري أيهم يرضى بخدمته ، وعلى أيهم يعتمد في حاجته . . . ويقابل هذا التمثيل تمثيل حال المسلم الموحد الذي يقوم بما كلفه ربه ، مؤملاً رضاه وجزاءه ، بحال العبد المملوك الخالص للملك واحد ،

(١) في نهاية المثل - في الرواية الأخرى المذكورة في ص ١٤٨ ، هامش رقم ٢ ، من هذا البحث - يؤكد البيان النبوي حقيقة العبد وبدايته بقوله : « وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً » ففي تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي ما يفيد توكيد المعنى ، فضلاً عن « إن » الداخلة على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام . . . وتخصيص (الخلق والرزق) دون غيرهما بالذكر ؛ لأنهما دليلان من دلائل انفراد الله عز وجل بالتصرف في الناس ، وإبطال زعمهم من الإشراف في الألوهية . .

وفي نصب ضمير المخاطبين تنبيه إلى النظر في أنفسهم ، وإلى رزقهم ؛ ليكون الإقرار أشد من ذات أنفسهم على أن تكون عبوديتهم خالصة لله عز وجل . . . ولذلك فرع على التذكير بنعمتي الخلق والرزق الأمر بعبادة الله وحده دون شريك له . . . وتفريع الأمر بعبادته مع ذلك ظاهر المناسبة ؛ ليحصل منه التخلص إلى التنويه بالتوحيد . .

وفي الأمر الكريم : ﴿ فاعبدوه ﴾ تحملت « الفاء » التعبير عن معنى المسارعة إلى عبادة الله بعد التذكير بنعمتي الخلق والرزق . .

قد عرف حق مولاه ، وعلم ما أوجبه عليه ، فهمه واحداً وقلبه مجتمع . . .
فهل يتساوى في العقول هذان العبدان ؟ كلا ، لا يتساويان . . .

وفي قوله عز وجل : ﴿ الحمد لله ﴾ تقرير لما قبله من نفي الاستواء بينهما
على ما تقره العقول السليمة وتنبه للموحدين على أن ما لهم من المزية والفضل
إنما هو لتوفيق من الله تعالى ، ونعمة جليلة تقتضي الدوام على حمده تعالى . .

وفي قوله عز وجل : ﴿ لا يعلمون ﴾ أفاد أن الإشراك بالله ، وتكذيب
دعوة الحق ، لا يمت إلى العلم بصله ، بل هو جهالة واختلاق وافتراء . . .
وأسند عدم العلم لأكثرهم ؛ لأن أكثرهم عامة ، أو يجب أن يلحقوا بالعامة ،
اتباع لزعمائهم الذين ستوا لهم الإشراك ، وشرائعه ، انتفاعاً بالجاه والثناء
الكاذب ، بحيث غشى ذلك على عملهم . (١)

الكلمة الثانية : إقام الصلاة :

إذا كان الدين الذي جاءت به الرسل واحداً وهو الإسلام ، فإن شرائع
الأنبياء مختلفة ، وإن اتفقت في المسائل الأساسية مثل : عقائد الإيمان بالملائكة
والكتب والرسل واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وبالبعث والنشور ، ومثل :
عبادات الصلاة والصيام والزكاة والحج . لكن الاختلاف يقع في التفاصيل ،
نحو أعداد الصلاة ، وشروطها ، وكيفية إقامتها . . . وأوقات الصيام ،
ومقادير الزكاة ، ونحو ذلك . وقد يحلُّ الله أمراً في شريعة لحكمة ، ويحرمه في
شريعة أخرى لحكمة .

وعلى لسان يحيى بن زكريا - عليهما السلام - كان الأمر بالصلاة تعظيماً
للخالق وعبودية له . فحواس الإنسان الظاهرة والباطنة ، وسائر أجزاء البدن كلُّ
يأخذ حظه من الحكمة في هذه العبادة . . . عن معاذ - رضي الله عنه - عن
النبي ﷺ ، أنه قال : « . . . رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة
سنامه الجهاد . . . » (٢) « فجعل الصلاة كعمود الفسطاط الذي لا يقوم الفسطاط
ولا يثبت إلا به ، ولو سقط العمود لسقط الفسطاط . .

(١) انظر تفسير الكشاف ، الزمخشري ، ١٦١ / ٥ ، وانظر كتاب « روح المعاني » ، شهاب الدين
محمود الألويسي ، ٢٣ / ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٢) الترمذي ، ١٢٥ / ٤ .

وفي البيان النبوي الكريم - الذي معنا - لم ينظر إلى كیفيتها ، وعدد ركعاتها ، بل ورد الأمر بها ، وكان عدم الالتفات - حال إقامتها - شرطاً لها « فإذا صليتم فلا تلتفتوا » .

وفي التعبير بالجملة الشرطية ، وبالآداة « إذا » الجازمة دون « إن » التي تفيد الشك ، ما يفيد تحقق وقوع الشرط ، ولذلك كان النهي عن الالتفات داخل في حيز الشرط ، فهي مقيدة به ، ومرتبة عليه .

والسبب في عدم الالتفات في الصلاة ، أن الله سبحانه وتعالى وتقدس ينصب وجهه^(١) الكريم لوجه عبده في صلاته . ويريد النبي ﷺ بذلك اشتغال قلب المصلي وجوارحه - بما فيها وجهه - بالله عز وجل .

وفي اختيار الوجه دون غيره من سائر الأعضاء في القول الكريم (وجه عبده) - مع أن لكل عضو عمله الذي أُنيط به - ما يشير إلى أنه أشرفها وأكملها ، ولا يتحقق كماله إلا بالتذلل والخضوع لرب العزة والجلال ، وفي ذلك الترغيب بإدمان الخشوع في الصلاة ، والحض عليها . . . وفي عود الضمير إلى الله عز وجل ، وإضافته إلى كلمة (العبد) ما يدل على علو منزلته تشریفاً له حيث ارتقى إلى درجة الاتصال بالله عز وجل عن طريق الصلاة .

الكلمة الثالثة : فضل الصيام :

يؤدي الصيام مهمة دينية كبرى تتصل بالسلوك والتعامل ، وقد عبر

(١) ليس المراد بالوجه - في جانب الله - ما يفيد الجارحة الجسدية المعروفة لدى البشر ، إذ لا يليق هذا بالله عز وجل ، وطريق السلف في هذا وتأويله أن نعتقد استحالة ما يوهم النقص على الله عز وجل ، فالإيمان بصفات الله تعالى المنزهة عن التشبيه أمر واجب ، والامتناع عن الخوض فيها أيضاً أمر واجب . « قال ابن بطلال - في تفسير قوله تعالى : ﴿ كلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ ، وقول النبي ﷺ : « أعوذ بوجهك » - في هذه الآية والحديث دلالة على أن لله وجهاً وهو من صفة ذاته ، وليس بجارحة ولا كالوجه التي نشاهدها من المخلوقين ، كما نقول : إنه عالم ، ولا نقول : إنه كالعلماء الذين نشاهدهم . » انظر فتح الباري ، ١٣ / ٣٨٨ - ٣٨٩ . وكتاب رسائل في العقيدة ، محمد بن صالح بن عثيمين ، ص ٨١ ، دار طيبة ، الرياض ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

القرآن الكريم عن ثمرته بالتقوى في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتبَ عَلَيْكُمْ الصيامُ كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ (١) ، وشأن الصيام كبير عند الله عز وجل حتى إن رائحة فم الصائم الكريهة أطيب عند الله من ريح المسك . وقد ضرب ذلك مثلاً لشدة خلوف الصائم ، وقدره عند الله عز وجل ولذلك ورد القول الكريم عن النبي ﷺ : قال الله عز وجل : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به . والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » (٢) ، وفي البيان النبوي الذي معنا ضرب ذلك المثل بصورة رجل في جماعة ، معه صرة جمع فيها أطيب الطيب ، وهو «المسك» وجميعهم يجد رائحتها ويعجب بها .

إن صورة المثل - الذي معنا - قائمة على التشبيه التمثيلي . . . فالرجل اتخذ مسكاً قد أخفاه في صرة ، ومع ذلك رائحة الصرة فاحت وظهرت للجميع ، كذلك الصيام فعله مستور ، ولا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه وتعالى . لكن له مزية على سائر العبادات ، هي الرائحة الفواحة من فم الصائم ، إنه نية في القلب ، يخضع بها العبد لهيبة الله تعالى ، فيكف النفس عن شهواتها ، ويضيق مجاري الشيطان في غرائزها ، حتى تصير قريبة من الله ، محبة له وإيثاراً لمرضاته وتقرباً إليه ، هذا الصيام الذي يقع بين الإنسان وبين الله خالصاً من غير رياء ، يظهره الله ، بأن ينشره على الصائم ريحاً يصدر عن فمه هي أطيب عند الله من ريح المسك . . .

واختلف شراح الحديث في كون الخلوف أطيب عند الله من ريح المسك ، مع أنه سبحانه منزّه عن استطابة الروائح ، إذ إنها من صفات المخلوق ، على آراء شتى ، من هذه الآراء ما يلي : (٣)

١ - قال المازري : هو مجاز لأنه جرت العادة بتقريب الروائح الطيبة منا ، فاستعير ذلك للصوم ، لتقريبه من الله ، فالمعنى أنه أطيب عند الله من ريح

(١) البقرة : ١٨٣ .

(٢) رواه البخاري ، ٦١ / ٧ .

(٣) فتح الباري ، ٤ / ١٠٥ - ١٠٦ .

المسك عندكم ، أي يقرب إليه أكثر من تقريب المسك إليكم . . . وإلى ذلك أشار الزمخشري . (١)

٢ - وقيل المراد إن ذلك في حق الملائكة ، وأنهم يستطيعون ريح الخلوف أكثر مما يستطيعون ريح المسك .

٣ - وقيل المراد إن الله تعالى عندما يجزيه في الآخرة تكون نكهته أطيب من ريح المسك ، كما يأتي المكلوم في سبيل الله ريح جرحه تفوح مسكاً .

٤ - وقال الداودي وجماعة : المعنى أن الخلوف أكثر ثواباً من المسك المندوب إليه في الجمع ومجالس الذكر ، ورجحه النووي . وحاصله حمل معنى الطيب على القبول والرضا .

٥ - وقال الخطابي والبغوي : طيبه عند الله رضاه وثناؤه عليه . والمعنى في ذلك الثناء على الصائم والرضا بفعله ؛ لئلا يمنعه ذلك من المواظبة على الصوم .

من الخصائص الأسلوبية في هذا المثل القصصي الدقة التامة في انتقاء الألفاظ وحسن اختيارها . . . فالصرة مستور ما بداخلها ، وإن عُرِف ما فيها بانتشار رائحتها الزكية ، كذلك الصوم فعلٌ مكتوم بين العبد وربّه ، يتحقق فيه معنى الإخلاص على أكمل صورته ، يشهره الله برائحة فم الصائم الكريهة ، لكنها عند الله أطيب من المسك . . . بل إن الخلوف أعظم من دم الشهادة ؛ لأن دم الشهيد شبه ريحه بريح المسك ، والخلوف وصف بأنه أطيب من المسك . ولا يلزم من ذلك أن يكون الصيام أفضل من الشهادة . . . ولعل سبب ذلك « النظر إلى أصل كل منهما ، فإن أصل الخلوف طاهر ، وأصل الدّم بخلاف ذلك ، فكان ما أصله طاهراً أطيب ريحاً » (٢) .

وفي القول الكريم (كلّهم) يفيد إثبات إعجابهم مجتمعين بالرائحة

(١) أساس البلاغة ، ص ١٧٣ ، دار الفكر ، بيروت .

(٢) فتح الباري ، ٤ / ١٠٦ .

المنبعثة من الصرة وجملة (إنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطِيبٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ)
توكيد للمعنى عن طريق الجملة الاسمية ، و (إنَّ) الداخلة عليها .

الكلمة الرابعة : ثواب الصدقة :

إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ لِلْعَبْدِ بَدَنَهُ ، وَسَخَّرَ الْمَالَ لَهُ ، لِيَنْفَعَهُ وَلِيَعِينَهُ فِي
مَعَاشِهِ وَالْعَبْدُ مَدْرُكٌ لِذَلِكَ لَكِنْ لَمَّا أَوْجَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي النَّفْسِ
شَهَوَاتِهَا مِنَ الْحِرْصِ وَالطَّمَعِ وَالْجَشَعِ وَالشَّحِّ صَارَ الْبَدَنُ خَادِمًا لِلْمَالِ ، يَسْعَى
الْعَبْدُ فِي جَمْعِهِ وَاخْتِرَانِهِ ، وَقَدْ يَقْطَعُ مِنْهُ حَقَّ الْفَقِيرِ وَالْمَسْكِينِ فَيَقْعُ فِي
الْمُخَالَفَةِ ، وَأَسْرِ الْمَطَالِبَةِ ، وَلَا يُحِلُّهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بَذْلُ هَذَا الْحَقِّ وَإِعْطَاؤُهُ ، وَمَنْ
هَذَا جَاءَ الْمَثَلُ النَّبَوِيُّ الْكَرِيمُ بِتَصْوِيرِ هَذِهِ الْحَالِ بِرَجُلٍ وَقَعَ فِي أَسْرِ الْعَدُوِّ ، بَعْدَ أَنْ
أَحَاطَتْ بِهِ سَهَامُهُمْ ، وَتَنَاوَشَتْهُ نِبَالُهُمْ وَلَقَدْ شَدُّوا يَدَيْهِ وَوَضَعُوا فِيهِمَا
الْأَغْلَالَ ، وَرَبَطُوهَا إِلَى عُنُقِهِ ، فَأَصْبَحَ مَقِيدًا مَغْلُولًا لَا حَرَكَ لَه ، فَلَا يَسْتَطِيعُ
أَنْ يَدْفَعَ عَنِ نَفْسِهِ ، أَوْ يَذْبَ عَنِ حَوْضِهِ ، لَكِنْ هَا هُوَ حَيْثُ رَأَى أَنْ لَا خِلَاصَ
وَلَا نَجَاةَ ، يَقْدِمُ لَهُمُ الْفِدَاءَ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُ قَلِيلَهُ وَكَثِيرَهُ ، فَإِذَا بِهِمْ يَتْرَكُونَهُ فِي فَوْزٍ
بِالنَّجَاةِ بِنَفْسِهِ لَقَدْ شَبَّهَ الْبَيَّانُ الْكَرِيمُ حَالَ مَنْ يَتَصَدَّقُ بِمَالِهِ - لَا يَرِيدُ بِذَلِكَ
إِلَّا وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى - فَيَعُودُ عَلَيْهِ بِالْأَجْرِ وَالثَّوَابِ ، بِحَالِ رَجُلٍ وَقَعَ فِي أَسْرِ
الْعَدُوِّ ، ثُمَّ فَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِمَالِهِ كُلِّهِ ، وَتَخَلَّصَ مِنْ قَيْدِ الْأَسْرِ . وَوَجْهَ الشَّبْهِ :
بِذْلِ الْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ لِلنَّجَاةِ مِنْ خَطَرٍ مُحْدَقٍ .

إنَّ الْمَالَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ نِعْمَةٌ كَبِيرَةٌ ، فَصَاحِبُهُ قَدْ اسْتَفَادَ مِنْهُ كَثِيرًا ، فَلَمْ
تَبْطُرْهُ النِّعْمَةُ ، بَلْ وَضَعَهَا فِي مَوْضِعِهَا الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهِيَ هِيَ -
فِي جَانِبِ الْمَشْبِهِ بِهِ - يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْ أَسْرِ عَدُوِّهِ ، فَعَادَ عَلَيْهِ بِالْخَيْرِ . وَلِلْآخِرَةِ
أَعْظَمُ دَرَجَاتٍ وَأَحْسَنُ حَالًا وَمَالًا إِنْ الْحَسَنَةُ تَضَاعَفَ أَوْضَاعًا مَضَاعِفَةً ،
حَتَّى إِنْ التَّمْرَةَ لَتَقَعُ فِي يَمِينِ الرَّحْمَنِ ، فَيُظَلُّ يَنْمِيهَا لِصَاحِبِهَا الَّذِي اكْتَسَبَهَا مِنْ
حِلَالٍ ، وَتَصَدَّقُ بِهَا ، فَتَصْبِحَ كَالْجَبَلِ . (١)

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلٍ تَمْرَةً مِنْ كَسْبٍ
طَيِّبٍ وَلَا يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا الطَّيِّبُ فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَرْبِيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يَرْبِي أَحَدَكُمْ
فَلَوْهٌ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ » رواه البخاري ، ١٧٨ / ٨ .

لم يكتف المثل النبوي الكريم بتصوير المنظر الخارجي ، بل إنه يغوص إلى الأعماق البعيدة فيبرزها شاخصة . . . فالشح مرض نفسي لا يمكن إدراكه بالحواس ، لكننا نراه شاخصاً مجسماً متمثلاً بقيد شدّ به اليدين إلى العنق ، وهو تمثيل مبني على تخيل اليد مصدراً للبدل والعطاء ، فسلطة الأفعال لا تكون إلا بها . . . وتخيل المال المخزون عدواً لصاحبه . أسراً له . . . وهذا من خصائص البلاغة النبوية ، وسمة من أبرز سماتها الفنية ، وهي الدقة المتناهية في اختيار الكلمات المناسبة للتعبير عن المعنى المقصود أصدق تعبير وأكمله . . . ولذلك جاء الوصف مبنياً على التصرف في ذلك المعنى ، بتمثيل الذي يُشحُّ ماله بمن غلَّتْ يده إلى عنقه ، وإذا غلَّتْ اليد إلى العنق تعذّر التصرف بها ، وتعطل الانتفاع بها .

وفي القول الكريم : « وقدموه ليضربوا عنقه » خص العنق بالضرب ؛ لأن في ضربه إتلاف للجسد . . . ولكنه فدى نفسه منهم ، وكذلك الصدقة سببٌ للعتق من النار ، والنجاة من العذاب ، والفوز يوم القيامة ، وهي حصن من سوء ، وقلعة منيعة من الشرور .

وفي قوله الكريم : (أنا أفديه منكم بالقليل والكثير) قدّم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة معنى الاختصاص ، وتوكيد المعنى ، ففعل الفداء خاص بالمسند إليه - أنا - لا يتعداه إلى غيره ، فلا شخص آخر قادرٌ على أن يخلص عنق هذا الرجل من براثن العدو . . . وفي فدائه بالقليل قبل الكثير إشارة إلى أن عطاء القليل فيه الخير الكثير ، فلا يتحرج المتصدق من قلة العطاء ، حتى ولو بشق ثمرة . . . كما أن البدء بالقلة قبل الكثرة ساهم في تصعيد المعنى ؛ لكي يصل بشعور المخاطب إلى قمة العطاء وكماله ببذل المال كله ، وحيثذ يقهر نفسه المجبولة على الشح ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾^(١) ، وذلك هو المثل الأعلى في الجود الإسلامي الذي طبقه خليفة رسول الله الأول الصديق أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه .

الكلمة الخامسة : ذكر الله عز وجل :

ذكر الله الكامل هو ما يجتمع فيه ذكر اللسان والقلب بالتفكير والتدبر ، واستحضار عظمة الخالق عز وجل . . . وهو شرف للإنسان وعصمة له من الشيطان . . . ولقد ضرب البيان النبوي الكريم المثل لمن نسي ذكر الله عز وجل فاستحوذت عليه الشياطين ، بصورة رجل أعزل خرج عليه عدو بعدد كثير وانطلقوا في أثره سراعاً . . . فأيقن بالموت المحقق . . . لولا أنه أتى على حصن حصين ، فدخله ، فأحرز نفسه منهم . . . كذلك العبد مع الشيطان ، إنه مسرع في أثره وهو قويٌّ ماكر مسلح بأسلحة فتاكة من الشهوات ، والأهواء ، والمنافع . . . والإنسان بمفرده مهما كانت إمكاناته أعجز من أن يواجه هذا الشيطان الرجيم . . . ولا يستطيع أن يحرز نفسه منه إلا بذكر الله عز وجل . ووجه الشبه بين الصورتين : « الانصراف إلى الخير مدعاة للنجاة من المهالك ».

وفي التعبير في جانب المشبه به بالحال في قوله الكريم : « خرج العدو في أثره سراعاً » إشارة إلى أنه متربص له ، ولاحق به . . . وهذا الأمر منظور إليه في جانب المشبه من خلال وصايا القرآن الكريم ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١) .

وإذا تأملنا الخبر الكريم : « كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله » وجدنا التعبير بأسلوب القصر يفيد توكيد المعنى . وكانت طريقته النفي والاستثناء دون غيرها ؛ لأن المخاطب قد يجهل الخبر أو يقابله بالإنكار - مع أنه من المعاني المسلم بها ، لما في ذلك لفت نظر المخاطب إلى حقائق قد يغفل عنها أو يجهلها (٢) . . . وأسلوب القصر من قبيل قصر الصفة على الموصوف قصرًا حقيقيًا . (٣)

(١) فاطر : ٦ .

(٢) انظر كتاب (بلاغة القصر ، دراسة نقدية تحليلية) ، د / عبد العزيز أبو سريع يس ، ص ٥٦ ، ص ٢٦٤ ، مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

(٣) ورد في الرواية الأخرى ، قوله ﷺ : « إن العبد أحسن ما يكون من الشيطان إذا كان في =

والسرّ في كون الكلمتين : الأولى والخامسة (العبودية لله ، وفضل ذكر الله) وردتا على لسان يحيى بن زكريا ، قبل التمثيل لهما وبعده ، وبصورة تقريرية هو التأكيد على هاتين الحقيقتين ؛ حتى لا يتسرب إلى الأذهان خلاف ما ذكر . . . فتوحيد الله وعبادته أساس العبادات والطاعات ، وذكر الله ثمرة العبادات العملية ، فما من مؤمن حال صلاته أو في صيامه أو تصدقه أو جهاده إلا ولسانه رطب بذكر الله ، وقلبه متفكر في أدلة ذاته عز وجلّ وصفاته ، وجوارحه مستغرقة في الطاعات . هذا ، فضلاً عن أن الأمر في بقية الكلمات (الصلاة ، والصيام ، والصدقة) يدل على وجوب مصاحبة هذه العبادات لتوحيد الله وذكره عز وجلّ .

وإذا أنعمنا النظر في الأمثال القصصية الكريمة ، وجدنا التناسق التام بين عناصرها ، فكل عبارة مرتبة على سابقتها وكأنّها نتيجة طبيعية لها ، هذا إضافة إلى أن القول الكريم قبل بدء ضرب المثل (فإن مثل ذلك كمثل . . .) يضيف على الأسلوب مزيداً من التناسق والتلاحم .

وفي استخدام الأسلوب النبوي الكريم لكلمة (مثل) ما يشير إلى أهمية المشبه . فقد اتفق البلاغيون على أنها لا تستعمل إلا في الأمور العجيبة ، والأحوال الغريبة^(١) ، وهو ما يتناسب مع ما نحن فيه من هذه المعاني القصصية الكريمة .

وبعد تقرير هذه القواعد الأساسية من حقائق الدين ، يأمر النبي ﷺ أمته بخمس كلمات ، الله عز وجلّ أمره بها ، ويأمر أمته بها ، وهي :

= ذكر الله عز وجلّ ، ينظر ص ١٤٩ ، هامش رقم ١ ، من هذا البحث . لقد صور الأسلوب النبوي الكريم المعاني الذهنية في صورة حسية ، بأن العبد لا يحصن نفسه إلا إذا كان في ذكر الله عز وجلّ . . . إن ذكر الله - في هذه العبارة الكريمة - ظهر للعيان بصورة حسية تسمح بأن ينغمس العبد فيه ليحفظ نفسه ، ويحصنها من الشيطان ، فقد تمكّن منه ذكر الله كما يتمكن الظرف بالمظروف ، ولذلك كان التعبير بالاستعارة التبعية في الحرف (في) أبلغ في تأدية المعنى . فضلاً عن أن معنى القصر متحقق فيه ضمناً .

(١) انظر كتاب (فن التشبيه) ، علي الجندي ، ١ / ٢٠١ .

السمع والطاعة ، والجهاد ، والهجرة ، والجماعة

وردت الكلمات الخمس على صورة واحدة من التعريف (التعريف بأل) للاهتمام بها ، ولبيان أن كل واحدة في معناها تدل على الكمال المطلق ، لذا ينبغي على المؤمن أن يقوم بها خير قيام . . . ثم إن الكلمات الخمس وضعت في بوتقة واحدة يمسك بعضها بحجز بعض ؛ لتؤدي معنى واحداً متكاملًا ، وهو اتباع ما عليه الجماعة ، وفيما يتمشى مع روح اتحاد المسلمين .

وأول ما أمر به النبي ﷺ أمته ، هو :

السمع والطاعة :

أغلب ما يراد بالسمع - في مجال الاستعمال الحقيقي - هو الإدراك الحسي ، وأغلب ما يراد به في مجال الاستعمال المجازي هو الرضا والقبول . . . وإذا قبل المسلم الأمر ورضيه ، أمثله امتثالاً كاملاً ، ومن هنا كانت الطاعة لازمة . . . أما عن تقديم السمع على الطاعة ؛ فلأن التكليف طريقه السمع ، والطاعة بعده . . . إنهما شعار المسلم الذي يعلنه دائماً . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (١) .

ولقد أجمع العلماء على وجوب طاعة كل من له ولاية من الولاية والآباء والأمراء ، وغيرهم ، في غير معصية . . . والنبي ﷺ يربي أمته ، ويلفت أنظارهم إلى أنهم إذا أمروا بأمرٍ وجب عليهم الإصغاء والفهم ، ثم يتبعون ذلك العمل بما أمروا والابتعاد عما نهوا .

الجهاد :

الجهاد عبادة ، بل هو سنام العبادات وذروتها ، وهو المحك والدليل المفرق بين الاعتقاد والادعاء . . . فالمؤمن الحق من يجيب الدعوة ، فيبذل المهجة والمال لربه متقرباً إليه ببذل أعز ما عنده ، يود لو أن له بكل شعرة نفساً يبذلها في حبه ومرضاته ، إنه قد سلم نفسه وماله لمشتريها وعلم أنه لا سبيل إلى

(١) النور : ٥١ .

أخذ السلعة إلا ببذل ثمنها ، حيث قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ
الآية ﴾ (١) .

هذا ، وقد اقتضى واجب الدفاع عن الدعوة وتأمين سبيلها ، الإذن للمسلمين بالجهاد بكل ممكن ، كما فعل نبي الإسلام صلوات الله عليه وسلامه . ومن هنا كان واجب الإمام تجهيز الغزاة ، وإعداد العدة ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَوْفَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٢) . وفي أمره ﷺ بالجهاد ووجوب الطاعة له ولأئمة المسلمين وولاتهم الخير العظيم وفي عصيانهم الفساد الكبير فالإمام إن عصي من قبل الجند أفسدوا عليه رأيه ، فلا رأي لمن لا يُطاع وهذه أعظم الخسارة . (٣)

الهجرة :

إن الأمر بالهجرة من معاني جمع الكلمة ، ووحدة الصف التي نادى بها الإسلام فما المقصود بهذه الكلمة الجامعة على ضوء هذا المعنى الجليل ؟ (٤)

(١) التوبة : ١١١ .

(٢) الأنفال : ٦٠ .

(٣) من أنواع الجهاد في سبيل الله تعالى ما يلي :

أ - محاربة المارقين ، ومجادلة الملحدين ، وإقناعهم بالحجة حتى يحل بهم الخزي العظيم .

ب - دعوة الناس إلى الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ج - مجاهدة النفس بالتحلي بالمكارم والعمل بأحكام الدين .

(٤) من معاني الهجرة ما يلي :

أ - الفرار من أرض غلبت عليها المنكرات وسادت فيها المحرمات ، فالمؤمن إذا لم يستطع تغيير المنكر وجب عليه أن يزول عنه .

ب - الفرار من أذى يلحق النفس والمال ، فإنه إذا خشى الإنسان أن يلحق به ضرر شيء من ذلك ، فقد أذن له في الخروج عنه .

إن الهجرة في أكمل صورها هي هجر المنكرات . . . ومن المنكرات معارضة الجماعة ، فلذلك ينبغي هجر البدعة ، والتزام السنة ، والاستمسك بما عليه السلف الصالح . . . والانصراف عن هوى النفس في أقوالها وأفعالها . . . ففي مفارقة الشخص رأيه المخالف لما عليه سائر الأئمة والصالحين ، والعمل باتباع أمرهم والتمشي على ضوء منهجهم ما يطمئن القلب ويريح الوجدان ، ويهنئ العيش . . . كما أن في مفارقة المعاصي وأهلها ، وهجر داعي الهوى ، سلامة للفرد والمجتمع ، وامثال للأوامر ، واجتناب للنواهي . . . ولهذا قيل :
الهجرة الدائمة الحقيقية هي مفارقة ما يكرهه الله إلى ما يحبه . . . قال تعالى :
﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١)

ملازمة الجماعة :

عندها تلتئم الفضائل ، وتنظم المكارم ، من سماع وطاعة ، وتلبية لنداء الجهاد ، والتزام لمفارقة البدع ومخالفة الرأي ، سيكون الوئام والمحبة هما طريق الأمة والجماعة . . . والمقصود بملازمة الجماعة ملازمة رأي الجمهور ، والتمشي مع روح اتحاد المسلمين ، ولم شعثهم ، وتوحيد كلمتهم في البرّ ووجوه الخير والصلاح . . . وعدم بث الشقاق ، وزرع الاختلاف . . . والدعوة إلى صفاء النية والمحبة ، قال تعالى : ﴿ واعتصموا بحبلِ اللَّهِ جميعاً ولا تفرقوا ﴾ (٢) ، ولقد أكد المصطفى ﷺ على هذه المعاني ؛ لأن في صلاح الجماعة صلاحاً للرعية . . . ومن انصرف وخالف ما عليه الجماعة بترك السنة ، واتباع البدعة ، ونزع يده من الطاعة ولو بقدر يسير قدره النبي ﷺ بقدر شبر ، فقد خرج عن حدود الإسلام وأحكامه .

إن التعبير عن المعاني بصورة حسية وسيلة من وسائل التصوير التي تقرب المعنى وتبرزه بشكل ملموس . . . لقد كنى النبي ﷺ بالشبر عن القدر اليسير ، والشبر قياس مألوف معروف لدى الناس جميعاً .

(١) آل عمران : ٣١ .

(٢) آل عمران : ١٠٣ .

إن البيان النبوي حين يصور الوعيد الذي ينتظر مفارق الجماعة يبرز المعنى بهذه الصورة الاستعارية الجميلة (فقد خلع ربة^(١) الإسلام من عنقه) هذه العبارة تزيد في تصوير هذا الأمر وتمثيله للنفس ، لقد شبه المصطفى ﷺ ما في عنق المسلم من لوازم الإسلام وتعاليمه وأوامره ونواهيه بالربة التي في عنق الدابة تمنعها من الفرار ، بجامع الامتناع من الضرر في كلِّ ، ثم استعار المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية . (٢)

والفعل (خلع) ترشيح للاستعارة . . . والاستعارة من استعارة المحسوس للمعقول . وقوله الكريم : (فقد خلع) لا تقف عند حدّ النزاع ، بل إنها تصور بطريق الخيال معنى الإصرار على المخالفة والمعصية ، والخروج عن أحكام الشريعة .

وقوله ﷺ : « خلع ربة الإسلام من عنقه » توحى بأن الإنسان كالدابة متى خالف الحق وخرج عن جادة الصواب ، ونبذ عهد الله وذمته التي لزمته عنقه وعلى المسئولين في الأمة أن يراجعوه حتى يرجع ويتوب إلى الله عزّ وجلّ ويفيء إلى رشده فيتبع سنن الجماعة وهداهم .

وفي التعبير بضمير الشأن في قول المصطفى ﷺ : « إنه من فارق الجماعة » تنبيه للنفس وتهيتها إلى معرفة الخبر . ذلك أن هذا الضمير غامض لا يدل على شيء ، وفائدته - كما قلت - أنه ينبه ويهيء النفس لقبول ما بعده من الخبر ، فإذا جاء الكلام بعده انصرفت النفس إليه بتمكّن ؛ لأنها تلقتة بعد تهيتها . . . ولهذا يكسب الكلام نبلاً وفخامة^(٣) وشرقاً . والنبي ﷺ هياً به النفس لتلقي هذا المعنى (مخالفة الجماعة خروج عن الدين وتعاليمه) .

وقوله ﷺ : « من ادعى بدعوى الجاهلية فإنه من جثى جهنم » فيه إشارة إلى أن من كان هذا صنيعه وديدنه فإنه يحيا بلا عقل ولا دين . ومن دعوى الجاهلية اتباع سننها من الجهل بالله ورسوله ، والمفاخرة بالأنساب ، والدعوة إلى كل ما حرم الله عزّ وجلّ ، وخالف العقل والفطرة السليمة .

(١) الربق : أن يتخذ من الحبل عُرى تجعل في أعناق السخال ، فكل عروة منها ربة . انظر غريب الحديث ، ١٨٠/٢ - ١٨١ ، أبو سليمان حمد الخطابي ، تحقيق : عبد الكريم العزباوي ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

(٢) انظر المجازات النبوية ، الشريف الرضي ، ص ٣٧٥ .

(٣) انظر : دلائل الإعجاز ، ص ١٣٢ ، للشيخ عبد القاهر الجرجاني .

وإذا تأملنا الجملة الشرطية الكريمة : « من ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثى جهنم » وجدنا أن فعل الشرط جاء بصيغة الماضي ، وجملة الجواب لا تختص بما هو في حيز الشرط ، من هنا يكون الحكم فيها شاملاً للحاضر والمستقبل ، ومعنى هذا أن المدلول الزمني لفعل الشرط غير مقصود . . . وسرّ العدول عن التعبير بفعل الحاضر أو المستقبل في فعل الشرط هو تأكيد حصول الجزاء المترتب على الفعل في مقام الترهيب ، تصويراً له بصورة الواقع ؛ ليجتنبه المخاطب . وفي التعبير عن الجزاء بالجملة الاسمية دلالة على معنى ملازمة تلك الهيئة من العذاب ، أعني القول الكريم : « فإنه من جثى جهنم » هذا ، وقد اختلف شراح الحديث في المقصود بقوله عليه السلام : « جثى جهنم » بأنه قد يكون المراد أنه ممن يجثو على الركب في نار جهنم . . . ومنه قوله تعالى : ﴿ فو ربك لنحشرنهم والشیاطین ثم لنحضرنهم حول جهنم جثیاً ﴾ (١) .

وقد يكون المراد أنه من الجماعة الذين سبق فيهم حكم الله بالنار (٢) . . . وذلك وعيدٌ ينفذ فيمن اتبع سنة غير سنة الجماعة . . . ولهذا تعجب أحد الصحابة - رضوان الله عليهم - وسأل الرسول ﷺ ، مستغرباً من الحكم بقوله : « وإن صلی وصام ؟ » فأجابه المصطفى عليه أفضل الصلاة والتسليم بإعادة ما تضمنه الحكم ، تقريراً وتأكيذاً (وإن صلی وصام) . . . والسرُّ في العدول عن (لو) الشرطية إلى (إن) يبرز من روح هذا التأكيد ، ذلك أن مخالفة هدي جماعة المؤمنين الصالحين وسيرتهم كبيرة لا تجبرها صلاة ولا صوم ، لأنها تضعف من قوة الأمة الإسلامية وتهون من شأنها في عيون أعدائها .

وفي نهاية الحديث يقرر الرسول ﷺ الأمر « بدعوى الله » أي توحيده وطاعته ، والعمل بدينه وشرعه ، واتباع أوامره التي بها سمّانا المسلمين المؤمنين عباد الله .

(١) مريم : ٦٨ . .

(٢) انظر تحفة الأحوذى ، ٨ / ١٦٣ ، أبو العلي محمد عبد الرحمن المباركفوري . راجعه وصححه عبد الرحمن محمد عثمان ، مطبعة الفجالة الجديدة ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م . .

وفي التعريف بالصلة في هذه العبارة الأخيرة من نهاية الحديث تكريم لمن كانت تلك أوصافهم وأسمائهم ، وتنويه بمقامهم عند الله .

وفي الترتيب في قوله الكريم : « المسلمين المؤمنين ، عباد الله » ما يفيد الترقى في أداء المعنى وتصعيده إلى حيث يستظل من هؤلاء صفاتهم بظلال العبودية ، وذلك هو الفوز العظيم ، وإنما كان الترقى ؛ لأن لفظ المسلمين : يعني أنهم أسلموا وجوههم لله وانقادوا إليه بالطاعات . وهذه صورة حسية أولى ، ترتقي إلى صورة عقلية ثانية ، هي صورة المؤمنين المصدقين بالله ورسوله تصديق المطمئن ، لذلك كانت الصورة المعنوية الثالثة (عباد الله) هذا المعنى الذي يستحق به العبد المدح والولاية ، وهو إتيانه بالأمور الثلاثة : الانقياد الظاهري بالجوارح والاعتقاد التصديقي للقلب ، والوصول إلى مرتبة الفلاح والرقى بالعبادة الحقة ، ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (١) . . كما أن ترك العطف في تلك العبارة الكريمة يفيد أن هذه الصفات مزجت حتى صارت صفة واحدة .

هذا ، وأقول في نهاية تحليلي لهذا الحديث النبوي إنه مال إلى جانب التصوير الفني الرائع للمعنى المقصود ، وتلك ميزة من مزايا الأسلوب النبوي - وهو إخراج ما لا تقع عليه الحواس إلى ما تقع عليه وسر روعة هذا الأسلوب وسحره ، هو أن الألفاظ تظهر المعنى ، وتلصقه بالوجدان عن طريق هذا التصوير ، إذ هو وسيلة لإبراز المعاني الذهنية المجردة في قوالب حسية ؛ لتكون أثبت في الذهن ، وأنفذ إلى القلب وهكذا جاءت الأمثال بمثابة وسيلة للإيضاح والإفهام ، ولذا حسن استخدامها وعرضها في أعقاب معاني التذكير والمواعظ والتعليم والتهذيب ، يقول الإمام عبد القاهر : « واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه ، أن « التمثيل » إذا جاء في أعقاب المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صباغة وكلفاً ،

وقَسَرَ الطَّبَاعَ عَلَى أَنْ تَعْطِيَهَا مَحَبَّةً وَشَغْفًا . . . وَإِنْ كَانَ حَاجِبًا ، كَانَ بُرْهَانَهُ
أَنْوَارَ وَسُلْطَانَهُ أَقْهَرَ ، وَبَيَانَهُ أَبْهَرَ . . . وَإِنْ كَانَ وَعْظًا ، كَانَ أَشْفَى لِلصَّدْرِ ،
وَأَدْعَى إِلَى الْفِكْرِ ، وَأَبْلَغَ فِي التَّنْبِيهِ وَالزَّجْرِ ، وَأَجْدَرَ أَنْ يُجَلِّيَ الْغِيَايَةَ ، وَيُبْصِرَ
الْغَايَةَ ، وَيُورِيَّ الْعَلِيلَ ، وَيَشْفِي الْغَلِيلَ . (١)»

* * *

(١) أسرار البلاغة ، ص ١١٥-١١٦ .

رفع الأمانة

رفع الأمانة

عن حذيفة^(١) قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين رأيتُ أحدهما وأنا أنتظرُ الآخرَ ، حدثنا « أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة » ، وحدثنا عن رفعها ، قال : « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكت ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل كجمر دخرجه على رجلك فنفظ فتراه متبراً وليس فيه شيء^(٢) ، فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدّي الأمانة . فيقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، ويقال للرجل : ما أ عقله ! وما أظرفه ! وما أجلده ! وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان . » ولقد أتى علي زمانٌ وما أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلماً رده علي الإسلام ، وإن كان نصرانياً رده علي ساعيه ، فأما اليوم فما كنت أباع إلا فلاناً وفلاناً . » قال الأصمعي وأبو عمرو وغيرهما : جذر قلوب الرجال ، الجذر الأصل من كل شيء ، والوكت : أثر الشيء اليسير منه ، والمجل : أثر العمل في الكف إذا غلظ .^(٣)

تحليل الأسلوب النبوي الكريم :

يتناول المثل القصصي جانباً مهماً من قيم الإسلام ومبادئه ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة الإنسان وسلوكه . . . بل إنه يتغلغل في الأعماق ؛ ليوضح ويبيّن أموراً ربما غابت عن الأذهان ؛ وليبصر ببعض الحقائق الخافية في حياتنا .

إن الأمانة من أوائل السلوك الإنساني الذي دعا إليه الإسلام وحض عليه ، فهي فضيلة تستند إلى قاعدة الإيمان ، ويرتبط بها ارتباطاً وثيقاً ، وتنبت عنها جميع الأخلاق الإسلامية ، ولا عجب في ذلك ، فإن الله عز وجل فطر القلوب على الأمانة واستحسانها ، وتحملها . . .

(١) انظر ص ١٣٤ ، من هذا البحث .

(٢) زاد مسلم في صحيحه ، ١ / ٨٩ ، قوله : ثم أخذ حصي فدخرجه على رجله . . .

(٣) رواه البخاري ، ٧ / ١٨٨ - ١٨٩ ، ومسلم ، ١ / ٨٨ - ٨٩ ، والإمام أحمد بن حنبل في

والنبي ﷺ يؤكد هذا المعنى في قوله الكريم : (إِنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَنْبِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ، ثُمَّ عَلَّمُوا مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ عَلَّمُوا مِنَ السُّنَّةِ) إنها عبارة يتحدد الموقف من خلالها . . . بل إنها تحمل في تضاعيفها المضمون كله ، وتزود الذهن بصورة الموقف الذي ينشأ في إطاره الحدث ، فالله سبحانه وتعالى قد أنزل الأمانة في أصل القلوب مع الفطرة التي فطر الناس عليها . إذاً الدافع إليها أمر فطري ، كما أن وحدانية الله والإيمان به أمر فطري أيضاً .

الفطرة بين الإيمان والأمانة :

إن الإيمان طمأنينة القلب ، والتصديق بوحدانية الله عز وجل ، والاعتراف بحقه ، وإظهار الخضوع والقبول لشريعته ، وتعاليمها ، والله عز وجل فطر النفس البشرية على الإيمان به ، والاعتراف الكامل بالحق له ، قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ ﴾ (١) ، والنبي ﷺ يردد هذا المعنى القرآني ، فيقول : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه (٢) » . . . وكما فطر الله النفوس على الإيمان به ، فطرها - أيضاً - على الأمانة ، والميل إلى حفظ كل ما يؤتمن عليه الإنسان من أجل رعايته ، وأدائه إلى صاحبه ، والاعتراف بحقه فيه - على تنوع الحقوق وكثرتها .-

إن الأمانة لازمة للإيمان ؛ ولذلك جاء الربط بينهما في قول النبي ﷺ : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له . (٣) » فكلاهما ينبعان من نبع الفطرة السوية . والعلاقة بينهما علاقة الجزء بالكل ، فالإيمان بالله أساس الدين القيم ، والأمانة جزء منه حيث هي أساس السلوك القيم ، كما أن الأصل في الإيمان الدخول في صدق الأمانة التي ائتمن الله عليها ، فإذا اعتقد التصديق بقلبه ، كما صدق بلسانه ، فقد أدى الأمانة ، وهو مؤمن . ومن لم يعتقد

(١) الروم : ٣٠ .

(٢) رواه البخاري ، ٦ / ٢٠ .

(٣) رواه أحمد في المسند ، ٣ / ٢٥١ .

التصديق بقلبه فهو غير مؤدٍ للأمانة التي ائتمنه الله عليها ، وهو منافق
ولهذا نجد أن الأمانة إذا استمكنت من قلب العبد قام حينئذ بأداء التكليف ،
واغتتم ما يرد عليه منها وهكذا جاء النص النبوي الكريم ، ليؤكد بأن
الدافع إلى فضيلة الأمانة - خلقاً وسلوكاً - أمرٌ فطري أنزله الله عز وجل في جذر
القلوب

وقوله الشريف : « نزلت » مجاز مرسل عن تمكّن فطرة الأمانة في
النفوس ، وأن الله خلقها في قلوب الناس ، بعلاقة اللزوم وفضلاً عن هذا
فإن تلك الصيغة (نزلت) لا تستعمل في النصوص الشرعية إلا بمعنى الشيء
المنزل من عند الله عز وجل ، كما جاء في نصوص إنزاله الكتاب ، وإنزاله عز
وجلّ الملائكة والسكينة^(١) إلخ . وفي ذلك تنبيهٌ إلى علو شأن الأمانة
ومدعاة للحرص عليها .

وفي قوله الكريم : « قلوب الرجال » مجاز مرسل علاقته بالخصوص ،
أطلق الخاص (الرجل) وأريد به الإنسان - ذكراً كان أو أنثى - بناء على ما
تعارفه العرب في مخاطباتهم من إسناد الأحكام والأوصاف إلى الرجال ، جرياً
على الغالب في كلامهم وفي ذلك إشارة إلى أن الرجل بحكم تكوينه
وقدراته هو المسئول عن توجيه حركة الحياة ؛ لذلك كان هو الأصل والأجدر
بالذكر في مثل هذا المقام .

وفي قول المصطفى ﷺ : « إن الأمانة نزلت في جذر قلوب
الرجال » تأكيدٌ للخبر بالأداة « إن » الداخلة على الجملة الاسمية ؛ لأن مضمون
الخبر قد يقابل بالاستغراب والإنكار ؛ لتعلقه بأمر لا يمكن إدراكه بالحواس ،
فحسن تأكيد الخبر للمخاطب ، تنبيهاً إلى أنه حقيقة مؤكدة .

ثم يبين المصطفى ﷺ أن الأمانة كما حصلت للنفوس بالفطرة ، حصلت
أيضاً بالكسب عن طريق الشريعة ، فيقول : « ثم علموا من القرآن ، ثم علموا

(١) عبد الرحمن الميداني ، روائع من أقوال الرسول ﷺ ، ص ٣٢٢ ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة

النبي الكريم إلى أسلوب التصوير البياني دون غيره من الأساليب ، من حيث القدرة على أداء الغرض الأصلي المقصود من التصوير ، وما يمكن أن ينقله إلى النفس من إحساس بالمعنى .

وهكذا تضعنا البداية التمهيدية الكريمة أمام موقف المثل القصصي بكل أبعاده وملاساته ، وترسم لنا صورة الجو الذي تنشأ فيه الأحداث عامة ، وفي الوقت نفسه تثير في نفوسنا الكثير من الانفعالات ، وتحرك فينا مشاعر شتى من الدهشة والاستغراب ، كيف ؟ ولماذا ؟ ومتى ؟

وفي قوله الكريم ﷺ : « فتقبض الأمانة من قلبه » ما يشير إلى زوالها من القلب ، بسبب الفساد وعبر الرسول ﷺ عن زوال الأمانة بقبضها ، فشبه الزوال بالقبض بجامع الانتهاء في كلٍّ ، ثم حذف المشبه ، واستعار القبض للزوال ، واشتق من القبض بمعنى الزوال ، تُقبض بمعنى تزال ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية . وفي هذه الصورة الاستعارية تقديرٌ للأمانة ، ورفع لمكانتها ، وإجلال لشأنها ، فهي أكرم من أن تزول وتمحى ، خاصة بعد أن منّ الله عزّ وجلّ بها على عباده ، وتفضل بها عليهم ، ولا يسترجع الله عزّ وجلّ ما وهب لهم من الأمانة الملازمة لوحدانيته ، بسبب من عنده ، وإنما يكون زوالها بتضييعهم لها بسبب عوارض طارئة في حياتهم - من الأهواء والشهوات - اندفعوا إليها عمداً أو جهلاً . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . ﴾ (١) ولهذا كان إنذار النبي ﷺ بقبض الأمانة كتمهيدٍ لقبض الخير كله ، تنبيهاً لهم على القيام بواجبها ، والتزام حفظها ؛ لأنها مما يُقبض ويُزال .

إن الأمانة تقبض من القلوب شيئاً بعد شيء ، ووقتاً بعد وقت ، على قدر فساد النفوس ، ويكون ذلك على مراحل هي :

المرحلة الأولى :

عبر عنها الأسلوب النبوي الكريم بقوله : « ينام الرجل النومة فتقبض

الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكت « أي يأتي على الناس زمان ، تفسد فيه فطرهم ، وأخلاقهم ، وتزول بسبب ذلك الأمانة من القلوب ، حتى لا يبقى منها إلا الأثر اليسير ، شبهه النبي ﷺ بالوكت . . . ووجه الشبه بينهما قلة المقدار . . . والمصطفى صلوات الله عليه يستعين بالأمر الحسي في تصوير المعاني المجردة ؛ لتقريب الحقائق من أذهان المخاطبين ، وتصويرها إنما هو لإدراك نسبة كميتها . . . « فالأمانة إذا زال جزء منها زال نورها وخلفته ظلمة كالوكت ، وهو اعتراض لون مخالف للون الذي قبله »^(١) ، ولا يكون ذلك إلا حين يختل التوازن النفسي للأفراد ، فيتلاشى الخير ، ولا يبقى منه إلا قدر يسير .

المرحلة الثانية :

عبر عنها الأسلوب النبوي الكريم بقوله : « ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفظ فتراه مُتبراً وليس فيه شيء » .
إذا أنعمنا النظر في هذه العبارة النبوية الكريمة وجدنا أن الإنسان مع تتابع الزمن ، وانتهيار القيم الفطرية يتجاوز الحدود في غيّه ، ويتمادى ، فتضيع الضوابط ، وتنحرف الفطرة ، فينحجب عنها النور ، ويقبض ما بقي فيها من الخير وحينئذ لا يبقى للإنسان إلا ضوء باهت من مظاهر كاذبة ، وتصنع خادع ، يخاتل به الآخرين ، حتى إذا أمنه ، سطا على حقه ، ثم جحده ، ثم عاد مرة أخرى لإعادة الكرة - فيتظاهر بالأمانة ، وبالقيام على حقها ، وأدائها . . .

وقد صور النبي ﷺ ما بقي من الأمانة في قلبه - في هذه المرحلة - بأثر المجل ، وهو أثرٌ محكم لا يكاد يزول إلا بعد مدة ، ولكنه أثرٌ أجوف ولقد أدت الصورة التشبيهية المعنى المقصود - أعني كيفية الأمانة المتبقية - بدقة تامة ، حيث جسّد البيان النبوي هذه الكيفية بالمجل الذي هو نفضٌ صلب ، لم يتأت من

(١) أبو العباس شهاب الدين القسطلاني ، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، ٩ / ٢٨٤ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، وانظر « عمدة القاري » ، ٢٣ / ٨٤ .

العمل والمشقة والجهد . بل هو - كما قيده الأسلوب النبوي - نَفْطاً بتأثير النار ،
ممتلىء ماءً فاسداً . . . وكذلك الأمانة - في هذه المرحلة - ليست سوى سلوكٍ
أجوف مليء بالرياء والنفاق والفساد . . . ولهذا يخيل إليك أن الرجل ذو أمانة
وما هي إلا نفطة مرتفعة جوفاء لا طائل تحتها .

ومن هنا كان التشبيه المركب في البيان النبوي الكريم بتصوير هذه الحال
بصورة تمثيلية ، وهي - كما ورد في الحديث الشريف - « كجمر دحرجته على
رجلك فنَفَطَ فتراه مُتَبَرّاً وليس فيه شيء » شبه المصطفى عليه الصلاة والسلام ما
بقي من الأمانة ، بسبب تتابع نار الأهواء والشهوات على النفس ، حتى لا يبقى
منها إلا مظاهر شكلية ادّعائية جوفاء ، بالنفطات التي يُحدثها الجمر فترتفع ،
وليس فيها إلا ماء فاسد لا قيمة له . . . والجامع بينهما ، وجود أمور يظهر
للرائي صلاحها ، لكنها فاسدة لفساد باطنها . . . والغرض من التشبيه تقرير
حال المشبه في ذهن السامع ؛ لأنه - أعني المشبه (وهو تصوير ما تبقى من
الأمانة) - من الأمور المعنوية الذهنية ، فحسن إبرازه في صورة حسية مشاهدة
ليقوى الإيمان بها ، والتأكد من صحتها ، بل إبرازها في هذه الصورة الحسية
يصبح دليلاً يدفع كل تردد في تصديق هذه الدعوى .

وفي اختيار الأسلوب النبوي لصورة المجل الذي ينشأ بسبب النار ،
وإيثاره التعبير بلفظ المثلية دون المجل ذاته الذي يكون بسبب مشقة العمل ،
منظور فيه إلى السبب في كل منهما ، والدافع إليه ، حيث إن الأثر الذي بسبب
الجهد المبذول في العمل والكدح ، والمشقة ، لتحصيل الرزق ، أثرٌ محمود
مسعاه ، وهو من لوازم الفطرة السوية ، فضلاً عن أن ذلك أمرٌ إلهي ، دعا إليه
الله عزّ وجلّ ورسوله محمد ﷺ ؛ لكي ينهض الإنسان بمقام الخلافة في الأرض
. . . بينما صورة المجل الأخرى - أعني التي بفعل الجمر - مسببة عن النار ،
والمقصود بها - في صورة المثل معنا - الأهواء والشهوات ، وكتاهما - النار
والأهواء - يقدم عليهما الإنسان بإرادته ، ويندفع إليهما باختياره . فيترتب
على ذلك فساد العضو المصاب بالنار ، كما أفسدت الفطرة السوية بالأهواء
والشهوات ..

وفي انتقال الخطاب في الأسلوب الكريم ، من الجمع إلى المفرد ما يشير إلى تنبيه المخاطب ، وكأنه هو المقصود بالحديث . . فضلاً على ما فيه من حسن التنوع وجماله . .

وقبل أن أنتقل مع الحديث إلى المرحلة الثالثة ، أودّ التعرف على أثر الصورة الفنية - في المثل القصصي الشريف - في النفس الإنسانية ، واستبطان ما بداخلها من علاقات . . . فأقول وبالله التوفيق : إن الصورة الفنية في المثل القصصي الكريم ، بكل وسائلها وعلاقاتها ، تتوغل في النفس الإنسانية لتترك فيها ما شاءت من الأثر . ففي العبارة النبوية الكريمة (كجمر دحرجته على رجلك) تتعاقب الصورة مع إيقاع الكلمات ، ويتحقق الانسجام التام بين الحروف . . . إن توالي حرف (الراء) ، وتعاقبه مع حرف (الجيم) ، وإيقاعهما المتواصل ، ليوحى في النفس معنى التتابع^(١) ، وهذا هو المعنى الذي أراد النبي ﷺ التأكيد عليه . . . فمن حيث ما يلزم بالشخص من نوم متتابع ، وما يلزمه من غفلة مستهرة ، لتتابع المؤثرات من الأهواء والشهوات عليه . . . يكون تصوير قبض الأمانة ، فإنها لا تزول دفعة واحدة ، بل إنها تُقبض من القلوب شيئاً فشيئاً حتى يزول نورها بعد وقوعه في القلب ، واعتقاب الظلمة إياه . . . وهكذا نجد أن كلمات المثل الشريف تتمتع بجرس وإيقاع رائعين . . . كما تنساب حروفها على اللسان دونما تنافر بينهما ، وتتحد مع مضمونها في إطار تصويري بديع . (٢)

(١) اتفق علماء الأصوات على أن لكل صوت صفة مميزة . . . والصفة المميزة لصوت (الراء) هي : أنها صوت مكرر بتكرر طرق اللسان للحنك عند النطق بها . . . وهي صوت مجهور ، ومن الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة . .

أما صوت (الجيم) ، فهو صوت مجهور ، قليل الشدة ، يتكون بأن يندفع الهواء إلى الحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه في الحلق والقم حتى يصل إلى المخرج ، وهو عند التقاء وسط اللسان بوسط الحنك الأعلى التقاء يكاد ينحبس معه مجرى الهواء ، فإذا انفصل العضوان انفصلاً بطيئاً ، سمع صوت يكاد يكون انفجارياً ، وهو الجيم العربية الفصيحة . . . وهذه الصفات لهذين الحرفين تدل على معنى التتابع . انظر كتاب (الأصوات اللغوية) ، إبراهيم أنيس ، ص ٦٦ ، ص ٧٧ - ٧٨ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٩ م . .

(٢) زاد مسلم في روايته المذكورة ص ١٧٢ ، هامش رقم ٢ ، من هذا البحث ، البيان الحسي =

إن معنى المثل النبوي - أعني الاغترار بحسن الظاهر الذي هو فاسدٌ
فساد الباطن - عرضه القرآن الكريم في مثل هذا المعرض التمثيلي أيضاً ، حيث
قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ
خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْتَى
يُؤْفَكُونَ ﴾ (١) .

فهذه الآية وصفٌ للمنافقين ، بحسن الصورة ، وفصاحة اللسان ، وقوة
الحجة ، ولكنهم لفراغ قلوبهم من الخير والإيمان ، وفقدان إحساسهم من الشعور
الصحيح والتفكير السليم ، أجسام خالية عن كمال الأنفس شبههم الله
عز وجل بالخشب المستندة إلى الحائط ، على عظمها يعتقد كل من يراها أنها
سليمة ، وهي في حقيقة الأمر متهالكة ، لا نفع فيها والجامع في الصورة
التمثيلية ، حسن الصورة ، وعدم الجدوى وهذا المعنى ردد صداه حسان
ابن ثابت (٢) - ولعله أخذه من معنى هذه الآية القرآنية - فقال :

حار بن كعب ألا الأحلام تزجركم
لا بأس بالقوم من طول ومن عظم
ذروا التخاجؤ و امشوا مشية سججاً
كانكم خشب جوف أسافلهم
عنا ، وأنتم من الجوف الجماخير
جسم البغال وأحلام العصاير
إن الرجال ذوو عصب وتذكير
مثقّب فيه أرواح الأعاصير

= باستخدام وسيلة إيضاح مادية ، وذلك في عمل الرسول ﷺ الذي عبر عنه الراوي بقوله :
« ثم أخذ رسول الله ﷺ حصي فدخرجه على رجله » . مثل النبي ﷺ الصورة البيانية بحركة
عملية ، إذ أخذ بيده الكريمة حصي ، فدخرجه على رجله إن لحركته ﷺ وإجادته الأداء ،
قيمة نفسية عظيمة ، تلفت الناظر ، وتنبه الغافل ، وتعين على الحفظ والتذكر . . . فضلاً عن أن
الرؤية الحسية في هذا الأسلوب النبوي لها ما لها من الأثر في أن يطمئن القلب ، وتأنس النفس
مما يزيد من تثبيت المعاني والحقائق ، وإن لم تقابل بالشك انظر في هذه الفكرة ، أسرار
البلاغة ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(١) المنافقون : ٤ .

(٢) ديوانه ، ص ١٢٢ - ١٢٣ ، دار صادر ، بيروت .

المرحلة الثالثة من مراحل زوال الأمانة :

عبر عنها المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام بقوله : « فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحدٌ يؤدي الأمانة ، فيقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، ويقال للرجل : ما أعقله ! وما أظرفه ! وما أجلده ! وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان » .

إذا كان الناس في المرحلة السابقة - يتظاهرون فيما بينهم بالصدق والأمانة ، فإنهم في هذه المرحلة ، وبين عشية وضحاها يخلعون أقنعة الخداع والنفاق والزيف ، ويتعارفون فيما بينهم بالخيانة - والعياذ بالله - فلا يأمن بعضهم بعضاً على شيء ، ويتبايعون بغاية الحذر ، ويتعاملون - فيما بينهم - على تخوين بعضهم بعضاً ، وأنه لا أمين بينهم . . . ولا يكاد أحدٌ منهم يؤدي الأمانة وحينئذ تصبح الخيانة ظاهرة عامة بين الناس ، ولا يكون ذلك إلا بعد أن تفسد البيئة كلها .

وفي القول الكريم : « يتبايعون » نجد تأثير البيئة في هذه الصورة النبوية الشريفة واضح كل الوضوح ، ذلك أنها تعتمد على أسلوب ألفه العرب ، وهو أسلوب التجارة الذي كان شائعاً في الجزيرة العربية ، حيث يظهر معنى الأمانة أيما ظهور بالبيع والشراء . . . لأنه السلوك الذي تظهر من خلاله الأمانة بصورة مادية ملموسة . . . وعلى هذه الصورة نفسها - أعني صورة البيع والشراء - اعتمدت آيات قرآنية كثيرة في عرض معانيها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (١) .

وفي القول الكريم : « لا يكاد أحدٌ يؤدي الأمانة ، فيقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً » ما يشير إلى ندرة الأمين ، ندرة تشبه العدم ، فلا يكاد أحدٌ يؤدي الأمانة . . . ولقد كنى المصطفى عليه الصلاة والسلام بقوله : « حتى يقال :

إن في بني فلان رجلاً أميناً « عن ندرة الأمانة في الناس ، وأنها ستكون ندرة بالغة ، إلى حدّ أن يشار إلى الأمين واحداً من قبيلة في أعداد كثيرة من الأسر ، وسائرهم لا أمانة عندهم .

إن ندرة الأمانة والخير بين الناس ، ما كان ليتم لولا انتشار الفساد ، بمختلف أنواعه ، من فساد القيم والمفاهيم ، والاعتزاز بمظاهر خادعة تناقض الحق والعدل . . . ومن ذلك ، قول الناس للواحد منهم - كما أخبرنا الرسول ﷺ - ما أعقله ! وما أظرفه ! وما أجلده ! لكنه لا يحمل في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان . . . فوصف الناس له بالعقل والفتنة والذكاء والقوة والجلد ، قائم على أساس فساد مفاهيمهم من جهة ، وانخداعهم بصفات زائفة يتظاهر بها أصحابها ، دون أن يكون لذلك أثر لحقيقة أعماقهم ، من جهة أخرى . . . ولهذا يصل الأمر بالناس إلى إعلاء شأنه . كيف لا وقد أعجبوا بخلقه ، وحكموا له بالكمال . (ما أعقله ! وما أظرفه ! وما أجلده !) ولذلك يسندون أمرهم إليه ؛ لثقتهم به ، وهو في سلوكه وتعامله ينافي الحق والعدل والعقل ، كما ينافي الأمانة ، فليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أمام الدجال سنون خداعة ، يُكذّب فيها الصادق ، ويُصدّق فيها الكاذب ، ويُخون فيها الأمين ، ويؤمن فيها الخائن ، ويتكلم فيها الروبيضة ، قيل : وما الروبيضة ؟ قال : الفويسق يتكلم في أمر العامة . (١) » وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا ضيّعت الأمانة فانتظروا الساعة ، قال : كيف إضاعتها يا رسول الله ؟ قال : إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة . (٢) »

إن إسناد الأمر إلى غير أهله من الخيانة ، وضياع الإيمان . . . وحيثُذ تفقد جذور الإيمان والأمانة معاً . إن الإيمان الصحيح هو الذي ينبع منه السلوك القويم في حياة الإنسان ، وإذا لم يبق في القلب مقدارٌ يسيرٌ من إيمان ، لم يبق للإنسان سلوك قويم في حياته ، (لا إيمان لمن لا أمانة له) .

(١) مسند الإمام أحمد ، ٣ / ٢٢٠ .

(٢) رواه البخاري ، ٧ / ١٨٨ .

وفي القول الكريم : « ما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان » كناية عن عدم وجود الإيمان ذاته ، والتعبير بهذه الصورة الحسية مما يعرفه الناس أتمّ المعرفة . . . بين النبي ﷺ من خلالها ما سيكون عليه حال الناس من زوال الأمانة من حياتهم . . . وبزوالها لم يبق من الإيمان إلا تلفظ باللسان ، ينافق الناس بعضهم بعضاً ، ويرائي الناس بعضهم بعضاً .

يقول راوي الحديث : ولقد أتى علي زمانٌ وما أبالي أيُّكم بايعت ، لئن كان مسلماً ردّه عليّ الإسلام ، وإن كان نصرانياً ردّه عليّ ساعيه . فأما اليوم فما كنت أباع إلا فلاناً وفلاناً . . . اتفق شراح الحديث على أن المقصود (بالبيع) في قول حذيفة هو البيع والشراء المعروفين . وأقول - من خلال كلامهم - إن حذيفة - رضي الله عنه - كان يشير إلى صدق هذا المثل النبوي بطريقة عملية فلقد كان يعلم أن الأمانة في الناس ، لذا كان يقدم على معاملة من يثق به غير باحث عن حاله ، وثوقاً بأمانته . . . فإن كان مسلماً فإسلامه يمنعه من الخيانة ، ويحمّله على أداء الأمانة . . . وإن كان غير ذلك فساعيه - وهو الوالي الذي يسعى له - ينصفه ، ويستخرج حقه منه . . . وهذا يعني أن المسلمين لقوة إيمانهم محافظين على الصدق والأمانة . . . كما أن من يلي أمر المسلمين كان أهلاً للفضائل الإسلامية . . . أمّا اليوم فليس يثق بأحد يأتمنه على بيع أو شراء إلا فلاناً وفلاناً ، كناية عن أفراد قلائل يعرفهم ويثق بهم . وفي كلامه هذا - أيضاً - إشارة إلى أن حال الأمانة أخذ في النقص منذ ذلك الزمان . (١)

* * *

(١) ينظر (عمدة القاري) ، العيني ، ٢٣ / ٨٥ ، و(أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري) ، الخطابي ، ٣ / ٢٢٥٤ .

الفصل الثالث

الخبر القصصي

١ - الفتنة العظمى.

٢ - المجتمع المثالي.

الفتنة العظمى

١ - الفتنة العظمى

عن النّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ^(١) - رضي الله عنه - قال : ذكر رسولُ الله ﷺ الدَّجَالَ ذاتَ غداةٍ فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَعَ ، حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِيْنَا ، فَقَالَ : مَا شَأْنُكُمْ ؟ قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتَ الدَّجَالَ غداةً فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَعْتَ حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ . فَقَالَ : غَيْرُ الدَّجَالِ أَخَوْفُنِي عَلَيْكُمْ إِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ . وَإِنْ يَخْرُجُ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَأَمْرٌ حَجِيجٌ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ . إِنَّهُ شَابٌ قَطَطٌ^(٢) عَيْنُهُ طَائِفَةٌ^(٣) كَانَتِي أُشْبِهَهُ بَعْدَ الْعَزِيِّ بْنِ قَطَنِ فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةٌ^(٤) بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ^(٥) فَعَاثَ^(٦) يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا^(٧) ، يَا عِبَادَ

(١) ترجمة راوي الحديث :

النّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ بْنِ خَالِدِ بْنِ عَمْرٍو الْعَامِرِيِّ الْكَلَابِيِّ ، صحابي جليل ، معدود في الشاميين وفد أباه على النبي ﷺ ، فدعاه له زوج أخته من النبي ﷺ ، فلما دخل عليها النبي ﷺ تعوذت منه فتركها انظر (أسد الغابة في معرفة الصحابة) ابن الأثير ، ٤٥ / ٥ وكتاب (تقريب التهذيب) ، أحمد بن حجر العسقلاني ، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف ، ٣٠٨ / ٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٥ هـ .

(٢) قَطَطٌ : جَعْدٌ قَصِيرٌ والجَعْدُ من الرجال : المجتمع بعضه إلى بعض ، انظر : لسان العرب ، مادتي : قَطَطٌ ، جَعْدٌ .

(٣) قال النبي ﷺ : « مَا بُعِثَ نَبِيٌّ إِلَّا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ ، أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرٌ وَإِنْ رَبِّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ ، وَإِنْ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَكْتُوبٌ : كَافِرٌ » رواه البخاري ، ١٠٣ / ٨ .

(٤) خَلَّةٌ : سبيل وطريق بينهما . انظر لسان العرب ، مادة (خلل) .

(٥) حدد النبي ﷺ مكان خروجه في حديث آخر ، فقال : « إِنْ الدَّجَالُ يَخْرُجُ مِنْ أَرْضِ الْمَشْرِقِ ، يُقَالُ لَهَا : خِرَاسَانُ ، يَتَّبِعُهُ أَقْوَامٌ ، كَأَنَّ وَجُوهُهُمْ الْمَجَانُ الْمَطْرَقَةُ » رواه أحمد في المسند ، ٤ / ١ ، والترمذي ، ٣٤٥ / ٣ وخراسان : بلاد واسعة ، أول حدودها مما يلي العراق ، وآخرها مما يلي الهند انظر كتاب معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، ٣٥٠ / ٢ وما بعدها ، دار صادر ، بيروت ، عام ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

(٦) العيث : الإسراع في الفساد . انظر لسان العرب ، مادة (عيث) .

(٧) قال النبي ﷺ : « لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيِّطُوهُ الدَّجَالُ إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَلَيْسَ نَقْبٌ مِنْ أَنْقَابِهَا إِلَّا عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ صَافِينَ نَحْرُسُهَا ، فَيَنْزِلُ بِالسَّبِيخَةِ فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْهَا كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ . » رواه مسلم ، ٢٠٦ / ٨ .

الله فاثبتوا . قلنا : يا رسول الله وما لبثته في الأرض ؟ قال : أربعون يوماً ، يوم كسنة ويوم كشهْر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم . قلنا : يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا ، اقدروا له قدره . قلنا : يا رسول الله وما إسرأه في الأرض ؟ قال : كالغيث استدبرته الريح ، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له . فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبث . فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً ، وأسبغه ضروعاً ، وأمدّه خواصر . ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون ممحلين^(١) ليس بأيديهم شيء من أموالهم ويمر بالخربة ، فيقول لها : أخرجي كنوزك فتبعه كنوزها كيغاسيب^(٢) النحل ، ثم يدعو رجلاً ممتلاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعو فيقبل ويتهلل وجهه يضحك^(٣) . فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين

(١) ممحلين : أمحل القوم : أجدبوا ، انظر لسان العرب ، مادة (محل) .

(٢) يعاسيب : جمع يعسوب ، واليعسوب : أمير النحل وذكرها ، ثم كثر ذلك حتى سموا كل رئيس يعسوباً . انظر لسان العرب ، مادة (عسب) .

(٣) قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال فيتوجه قبله رجل من المؤمنين فتلقاه المسالحة مسالحة الدجال ، فيقولون له : أين تعمد ؟ فيقول : أعمد إلى هذا الذي خرج ، قال : فيقولون له : أو ما تؤمن بربنا ؟ فيقول : ما برئنا خفاء . فيقولون : اقتلوه - فيقول بعضهم لبعض : أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه . قال : فينطلقون به إلى الدجال ، فإذا رآه المؤمن ، قال : يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ . قال : فيأمر الدجال به فيشج . فيقول : خذوه وشجوه ، فيوسع ظهره وبطنه ضرباً . قال : فيقول : أو ما تؤمن بي ؟ فيقول : أنت المسيح الكذاب . قال : فيؤمر به فيؤشر بالمشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه . قال : ثم يمشي الدجال بين القطعتين ، ثم يقول له : قم ، فيستوي قائماً . قال : ثم يقول له : أتؤمن بي ؟ فيقول : ما ازددت فيك إلا بصيرة . قال : ثم يقول : يا أيها الناس إنه لا يفعل بعدي بأحد من الناس . قال : فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً فلا يستطيع إليه سبيلاً . قال : فيأخذ يديه ورجليه فيقذف به فيحسب الناس إنما قذفه إلى النار ، وإنما ألقى في الجنة . فقال رسول الله ﷺ : هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين . رواه مسلم ، ٨ / ١٩٩ - ٢٠٠ .

مَهْرُودَتَيْنِ (١) وَاضْعًا كَفَيْهِ عَلَى أَجْنَحَةِ مَلَكَئِن ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسُهُ قَطْرًا ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ . فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ ، فَيَطْلُبُهُ (٢) حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ (٣) فَيَقْتُلُهُ . ثُمَّ يَأْتِي عَيْسَى بْنُ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ ، فَيَبِينُ مَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عَيْسَى ابْنِي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ ، فَحَرَّرْتُ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ . وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ (٤) فَيَمِرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبْرِيَّةِ (٥) ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا ، وَيَمِرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ : لَقَدْ كَانَ بِهِذِهِ مَرَّةً مَاءٌ ، وَيُحْصِرُ نَبِيُّ اللَّهِ عَيْسَى

(١) مهروودتين : الهرد : العروق التي يُصْبَغُ بها . وفي الحديث النبوي ، قال الفراء : الهرد : الشق . . . وقال الأزهري : الثوب المهروود الذي يُصْبَغُ بالورس ثم بالزعفران فيجيء لونه مثل لون زهرة الخوذانة ، فذلك الثوب المهروود . انظر لسان العرب ، مادة (هرد) .

(٢) حَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ حَدِيثًا طَوِيلًا عَنِ الدَّجَّالِ ، فَكَانَ فِيهَا حَدِيثٌ بِهِ أَنَّ أُمَّ شَرِيكَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ ، قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيْنَ الْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : « هُمْ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ ، وَجُلَّهُمُ بَيْتُ الْمَقْدِسِ . وَإِمَامُهُمْ رَجُلٌ صَالِحٌ . فَيَبِينُ مَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ الصُّبْحِ . فَجَرَعَ ذَلِكَ الْإِمَامُ يَنْكُصُ ، يَمِشِي الْفَهْقَرِي ؛ لِيَتَقَدَّمَ عَيْسَى يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ . فَيَضَعُ عَيْسَى يَدَهُ بَيْنَ كَتْفَيْهِ ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : تَقَدَّمَ فَصَلِّ . فَإِنِهَا لَكَ أَقِيمَتْ . فَيُصَلِّيَ بِهِمْ إِمَامُهُمْ ، فَإِذَا انْصَرَفَ ، قَالَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : افْتَحُوا الْبَابَ . فَيَفْتَحُ وَرَاءَهُ الدَّجَّالُ . مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ ، كُلُّهُمْ ذُو سَيْفٍ مُحَلَّى وَسَاجٍ . فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الدَّجَّالُ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمَلْحُ فِي الْمَاءِ ، وَيَنْطَلِقُ هَارِبًا . وَيَقُولُ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ لِي فِيكَ ضَرْبَةً لَنْ تَسْبِقَنِي بِهَا . فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ اللُّدِّ الشَّرْقِيِّ فَيَقْتُلُهُ . فَيَهْزِمُ اللَّهُ الْيَهُودَ . فَلَا يَبْقَى شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ يَتَوَارَى بِهِ يَهُودِيٌّ إِلَّا أَنْطَقَ اللَّهُ ذَلِكَ الشَّيْءَ . لَا حَجَرَ وَلَا شَجَرَ وَلَا حَائِطٌ وَلَا دَابَّةٌ إِلَّا الْغَرَقُودَةُ فَإِنَّهَا مِنْ شَجَرِهِمْ ، لَا تَنْطِقُ ، إِلَّا قَالَ : يَا عَبْدَ اللَّهِ الْمَسْلُومُ هَذَا يَهُودِيٌّ . فَتَعَالَ أَقْتُلُهُ . رواه ابن ماجه ، ٢ / ١٣٦١ - ١٣٦٢ ، واللفظ له ، ورواه مسلم ، ٨ / ١٧٦ .

(٣) لُدٌّ : قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين ، انظر : معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، ١٥ / ٥ .

(٤) الأنبياء : ٩٦ . . . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « تَفْتَحُ يَا جُوجُ وَمَأْجُوجُ وَيَنْحَازُ مِنْهُمْ الْمَسْلُومُونَ ، حَتَّى تَصِيرَ بَقِيَّةُ الْمَسْلُومِينَ فِي مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ . وَيَضْمُونُ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ ، حَتَّى أَنْتَهُمْ لَيَمْرُونُ بِالنَّهْرِ فَيَشْرَبُونَهُ ، حَتَّى مَا يَذُرُونَ فِيهِ شَيْئًا . فَيَمِرُّ آخِرُهُمْ عَلَى أَثَرِهِمْ . فَيَقُولُ قَائِلُهُمْ : لَقَدْ كَانَ بِهَذَا الْمَكَانِ مَرَّةً مَاءٌ . . . » الحديث رواه ابن ماجه ، ٢ / ١٣٦٣ .

(٥) بحيرة طبرية : وصفها ياقوت الحموي ، فقال : هي كالبركة تحيط بها الجبال ، ويصب فيها فضلات أنهر كثيرة تجري من جهة بانياس والساحل والأردن الأكبر ، وينفصل منها نهر =

وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم (١) .
 فيرغبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه فيرسلُ الله عليهم النَّغْفَ (٢) في رقابهم
 فيُصْبِحُونَ فَرَسِي (٣) كموتِ نفسٍ واحدة . ثم يهبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى
 الأرض ، فلا يجدون في الأرض موضعَ شبرٍ إلا ملاءُ زهمهم (٤) ، وتنتهم .
 فيرغبُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسلُ الله طيراً كأعناق البخت (٥)
 فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله (٦) . ثم يرسلُ الله مطراً لا يكنُ (٧) منه بيت
 مدر ولا وبر فيغسلُ الأرض حتى يتركها كالزلف (٨) . ثم يقالُ للأرض : أنبتي
 ثمرتك وردِّي بركتك فيومئذٍ تأكلُ العصابةُ من الرمانة ، ويستظلون بقحفها (٩) ،

= عظيم فيسقي أرض الأردن الأصفر ، وهو بلاد الغور ، ويصب في البحيرة المنتنة - وهي
 بحيرة زغر قرب أريحا . انظر معجم البلدان ، ١ / ٣٥٢ .

(١) قال مسلم ، إن ابن حجر قال : دخل حديث أحدهما في حديث الآخر عن عبد الرحمن بن
 يزيد بن جابر ، بهذا الإسناد نحو ما ذكرنا ، وزاد بعد قوله : لقد كان بهذه مرة ماءً ، ثم
 يسرون حتى يتهوا إلى جبل الخمر ، وهو جبل بيت المقدس فيقولون : لقد قتلنا من الأرض
 هلم فلقنقتل من في السماء فيرمون بنشابهم إلى السماء فيردُّ الله عليهم نشابهم مخضوبة دماً . «
 ١٩٩ / ٨ ..

- (٢) النَّغْفُ : الدود الذي يكون في أنوف الإبل والغنم . انظر لسان العرب ، مادة (نغف) . .
 (٣) فرسى : الأصل في الفرس دق العنق ، ثم كثر حتى جعل كل قتل فرساً ، وقوله الكريم : «
 فيصبحون فرسى » : أي قتلى . انظر المصدر السابق ، مادة (فرس) .
 (٤) زهمهم : الزهومة : ریح لحم سمين متن ، ولحم زهم : ذوزهومة . والزهم : السمين ،
 ومعنى الحديث النبوي : أن الأرض تنتن من جيفهم . انظر المصدر السابق ، مادة (زهم) .
 (٥) البخت : جمال طوال الأعناق ، المصدر السابق ، مادة (بخت) .
 (٦) وزاد الترمذي في سننه ، قول النبي ﷺ : « فتطرحهم بالمهبل ويستوقد المسلمون من قسيهم
 ونشابهم وجعابهم سبع سنين » ، ٣ / ٣٤٨ .
 (٧) يكنُ : من كنت الشيء إذا سترته وصتته ، انظر لسان العرب ، مادة (كن) . .
 (٨) الزلف : مصنعة الماء ، أراد أن المطر يغدر في الأرض ، وقيل : المرأة ، شبه الأرض بها
 لاستوائها ونظافتها . وقيل : الروضة . . انظر المصدر السابق ، مادة (زلف) . .
 (٩) القحف : العظم الذي فوق الدماغ من الجمجمة ، المصدر السابق ، مادة (قحف) .

وَيُبَارِكُ فِي الرَّسْلِ حَتَّىٰ إِنَّ اللَّقْحَةَ (١) مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفَتَامَ (٢) مِنَ النَّاسِ ،
وَاللَّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ ، وَاللَّقْحَةَ مِّنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَحْذَ مَنِ
النَّاسِ . فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ أَبْطَاهُمْ فَتَقْبِضُ
رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ ، وَيَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارِجَ الْحَمْرِ
فَعَلَيْهِمْ تَقَوْمُ السَّاعَةِ (٣) .

تحليل الخبر القصصي الكريم :

الإيمان بيوم القيامة أصل من الأصول ، لا يتم الإيمان إلا به ﴿ ليس البر أن
تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر
والملائكة والكتاب والتبيين وأتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين
وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم
إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا
وأولئك هم المتقون ﴾ (٤) .

وأعلن الله عز وجل لعباده في كتابه الكريم عن قرب يوم القيامة ﴿ الله الذي
أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ (٥) . ولكن وقت
وقوعها من خصائص علم الله لا يعلمه إلا هو ، فهي إحدى مفاتيح الغيب الخمسة
التي هي من مكنونات علم الله ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم
ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت
إن الله عليم خبير ﴾ (٦) ، وإذا كان الله عز وجل قد أخفى وقت وقوع الساعة عن
عباده جميعاً ، فإنه تبارك وتعالى أعلمهم بعلامات تدل على قرب وقوعها ،
ولهذا وردت أحاديث كثيرة عدد فيها الرسول ﷺ جملة من أشراط الساعة ، عن

(١) اللقحة : الناقة القرية العهد بالتاج ، المصدر السابق ، مادة (لقح) .

(٢) الفتام : الجماعة من الناس ، المصدر السابق ، مادة (فأم) .

(٣) رواه مسلم ، ١٩٧ / ٨ - ١٩٨ ، والترمذي ، ٣٤٨ / ٣ ، وابن ماجه ، ١٣٥٦ / ٢ - ١٣٥٩ .

(٤) البقرة : ١٧٧ .

(٥) الشورى : ١٧ .

(٦) لقمان : ٣٤ .

أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة ، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل وتتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج وهو القتل وحتى يكثر فيكم المال وحتى يهيم رب المال من يقبل صدقته وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه لا أرب لي به ، وحتى يتطاول الناس في البنيان وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورأها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً »^(١) ، وهذه الأشرطة التي ذكرها الرسول ﷺ في هذا الحديث ، وفي أحاديث أخرى كثيرة سماها علماء المسلمين بأحاديث الفتن وهي أحداث يفصل النبي ﷺ ، ويبين من خلالها ما ورد في القرآن الكريم في صورة إشارة مبهمة أو جزئية مجملة ، يعرضها الرسول الكريم تحذيراً وترهيباً . . . إنها إرهابات الساعة ، ومقدماتها التي تأتي حافلة بألوان شتى من الابتلاء والامتحان الشديد ، ومن أهم هذه الإرهابات الشديدة الابتلاء : خروج الدجال ؛ لأن خروجه - كما قال العلماء - أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض ، وينتهي ذلك بموت عيسى بن مريم عليه السلام ، كما أن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير العالم العلوي ، وينتهي ذلك بقيام الساعة^(٢) ، ولأن فتنته - أعني فتنة الدجال - من أعظم الفتن التي تمر على البشرية عبر تاريخها . قال رسول الله ﷺ : « إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال . وإن الله لم يبعث نبياً إلا حذر أمته الدجال . وأنا آخر الأنبياء . وأنتم آخر الأمم . وهو خارج فيكم لا محالة »^(٣) .

(١) رواه البخاري ، ٨ / ١٠١ .

(٢) ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري ، ١١ / ٣٥٣ .

(٣) رواه ابن ماجه ، ٢ / ١٣٥٩ .

ولذلك يوجه النبي ﷺ - في هذا الخبر القصصي الشريف - أنظار الصحابة الكرام إلى أخذ الحيطة والحذر ، بل يشدد في التحذير . . . نستشعر ذلك من قول راوي الحديث : (. . . قلنا : يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورقعت حتى ظنناه في طائفة النخل ، فقال : غير الدجال أخوفني عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم . . .) لقد أدرك الصحابة - رضوان الله عليهم - مزيد حرص المصطفى عليه الصلاة والسلام في التنبيه والتحذير من الدجال ، حتى وقع في قلوبهم ، وملك عليهم مشاعرهم ، فظنوه على مقربة منهم ، فهذه مبالغة عن أثر ما أسمعهم الرسول عنه وعن فتنته . . . كما نستشف شدة حرص النبي ﷺ على تحذير أمته من خلال المطابقة (خفض ورفع) (١) .

يقرر النبي ﷺ - في أول الخبر القصصي - خوفه على أمته من الدجال ، وإن كان في قوله الكريم : « غير الدجال أخوفني عليكم » ما يشير إلى أن هناك أموراً أخرى هي أشد خطراً على الأمة منه ، لكن ليس الآن وقت الحديث عنها . . . فالدجال هو بؤرة الاهتمام الآن ، والمقام يقتضي مزيداً من التقرير والبيان عنه .

وإذا تأملنا الأسلوب الكريم في قوله : « إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم » وجدنا أن أداة الشرط (إن) وإن كانت تفيد بحسب الوضع اللغوي عدم جزم المتكلم بوقوع الشرط في الزمن المستقبل ، فليس معنى هذا أن الرسول ﷺ شك ، أو غير متوقع خروج الدجال ، إنه على العكس متيقن من خروجه ، وموضع الشك هو الزمن ، فهو عليه الصلاة والسلام لا يعلم زمان خروجه ، والمعنى المراد هو التأكيد على وقوع فتنته وشره ، فإنه خارج لا محالة . . .

(١) قال النووي في تفسيره قولان : أحدهما : أن خفض بمعنى حقر ، وقوله : رفع بمعنى عظم وفتح . فمن تحقيره وهوانه على الله تعالى عوره ، وضمحلل أمره ، وقتله بعد ذلك هو وأتباعه . . . ومن تفخيمه وتعظيم فتنته والمحنة به ما معه من الأمور الخارقة للعادة . وأنه ما من نبي إلا وقد أئذره قومه . . . والثاني : أنه خفض من صوته في حال الكثرة فيما تكلم فيه ، فخفض بعد طول الكلام والتعب ليستريح ، ثم رفع ليبلغ صوته كل أحد . . . انظر صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٨ / ٦٣ .

والقييد بالحال في العبارة النبوية : « وأنا فيكم ، ولست فيكم » يفيد ذلك ، كما أن جواب الشرط (فأنا حجيجه - فامرؤٌ حجيج نفسه) يشير إلى أنه ينبغي مواجهته وغلبته بالحجة والبرهان وتقديم المسند إليه في القول الكريم (فأنا حجيجه) يفيد معنى الاختصاص ، بمعنى أن النبي ﷺ - وحده دون غيره - غالبٌ عليه بالحجة والبرهان ، وذلك حال وجوده عليه الصلاة والسلام بين المسلمين . أما إذا كان غير موجود بين ظهرائهم فكل امرئ يحاجه ويحاوره ، ويصدع بالحق ليزهق باطله . . . وفي التعبير بالجملة الخبرية لإفادة معنى الأمر ، أي ليحاجه كل امرئ عن نفسه ، ما يشير إلى الرغبة والإلحاح الشديد في المدافعة عن النفس ، ومعه دعاء الرسول الكريم بأن يحفظه الله منه ، وينصره عليه (والله خليفتي على كل مسلم) .

أوصاف الدجال :

إذا كان الدجال وفتنته من الغيبات التي يجهلها السامعون ، فإن النبي ﷺ قد وصفه لأصحابه وصفاً يبرز شخصيته ويحدد معالمها ؛ كي لا يغتر الناس بما يأتي من أعمال يروج بها باطله ، وليستطيعوا مواجهته وإبطال أمره يخبرنا النبي ﷺ بقوله الكريم : « إنه شاب ققط ، عينه طافئة كأنني أشبهه بعبد العزى بن قطن » . فأول أوصافه : قصر قامته ، وشدة اكتناز جسمه^(١) . . . كما أنه أعور ، وأكد النبي ﷺ على وصف عيني الدجال ، وأن بهما عيوباً أوضحها العور ، في أحاديث كثيرة^(٢) ؛ لأن العور أثرٌ محسوس يدركه العالم والعامي ، فوصفها

(١) وردت أحاديث نبوية أخرى بوصف تلك الجعودة في شعره مع ضخامة جسمه . قال النبي ﷺ : « بينا أنا نائم أطوف بالكعبة ، فإذا رجلٌ سبطُ الشعر ينطف أو يهراق رأسه ماءً . قلت : من هذا؟ قالوا : ابنُ مريمَ ، ثم ذهبُ التفتُ فإذا رجلٌ جسيمٌ أحمرٌ جعدُ الرأسِ أعورُ العينِ كأنَّ عينه عنبةٌ طافية ، قالوا : هذا الدجال ، أقرب الناسِ به سبهاً ابنُ قطنٍ رجلٌ من خزاعة » . رواه البخاري ، ١٠٢ / ٨ .

(٢) وردت عدة روايات في وصف عور الدجال ، وتقريب صورته لأذهان السامعين بعدة تشبيهات منها : تشبيه النبي ﷺ عينه بالعنبة الطافية ، كما ورد في قوله الكريم : « أعورُ عينِ اليمنى كأنها عنبةٌ طافية » ، انظر الموضع السابق .

وفي حديث آخر وصفت تلك العين بالبحوظ في قوله ﷺ : « وعينه اليمنى عوراء جاحظة =

المصطفى عليه الصلاة والسلام بذهاب نورها ، وانتفاء إدراكها . . . كما أنه ﷺ يشبهه في هيئته وخلقته بشخص يدعى عبد العزى بن قطن . قال الطيبي : « قيل إنه كان يهودياً ، ولعل الظاهر أنه مشرك ؛ لأن العزى اسم صنم ، يؤيده ما جاء في بعض الحواشي - قول الزهري - هو رجل من خزاعة وهلك في الجاهلية » (١) ولعل السر في توالي أداتي التشبيه - كأن ، وأشبه ، الإشعار بقوة الشبه والتماثل بين الطرفين . (٢)

وقد أمر الرسول ﷺ من أدركه أن يقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، فهي أمان من فتنته . . . وقد يقال : لم كانت قراءة فواتح سورة الكهف أماناً من الدجال ؟ قال الطيبي : « إخبار الله عز وجل في هذه السورة بأنه - تقديس اسمه - آمن أولئك الفتية وعصمهم من فتنة دقيانوس الجبار ، فناسب أن من قرأ هذه الآيات وحاله كحالهم أن ينجيه كما أنجاهم » (٣) . . . وفي التعبير بالماضي (أدركه) دلالة على تحقق الوقوع ، كما أن معنى الاستقبال متحقق في الأصل من خلال أداة الشرط والجملة الطلبية ، وكل ذلك يؤكد حرص النبي ﷺ على تصدي الناس لمزاعم الدجال وخداعه .

= لا تخفى كأنها نخاعة في حائط مُجصص ، وعينه اليسرى كأنها كوكبٌ دريٌّ رواه أحمد في المسند ، ٧٩ / ٣ . . . واستطاع القاضي عياض - رحمه الله - الجمع بين هذه الروايات ، بقوله : إن عيني الدجال معيتان كلتاهما ، إحداهما لا يرى بها لذهاب نورها ، وهذه ممسوحة والأخرى لم يذهب نورها ، ولكنها معيبة بعيب آخر وهو نتوؤها ويروزها . . . انظر ، صحيح مسلم بشرح النووي ، ٢ / ٢٣٥ ، وفتح الباري ، ١٣ / ٩٧ - ٩٨ .

(١) انظر ، شرح مشكاة المصابيح ، المسمى بالكاشف عن حقائق السنن ، تحقيق : نعيم أشرف ، وشيبر أحمد ، وبديع السيد اللحام ، ١٠ / ١١١ ، منشورات إدارة القرآن والعلوم الإسلامية ، كراتشي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ .

(٢) تفيد أداة التشبيه (كأن) قوة الشبه بين الطرفين ، وتستعمل حين لا يكاد الرائي يشك في قوة الاتحاد بين المشبه والمشبه به ، انظر كتاب (عروس الأفراح) ، بهاء الدين السبكي ، ضمن شروح التلخيص ، ٣ / ٣٩٤ . . . كما أن أداة التشبيه الأخرى (أشبه) الأصل فيها ألا يميز أحد الشئيين عن الآخر لما بينهما من التشابه ، انظر كتاب (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز) ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، تحقيق : محمد علي النجار ، ١ / ٢٩٣ ، مطبعة نهضة مصر ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

(٣) انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ، محمد عبد الرحمن المباركفوري ، ٦ / ٥٠٠ .

بعد تلك المقدمة التمهيدية ، التي استطاعت بجمالها التقريرية السريعة أن تقدم لنا صورة للخبر القصصي ، وما يكتنف أحداثه من ظروف وملابسات . كما أنها استطاعت أن تحمل في ثناياها جوانب تشويقية ، تنبه اهتمام السامعين لما سيأتي ؛ للتركيز واستحضار الأذهان يشرع الرسول ﷺ في تحديد مكان خروجه ومدة لبثه وفتنته . .

مكان خروجه :

يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام : « إنه خارجٌ خلة بين الشام والعراق ، فعاث يميناً وعاث شمالاً ، يا عباد الله فاثبتوا » .

يخرج الدجال من موضع بين الشام والعراق لم يذكره الرسول ﷺ في هذا الحديث الشريف ، لكنه ذكر - في حديث آخر كما أسلفنا - أن هذا الموضع هو خراسان (١) وعندئذ يجول في أقطار الأرض ، ولا يترك بلداً إلا دخله - إلا مكة والمدينة محرمٌ عليه دخولهما ، كما صرّحت بذلك الأحاديث النبوية (٢) - فيشتد بلاؤه ، ويسرع فساده وكفى النبي ﷺ بقوله الكريم : « عاث يميناً وعاث شمالاً » عن انتشار فتنته واتساعها كما أن في استعارة الزمن الماضي لما سيقع من أحداث ما يشعر بتحقق الوقوع ، فشبه (العيث) في المستقبل بالعيث في الماضي ، بجامع تحقق الوقوع في كلِّ ، ثم استعير (العيث) في الماضي (للعيث) في المستقبل ، ثم اشتق من العيث (عاث) بمعنى يعيث ، استعارة تصريحية تبعية في زمن الفعل . والقرينة حالية . ولهذا كان التعبير بالفعل الماضي (عاث) بدلاً من المضارع (يعيث) أبلغ في البيان . . كما أنه يثير في

(١) انظر الحديث النبوي المذكور ، ص ١٨٦ ، هامش رقم ٥ ، من هذا البحث حيث يقول فيه النبي ﷺ : « إن الدجال يخرج من أرض بالمشرق ، يقال لها : خراسان ، يتبعه أقوام ، كأن وجوههم المجان المطرقة » رواه أحمد ، ٤ / ١ ، والترمذي ، ٣ / ٣٤٥ .

(٢) انظر الحديث النبوي ، المذكور ص ١٨٦ ، هامش رقم ٧ من هذا البحث يقول النبي ﷺ : « ليس من بلد إلا سيطره الدجال إلا مكة والمدينة ، وليس نقب من أنقابها إلا عليه الملائكة صافين تحرسها فينزل بالسبخة ، فترجف المدينة ثلاث رجفات يخرج إليه منها كل كافر ومنافق . » رواه مسلم ، ٨ / ٢٠٦ .

النفوس الرعب والخوف ؛ لينهض فيها جانب الحذر والحيلة . ولذا ابتداء الخطاب بالنداء (عباد الله) استنهاضاً لهذه الأمة وبعثاً لمكامن القوة فيها ، حيث هي الأمة المكلفة بتحقيق عبودية الله عز وجلّ وعبادته في الأرض ، يؤكد هذا كون المنادى مضافاً إلى لفظ الجلالة ، مبعث القوة . ومن هنا حذف فعل الشرط وأداته وبقي الجواب (فاثبتوا) أي (إن تقاوموه فاثبتوا) لأنكم في موطن جهاد .

مدة لبثه في الأرض :

لقلق الصحابة - رضوان الله عليهم - من شدة فتنة هذا الدجال ولخوفهم على أنفسهم من الوقوع في برائته ، بادروا بالسؤال عن الفترة الزمنية التي يمكثها الدجال في الأرض فقالوا : « يا رسول الله وما لبثه في الأرض ؟ قال : أربعون يوماً ، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم . قلنا : يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا ، اقدروا له قدره . . قلنا : يا رسول الله وما إسرأه في الأرض ؟ قال : كالغيث استدبرته الريح . » أخبرهم النبي ﷺ أن مدة فتنته أربعون^(١) يوماً ، البعض منها يمتد طويلاً ، قدرها المصطفى الكريم بيوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، ويمكن حمل طول اليوم على الحقيقة أو المجاز ، وقال الطيبي : « هو كناية عما يلاقه الناس من شدة البلاء ، وتفاقم البأساء والضراء ، حتى خيل إليهم أن الزمان قد استقر على حالة واحدة »^(٢) . وقد يراد طول اليوم على الحقيقة والواقع ، فيصبح في طوله

(١) ورد حديث نبوي عن عبد الله بن عمرو يقول فيه النبي ﷺ : « يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين ، لا أدري أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً . . . » الحديث ، وأخرج الطبري من وجه آخر حديث عبد الله بن عمرو - المذكور - بلفظ : « يخرج - يعني الدجال - فيمكث في الأرض أربعين صباحاً يرد فيها كل منهل إلا الكعبة والمدينة وبيت المقدس » . فعلى ذلك جزم شراح الحديث بأنها أربعون يوماً مقدم على ذلك الترديد - الذي ورد في قول ابن عمرو الأول - انظر ، فتح الباري ، ١٣ / ١٠٤ .

(٢) شرح مشكاة المصابيح المسمى بالكاشف عن حقائق السنن ، ١٠ / ١١١ . . . كما أن الحديث النبوي ورد برواية أخرى ، جاء فيها قول النبي ﷺ : « وإن أيامه أربعون سنة . السنة كنصف السنة والسنة كالشهر والشهر كالجمعة . وآخر أيامه كالشجرة ، يصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسي ، فقيل له : يا رسول الله كيف نصلي في تلك الأيام القصار ؟ قال : تقدرون فيها الصلاة كما تقدرونها في هذه الأيام الطوال ، ثم صلوا » رواه ابن ماجه ، ٢ / ١٣٦٢ .

كالسنة ، وكالشهر ، وكالجمعة ، وربما - عندي يكون هذا هو المعنى المراد ، وأستأنس في ذلك بقول المصطفى الكريم : « وسائر أيامه كأيامكم » كما أن الصحابة - رضوان الله عليهم - سألوا الصادق المصدوق عليه السلام عن أداء الصلوات المفروضة في تلك الأيام الطوال ، فأجابهم بقوله الكريم : « اقدروا له قدره » قال النووي : « بمعنى أنه إذا أمضى بعد طلوع الفجر قدر ما يكون بينه وبين الظهر كل يوم فصلوا الظهر ، ثم إذا مضى بعده قدر ما يكون بينها وبين العصر فصلوا العصر ، وإذا مضى بعد هذا قدر ما يكون بينها وبين المغرب فصلوا المغرب ، وكذا العشاء والصبح ، ثم الظهر ثم العصر ثم المغرب ، وهكذا حتى ينقضي ذلك اليوم ، وقد وقع فيه صلوات سنة فرائض كلها مؤداة في وقتها . وأما الثاني الذي كشره ، والثالث الذي كجمعة فقياس اليوم الأول ، أن يقدر لهما كالיום الأول على ما ذكرناه ، والله أعلم . (١) »

وفي توجيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم للصحابة - رضوان الله عليهم - بقوله الكريم : « اقدروا له قدره » ما يشير إلى الاستعانة على فتنة الدجال بالصلاة والدعاء والذكر وبالصبر ، فغالباً ما يكون ارتباط الصلاة بالصبر في مثل هذه المواقف ، استئناساً بقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (٢) .

وبعد أن أدرك الصحابة - رضوان الله عليهم - مدة فنتته كما أخبرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم سألوا المصطفى الكريم عن سرعتها وانتشارها . فأجابهم الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله الكريم : « كالغيث استدبرته الريح » ، وبالتأمل في هذه العبارة النبوية الكريمة نجد أن الصورة البيانية فيها استطاعت تقريب ذلك الأمر الغيبي . . . حيث شبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم حالة إسراع فتنة الدجال وعمومها في الأرض بصورة الغيث حال استدبار الريح الشديدة له . . . ومن خلال عناصر المشبه به وألفاظه نلمح أموراً تسعى جاهدة لسير أغوار المشبه وعناصره - أعني الدجال وحقيقة فنتته - ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا رأى ريحاً أو غيماً عرف ذلك في وجهه

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٨ / ٦٦ .

(٢) البقرة : ٤٥ - ٤٦ .

مخافة العذاب ، عن السيدة عائشة - رضي الله عنها - قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا كان يومُ الرِّيحِ والغيمِ عُرِفَ ذلكَ في وجهه وأقبلَ وأدبرَ ، فإذا مَطَرَتْ سُرَّ به وذهبَ عنه ذلكُ . قالت عائشة : فسألته ، فقال : إني خشيتُ أن يكونَ عذاباً سَلَّطَ على أمتي ، ويقول إذا رأى المَطَرَ : رَحْمَةٌ . (١) » وعنهما - رضي الله عنها - أنها قالت : « ما رأيت رسول الله ﷺ مُسْتَجْمِعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته ، إنما كان يتبسَّمُ . قالت : وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرِفَ ذلكَ في وجهه ، فقالت : يا رسول الله أرى الناس إذا رأوا الغيمَ فَرِحوا رَجَاءً أن يكونَ فيه المَطَرُ ، وأراك إذا رأيته عُرِفَتْ في وجهك الكراهية . قالت : فقال : يا عائشة ما يؤمنني أن يكونَ فيه عذابٌ ، قد عَذَّبَ قومٌ بالريحِ ، وقد رأى قومُ العذابِ فقالوا : هذا عارضٌ مُمَطَّرُنَا (٢) » . . . وقال صاحب بصائر ذوي التمييز (٣) : « وعامة المواضع التي ذكر الله تعالى فيها الريح بلفظ الواحد فعبارة عن العذاب ، وكل موضع ذكر بلفظ الجمع فعبارة عن الرحمة ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصِراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥) . . . »

إحساس النبي ﷺ تجاه فتنة الدجال ، وما يكتنفها من تمويه باطل يستطيع به خداع السذج ، ومن في قلوبهم مرض ، فيستجيبون له - إما رغبة أو رهبة - وتسري دعواه بينهم حتى تعم أرجاء الأرض ، فإذا به يسوقهم إلى ما فيه هلاكهم . أقول : إحساس النبي الكريم بذلك الأمر كما إحساسه عليه الصلاة والسلام تجاه الرِّيحِ الشديدة وهي تسوق غيماً منتشرًا ، وتسرع به ، وما يكتنف ذلك الخوف من العذاب . . . فالمشبه صورة انتشار فتنة الدجال ، وما فيها من

(١) رواه مسلم ، ٣ / ٢٦ . .

(٢) نفس المصدر والموضع السابق ، رواه أحمد في مسنده ، ٦ / ٦٦ . .

(٣) الفيروزآبادي ، ٣ / ١٠٧ .

(٤) القمر : ١٩ . .

(٥) الأعراف : ٥٧ . .

الشر والبلاء والفساد . والمشبه به صورة الريح الشديدة حال استدبارها الغيث ، وما تثيره من الرهبة والفرع . . . ووجه الشبه سرعة الانتشار مع الخوف من خطر محقق . . . والغرض من التشبيه : بيان حال المشبه لكونه مبهماً غير واضح لدى السامعين ، فبينه النبي ﷺ بالمشبه به ، وبعناصر من بيئتهم مألوفة لديهم . فسرعة تسيير الرياح للغيث أشد وضوحاً من سرعة انتشار فتنة الدجال التي اتضحت معالمها وتحددت صورتها بعد ذكر المشبه به ، فصارت معلومة بعد أن كانت مجهولة ، وجليّة بعد أن كانت خفية . . . والتشبيه التمثيلي أقدر على تصوير المعاني الذهنية في صورة حسية .

فتنه :

يحدثنا الرسول ﷺ عن فتنته بقوله الكريم : « فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له . فيأمر السماء فتُمْطِرُ ، والأرض فتُتَبِتُ . فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً ، وأسبغهُ ضروعاً ، وأمدّه خواصر . ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ويمرُّ بالخربة ، فيقول لها : أخرجي كنوزك فتبعه كنوزها كيغاسيب النحل ، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعهُ جزلتين رمية الغرض ثم يدعوهُ فيقبل ويتهلل وجهه يضحك . فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم . »

إن الدجال يدعي الألوهية ، ويُعطى من المعونات والخوارق ما يفتن الناس فتنة عظيمة ، تدهش العقول . كل ذلك ابتلاءً من الله عز وجل ؛ ليهلك المرتاب ، وينجو المتيقن . . . ولا يغتر به إلا رعاة الناس ؛ لسد الحاجة أو اتقاء شره ، وأكثر أتباعه من اليهود والنساء^(١) . . . فيدعوهم إلى الإيمان به ، فيؤمنون به ،

(١) قال النبي ﷺ : « يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالة » رواه مسلم ، ٨ / ٢٠٧ ، وعلى رواية أحمد في مسنده ، ٤ / ٢١٦ ، أن النبي ﷺ قال : « يكون للمسلمين ثلاثة أمصار ، مصر بملتقى البحرين ومصر بالحيرة ومصر بالشام ، فيفرع الناس ثلاث فزعات فيخرج الدجال في أعراض الناس ، فيهزم من قبل المشرق ، فأول مصر يرده المصّر الذي بملتقى البحرين فيصير أهله ثلاث فرق : فرقة تقول : نشامه ننظر ما هو ، وفرقة تلحق بالأعراب ، وفرقة تلحق بالمصر الذي يليهم ، ومع الدجال سبعون ألفاً عليهم السيجان ، وأكثر تبعه اليهود والنساء . . . الحديث .

ويخضعون له بالعبودية . لما يظهره الله عزّ وجلّ على يديه من الخوارق . منها : أنه يأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، وترجع الأنعام إلى أصحابها من مرعاها بأفضل مما كانت عليه . . . ويأمر الخرائب أن تخرج كنوزها فتستجيب له . ومنها أنه يقتل - فيما يظهر للناس - رجلاً مؤمناً ثم يدّعي أنه أحياء^(١) . .

أما المؤمنون فيكذبونه ، ويردّون عليه دعواه ؛ لتيقنهم بكذبه وضلاله ولإدراكهم دلائل النقص فيه ، وعجزه عن إزالتها . . . فيصيبهم حينئذ الجذب والقحط ، وشدة البلاء من قلة المطر ، ويبس الأرض من الكلال . . . كل ذلك زيادة في المحنة التي يتلي بها الله عزّ وجلّ عباده المؤمنين .

وإذا تأملنا النص النبوي الكريم وجدنا أول ما يثيرنا سرّ التعبير بحرف الجر (على) في القول الكريم : « فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به » بينما حذف في المعنى المقابل في قوله ﷺ : « ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردّون عليه قوله » للدلالة على قوة الحق الذي يظهره الله عزّ وجلّ ، ليزهق الباطل . . . بينما يستعلي الدّجال بباطله على من آمنوا به واستجابوا له ، وناصروه . .

كما نستشعر من البيان النبوي الكريم روعة التنسيق والتناسق ، بين الكلمات والجمل ، فكل كلمة ترسم في الفكر والخيال صورة بيانية كاملة في روعتها ، ودقة تصويرها ، بل إن كل كلمة لها صورة بيانية أخرى فوق الإعجاز الذي جاء من حركة وترتيب الأفعال وتعاقبها في تسلسل عجيب بديع . . . فنجد حروف العطف المستعملة في هذه الأفعال المرتبة ترتيباً زمنياً دقيقاً . (فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له ، فيأمر السماء ، فتروح عليهم سارحتهم . . . ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردّون عليه قوله ، فينصرف عنهم . . .) فهو ما أن يأتي القوم فيدعوهم حتى يسارعون إلى الإيمان به ، والاستجابة له ، والإيمان والخضوع يستلزم الاستجابة له ، وهذا سرّ التعبير (بالواو) هنا - أعني في قوله الكريم : « فيؤمنون به ويستجيبون له » . . ثم يأتي بعد ذلك العطف (بالفاء) في قوله الكريم : « فيأمر السماء ، فتروح) لتعانق المحذوف (فيكافئهم) ، وهو مناسب للمقام حيث يفيد الترتيب والتعقيب السريع . . . ولذا احتل الصدارة

(١) انظر الحديث النبوي المذكور ص ١٨٧ ، هامش رقم ٣ من هذا البحث .

واستعمل دون غيره . ثم قال بعد ذلك : « ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون محلين » . . . فما أروع استعمال حرف العطف (ثم) فهو من أسرار هذه الجملة وروعيتها وعظمتها . . فما أسرع الدجال إلى أهل الباطل والافتراء ، يؤمنون به ويناصرونه فيكافئهم ، ويمكث بينهم مغدقاً عليهم . . . حتى إذا حملته قدماءه إلى قوم آخرين ، مؤمنين بربهم ، وموقنين بكذبه ودجله ، ردوا دعواه ، وجادلوه وكذبوه ، وصرفوه عنهم بشتى الطرق ، حتى إذا انصرف عاقبهم بالجدب . . . أقول : علاوة على مشاركة حروف العطف روعة هذا التصوير نجد الفعل (انصرف) أدق من غيره على تصوير تأثير تلك المجادلة ، وذلك التكريب تصويراً دقيقاً محكماً .

وإذا أنعمنا النظر - مرة أخرى - في العبارة النبوية الكريمة وجدنا النبي ﷺ يعرض دلائل فنتته في صور فنية متنوعة . . . نحو قوله الكريم : « فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت » عبر الرسول ﷺ بالمجاز المرسل (السماء) عن (السحاب) ، من إطلاق المحل على الحال ، فأطلق السماء وأراد السحاب ، والعلاقة المحلية . . . كما أسند عليه الصلاة والسلام الفعل (تطر) إلى ضمير السماء (السحاب) ، أي إلى غير الفاعل الحقيقي إسناداً مجازياً ، علاقته السببية ، وحقيقة الأمر أن سقوط الأمطار من السحاب ، وخروج النبات من الأرض من دلائل قدرته عز وجل . ولا يقع كل ذلك إلا بقدرته ومشئته ، وفي هذا الإسناد المجازي تأكيد على أن الفاعل الحقيقي هو الله عز وجل ، وما السحاب والأرض إلا مجرد سبيين ، ولكن لما تشابها - الفاعل الحقيقي والفاعل المجازي - في التعلق بالفعل صح الإسناد . . . وهذا يشير إلى شدة خداع الدجال للناس ودجله عليهم ، فخيل إليهم أن كلاً من السحاب والأرض يستجيب لأوامره .

كما نلمح في قوله الكريم : « فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً وأسبغة ضروعاً ، وأمدّه خواصر » صورة فنية أخرى ، كنى المصطفى عليه الصلاة والسلام بعلو أسنمة مواشيهم عن كثرة السمن فيها . وكنى عليه الصلاة والسلام بطول ضروعها عن كثرة اللبن ووفرته ، وبطول خواصرها عن شدة امتلائها من الشبع .

وفي قوله الكريم : « ويمرّ بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيغاسيب النحل » نجد فنتة أخرى تتمثل في مرور الدجال بالخربة وأمره

لها بإخراج خيرات الأرض كلها على عمومها وتنوعها ، فتستجيب لأمره فتتبعه تلك الخيرات والكنوز كما يتبع النحل يعسوبه . . . والتعبير بصيغة الأمر (أخرجي) خرجت عن معناها الحقيقي الذي هو طلب الحصول على جهة الاستعلاء إلى المعنى المجازي وهو التسخير ، فهذه الخيرات الكثيرة سُخرت له ، ومن ثم يتفرع عن هذا التسخير الولاء من قبل الخربة وكنوزها ، فما أن يأمرها الدجال حتى تدعن له بالولاء ، وتنفذ الأمر عن طواعية ، ويتوالى بعضها إثر بعض ، ولهذا كان التعبير بمادة (التبع) أدق من غيرها ، نحو : تلحق أو تسير ، مثلاً .

كما نجد البيان النبوي الكريم يشبه اتباع كنوز الأرض وخيراتها الدجال باتباع جماعات النحل لأمرها (اليعسوب) بجامع الاتباع والاجتماع في كل
فها هي الكنوز تجتمع لديه كما يجتمع النحل على يعسوبه استجابة لأمره
علاوة على ذلك نجد البيان النبوي الكريم كان دقيقاً في انتقاء مادة التشبيه بالنحل ويعسوبه لما لها من صلة وثيقة بالمعنى ، من حيث التحذير والتخويف من الدجال ومن كل ما يتبعه ، كما أن لحوق النحل يعاسيبه يبعث في النفس الخوف والفرع . .
وفي قوله ﷺ : « . . . ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف ، فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه ، فيقبل ويتهلل وجهه يضحك » تصوير لذلك الرجل المؤمن حين يواجه الدجال بأباطيله ، ويصدع في وجهه بالحق
فيقتله الدجال - فيما يظهر ذلك للناس - ثم يدعي أنه أحياء فيقول له : أتؤمن بي ؟ فيقول المؤمن : ما ازددت فيك إلا بصيرة . فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه (١) إنه صراع بين الحق والباطل ، ينتهي بانتصار الحق . فهذا المؤمن يواجه من الدجال تنكيلاً وتعذيباً ، ولكن ذلك لا يصدده عن دينه ، ويظل يقاوم . . . ويكشف زيفه أمام الناس ويحذرهم منه .

وإذا تأملنا الأسلوب النبوي الكريم : « يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً » وجدنا دقة الألفاظ وتصويرها للمعنى . حيث كنى الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله الكريم : (ممتلئاً شباباً) عن قوة الرجل وجلده ولما كان البيان النبوي يرى أن الموقف يحتاج إلى بيان المعنى الحقيقي مصحوباً بالدليل ، كان التعبير بهذه

(١) انظر الحديث النبوي الكريم المذكور ص ١٨٧ ، وبهامش رقم ٣ من هذا البحث . .

الصورة الكنائية ، فهو قوي قادرٌ على محاجاته ومدافعتة ، ولهذا صورّه بصورة الشيء الممتلىء . . . كما أن التعبير البياني بطريق الكناية أنسب ؛ لكونه يزيد الكلام تأكيداً وإقناعاً من المعنى المجرد . . . علاوة على ذلك فإنها توحى للذهن القدرة على تخيل جسد ذلك الرجل المؤمن وقد ملئ بشيء مادي يُحس . . . وترتب على هذه الصورة الكنائية موقف آخر ساهم في تصعيد الحدث ، وخلق صورة جديدة تبين إلى أي مدى يستطيع الدجال التمويه على الناس والكذب عليهم ، وذلك حين نراه يضرب ذلك الرجل بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض (١) ، فالنبي ﷺ يشبهه في قوله الكريم : « ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً ، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض » القطع الذي يتثر فيه الجزأين في محيط معين بالمسافة التي تكون عندما يُرمى غرض فتتأثر أشلاؤه في محيط معين ، ووجه الشبه : المحيط المعقول الذي تتأثر فيه الأشلاء في كل من الطرفين . . . وفي تتابع الأحداث وتصاعدها جعل عنصر الزمن موجوداً فيها ، فالنبي ﷺ يبين ذلك أولاً بالفعل يدعوه ، ثم يضربه بالسيف ثم يقطعه ثم القطع يكون رمياً . . . والقطع له علاقة بالرمي من حيث السرعة في الزمن . لأن الرمي هو القطع الحاسم السريع النفاذ للغرض الذي يتم في ثوان معدودة ، ولذا استبدل المصطفى عليه الصلاة والسلام كلمة فيقطعه جزلتين قُطعة الغرض بقوله رمية الغرض . . . والغرض من التشبيه : بيان مقدار المشبه ، وإبرازه في هذه الصورة الحسية ؛ لتقريبه إلى الأذهان ، وتصوير التماثل التام بين الطرفين ، ومن هنا جاءت الصورة التشبيهية من قبيل التشبيه البليغ المبين للنوع . . . كما أن توالي الجمل الحالية (ويتهلل وجهه يضحك) يدفع كل تردد في تصديق ما سيحدث من تلك المواقف .

وحينما تعظم الفتنة وتستحكم الأزمة ، ويشتد البلاء والكرب بالمسلمين . عندئذ يعدون العدة لقتال الدجال وأتباعه - من اليهود وغيرهم - وبينما هم - أي الجيش الإسلامي - يسوون الصفوف ، إذ أقيمت صلاة الفجر ، فينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام عند المنارة البيضاء شرقي دمشق - كما أخبرنا بذلك النبي ﷺ (٢) - ويصلي خلف إمام المسلمين . . .

(١) وفي حديث نبوي آخر أن الدجال يمشي بين القطعتين ، ثم يقول له : قم . فيستوي قائماً . . . انظر الموضوع السابق من هذا البحث . .

(٢) انظر ، ص ١٨٨ ، وبهامش رقم ٢ ، من هذا البحث . .

نزول عيسى بن مريم عليه السلام :

أكرم الله عزّ وجلّ أمة محمد ﷺ بنزول هذا النبي الكريم ، فنزوله حدث هام جداً ، يشيع في قلوبهم الطمأنينة ، لعلمهم أن نزوله معناه نهاية الدجال وأتباعه من الضالين الكافرين يصف الرسول ﷺ حاله عند نزوله بقوله الكريم : « ينزل عند المنارة البيضاء شرقيّ دمشق بين مهرودتين ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدرّ منه جمان كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ ، فيقتله » يبعث الله عزّ وجلّ عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، كلما انحنى رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدرّ منه ما يشبه حبات الفضة واللؤلؤ وأُعطي لنفسه رائحة خاصة ، لا يجدها الكافر إلا مات ، ولا يقتل الدجال إلا بيده الشريفة . والسرف في ذلك - أعني عدم ترك عيسى عليه السلام الدجال يموت بنفسه - أن يدرك الناس كذب دعواه ، وباطل ادعائه ، ويتيقنوا أنه عبدٌ ضعيف مغلوب كما أن الله سبحانه وتعالى يُنزل عيسى عليه السلام بمعجزة أخرى - أعني تلك الرائحة الخاصة بنفسه ، التي لا يجدها الكافر إلا مات - ضمن معجزاته التي خصّها الله عزّ وجلّ بنبوته . .

فيأتي عيسى عليه السلام قومٌ تولى الله عزّ وجلّ حمايتهم وعصمتهم من شر الفتنة - ومن كان الله عزّ وجلّ له عاصماً فلا يملكُ العبادة له كيداً - وينضمون إلى لوائه عليه السلام فيمسح عن وجوههم ، ويزيل ما علق بها ، مبالغة في إكرامهم - كما كان هديه عليه الصلاة والسلام مع الحواريين^(١) - فيحتمل ، والحالة هذه - أن المسح على حقيقته ، بمعنى أنه عليه السلام يزيل عن وجوههم ما أصابها من غبار سفر الغزو أو أنه مستعارٌ لإزالة ما هم فيه من الشدة والكرب حيثئذ يهزم الباطل ، ويندحر جيش الدجال ويفرّ أتباعه في كلّ

(١) انظر قصص الأنبياء ، أبو الفداء إسماعيل بن كثير ، تحقيق : د / مصطفى عبد الواحد ، ٢ /

٧١٤ ، شركة مكة - للطباعة والنشر ، مكة المكرمة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

اتجاه ، ويطارد المسلمون فلولهم . وهي معركة يشارك في انتصارها مع المسلمين كل حي وجماد - كما ورد ذلك عن النبي ﷺ (١) . . . كما يدل استعمال تنكير وتنوين كلمة (قوم) على تشریفهم وتعظيمهم .

وإذا تأملنا الأسلوب النبوي الكريم : « . . . إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلامات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه » وجدنا كل كلمة ترسم في الفكر والخيال صورة كاملة في روعتها ، فهي تصور بحروفها وظلالها أموراً معنوية دقيقة . . . لقد كان للبيان النبوي القدرة الفائقة على اختيار الكلمات ذوات الإيقاع الموسيقي المحبب إلى النفس ، فالكلمات (طأطأ ، تحدر) من الألفاظ التعبيرية الدالة على الحركة ، والمصورة لها ، بحيث يحمل التعبير - نفسه - تشخيصاً حياً لكيفية الحركة وطبيعتها . . إن هاتين الكلمتين بإيقاعهما وبصيغتهما تؤديان الصورة ، ولو بدلتنا بما يراد فهما لما كانت الصورة نفسها .

وفي بيان إجمال ما يقطر من رأسه عند انحنائها قمة التعبير الشيق ، فقد يكون ماءً على الحقيقة ، ويؤيده قول الرسول ﷺ - من رؤيا يقصها على الصحابة رضوان الله عليهم ، ورؤيا الأنبياء حق - « بينا أنا نائم أطوف بالكعبة فإذا رجل آدم سبط الشعر ينطف أو يهراق رأسه ماءً ، قلت : من هذا ؟ قالوا : ابن مريم (٢) . . . » وقد يراد به الكناية عن مزيد النظافة والنضارة ، يؤيده التذييل الرائع في قول الرسول ﷺ : « . . . كأن رأسه يقطر ماءً ، وإن لم يصبه بلل » (٣) وفي ذلك ما لا يخفى من الحس .

ثم يشبه المصطفى عليه الصلاة والسلام ما يسقط من وجهه بالجمان ، والجمان هو حبات من الفضة على هيئة اللآلئ الكبار ، والجامع بين هذين

(١) انظر من هذه الأحاديث ما رواه أحمد في مسنده ، ٢١٧ / ٤ ، والحديث النبوي المذكور ص ١٨٨ ، وبهامش رقم ٢ ، من هذا البحث .

(٢) رواه البخاري ، ١٠٢ / ٨ ، وانظر ص ١٩٣ ، وبهامش رقم ١ من هذا البحث .

(٣) رواه أحمد في مسنده ، ٤٠٦ / ٢ .

الشيئين هو الكبر على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية . ثم شبه ذلك الجمان باللؤلؤ ، والجامع الصفاء والحسن . والغرض من هذا التشبيه بيان مقدار صفاء المشبه ونقاؤه .

وأسلوب القصر في قوله الكريم : « فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه » يفيد قصر الكافر الذي يجد ريح نفس عيسى عليه السلام على الموت ، ولا يتعداه إلى غيره أبداً . . . والقصر من قبيل قصر الموصوف على الصفة قصرًا حقيقياً . . . وسرّ التعبير بالفعل (يحلُّ) يشعر بالملزمة والإقامة حيث يقيم الكافر ، كما أن تعدية الفعل (يحل) بحرف (اللام) التي بمعنى (على) يفيد الدلالة على التمكن .

كما نلمح التعبير بالمجاز المرسل في قوله الكريم : « ينتهي طرفه » ، ويراد به انتهاء مرئيه أو رؤيته ، فأطلق السبب (الطرف) ، وأريد المسبب (الرؤية) والعلاقة السببية ، أو الآلية حيث الطرف هو آلة الرؤية .

وفي قول الرسول ﷺ : « . . . إذ أوحى الله إلى عيسى إني قد أخرجت عبداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور . . . » فالله عزّ وجلّ يلهم عيسى عليه السلام - حيث لا وحي ولا نبوة بعد نبينا محمد ﷺ - بخروج يأجوج ومأجوج أفواجاً أفواجاً ﴿ من كل حذب ينسلون ﴾^(١) ، فهم خلق كثير من^(٢) خلق الله ، لا قدرة ولا طاقة لأحد من عباد الله عزّ وجلّ بقتالهم . . . ومن هنا كان الأمر الإلهي بحفظهم وضمهم إلى الجبل .

وفي التعبير باليد عن القدرة مجاز مرسل علاقته الآلية أو السببية ، فالمدافعة لا تكون إلا باليد أو بسبب منها ، وفي تثنيها (يدان) تأكيد العجز عن المدافعة ، حتى كأن اليمين كليهما عاجزتان عن قتالهم . . . وفي إضافة العباد إلى ضمير المتكلم ، وهو الله سبحانه وتعالى في قوله (عبادي) إضافة تشريف . بينما إضافة اللام إلى ضمير المتكلم في القول الكريم : (عبداً لي) إضافة تخصيص .

(١) الأنبياء : ٩٦ . .

(٢) يدلّ على كثرتهم وكثرة عتادهم ، قوله ﷺ : « . . . ويستوقد المسلمون من قسيهم ونشابهم وجعابهم سبع سنين . . . » رواه الترمذي ، ٣ / ٣٤٨ .

خروج يأجوج ومأجوج (١) :

أخبرنا الحق تبارك وتعالى أن ذا القرنين أقام سداً يمنع فساد يأجوج ومأجوج وخروجهم . . . حتى يأتي وعد الله عز وجل ، ويأذن لهم بالخروج ، وعندئذ يدكُ السد ، ويخرجون أفواجا كموج البحر . . . قال تعالى : ﴿ حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً . قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً . قال ما مكني فيه ربي خيراً فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً . أتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال اتوني أفرغ عليه قطراً . فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً . قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا ﴾ (٢) .

والحديث النبوي هنا يبدأ من حيث انتهى القرآن الكريم . فيخبرنا الرسول ﷺ أن أممي يأجوج ومأجوج تجتهدان في حفر السد حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ذهبوا عنه . . . ثم عادوا إليه في اليوم التالي ليجدوه وقد عاد كما كان أو أشد ، وهكذا . . . حتى إذا بلغت مدتهم ، وأذن الله عز وجل في خروجهم على الناس ، حفروا السد حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا ، فسحفروه غداً إن شاء الله تعالى ، ويستثنون ، فيعودون إليه ، وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس (٣) ، ﴿ حتى إذا فتحت

(١) انظر عمدة القاري ، ١٥ / ٢٣٢ ، وما بعدها ، للوقوف على صفتهم .

(٢) الكهف : ٩٣ - ٩٩ .

(٣) قال رسول الله ﷺ : « إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم . حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا فسحفروه غداً . فيعيد الله أشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم ، وأراد الله أن يبعثهم على الناس ، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذي عليهم : ارجعوا . فسحفرونه غداً إن شاء الله تعالى . واستثنوا ، فيعودون إليه ، وهو كهيئته حين تركوه . فيحفرونه ويخرجون على الناس فيتشقون الماء . . . » الحديث ، رواه ابن ماجه ، ٢ / ١٣٦٤ . وصححه الحاكم في مستدركه ، ٤ / ٤٨٨ .

يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿١﴾ . . . حينئذ يسرعون في الإفساد في الأرض . . . ومن إفسادهم - كما ورد في هذا الخبر القصصي الكريم - أنهم يأتون على ما في الأنهار حتى يتركوها يبساً . . . ويقف الخبر القصصي الكريم عند هذا اللون الحسي كلون من ألوان الفساد العظيم (٢) ، الذي يحل بالعالم حينذاك ، لكنه ومن خلال هذه الصورة نجح في استثارة الرهبة ، ومسّ مكان الخوف والوجل لدى السامعين .

ولهذا كان الأمر الإلهي لنبيه عيسى عليه السلام بضمّ المسلمين وحفظهم . . . ويتحصن المسلمون من فساد يأجوج ومأجوج في مدائنهم وحصونهم (٣) . . . وتصور القصة النبوية كيف أنهم سيكابدون المشقة والبلاء وستبلغ بهم الفاقة مداها « حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم » ، والنبي ﷺ في هذه العبارة الكريمة يثير اهتمام المخاطبين ، ويستحث قدراتهم الذاتية في تصور الحدث .

ويلجأ نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله عزّ وجلّ أن ينجيهم مما لحق بهم من بلاء وفساد ، ويتضرعون إليه عزّ وجلّ . . . فيستجيب لهم تبارك وعلا ويهلكهم بالنعف . . . « فيرسل الله عليهم النعف في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملاء زهمهم ونتاجهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله . فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله . ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة . . . »

(١) الأنبياء : ٩٦ .

(٢) انظر الحديث المذكور ص ١٨٩ ، وبهامش رقم ١ ، من هذا البحث .

(٣) قال رسول الله ﷺ : « وَتُفْتَحُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ فَيُخْرِجُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ ، فَيَعْمُونَ الْأَرْضَ . وَيَنْحَازُ مِنْهُمْ الْمُسْلِمُونَ . حَتَّى تَصِيرَ بَقِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ فِي مَدَائِنِهِمْ وَحُصُونِهِمْ . وَيُضْمُونَ إِلَيْهِمْ مَوَاشِيَهُمْ . حَتَّى إِذَا لَمَسُوا نَهْرًا فَيَشْرَبُونَهُ . . . » رواه ابن ماجه ، ٢ / ١٣٦٣ . . . وانظر إلى نفس الرواية المذكورة ، ص ١٨٨ ، وبهامش رقم ٤ ، من هذا البحث .

إنّ كل ما في هذا الكون مهما صَغُرَ أو كبر خاضع لإرادة الله عزّ وجلّ ومشِيئته . فها هي (النغف) يرسلها الله عزّ وجلّ للفتك بتلك الأمتين العظيمة العدد والعدة . . . وهي على حقارتها تهلكهم ، فيموتون كموت نفس واحدة ، لكمال قدرته عزّ وجلّ . . . وفي قتلهم بهذا الدود الحقيقير (النغف) ليدرك الإنسان عجزهم ، وصغر أقدارهم . . . وليُنْبِه على ذلك بأذل خلق الله عزّ وجلّ ، وأن له - سبحانه - في كل شيء جنداً . . . وبسبب آثار جثث يأجوج ومأجوج تمتلئ الأرض من ننتهم ودمائهم ، فلا يبقى فيها موضع مهما كان صغيراً لم يصل إليه زهمهم . . . فتضيق صدور الناس ، وتسيطر عليهم مشاعر الضجر ، ويعصف بهم الألم . . . وحيثُذ يرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله عزّ وجلّ أن يخلصهم مما ألمّ بهم . فيرسل الله عزّ وجلّ طيراً تحمل جثثهم وتلقيها - حيث شاء الله عزّ وجلّ - بعيداً عن المسلمين . ثم تُغسل الأرض حتى تتخلص من آثارهم وقاذوراتهم . . .

وإذا تأملنا الأسلوب الكريم في هذه العبارة النبوية الكريمة وجدنا النبي ﷺ لا يخبرنا عن موتهم وفنائهم فحسب ، ولكنه عليه الصلاة والسلام أثر أن يضعنا بإزاء الصورة ، وعن طريق الوصف والتشبيه اللذين ساهما في تصوير الأحداث وتشخيصها أمام السامعين ، فتبدو الصورة بجميع أبعادها وزواياها واضحة أمامهم . فنلاحظ في قوله الكريم : « يرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة » ، تشبيهه عليه الصلاة والسلام نزع أرواح يأجوج ومأجوج - على كثرتها - في وقت واحد كما تنزع الروح الواحدة . . . والغرض من التشبيه : بيان إمكان تحقق ذلك النزع لذلك الخلق ، لكمال قدرته عزّ وجلّ .

كما نلمح دقة الألقاظ في التعبير عن القهر الإلهي الغالب على كل شيء ، يفرسهم دفعة واحدة . . . وقد نبه بكلمتي (النغف و فرسى) على أنه سبحانه يهلكهم بأدنى سلاح وبأهون شيء . . . كما أن السرّ في التعبير بقوله (فرسى) ، وليس (قتلى) - مثلاً - لأن أصل الفرس دق العنق - ليتفق مع القيد اللفظي الكريم : « فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم » ، ويفيد معنى القتل

دون الاتهام بالكلية ، لكي يرى الناس جشهم شاهدة على فنائهم ، وامتلاء الأرض بها - كما صورّ النبي ﷺ هذا المعنى بقوله الكريم : « فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملاءهم زهمهم ونتاجهم » ، فكنى المصطفى عليه الصلاة والسلام بقوله الكريم : « موضع شبر » عن المساحة الصغيرة ، للدلالة على تأدّي الأرض كلها من رائحتهم . . . واستطاعت الصورة الحسية تقريب المعنى بشكل ملموس ، كما أثارت في الخيال تصور تلك المساحات الشاسعة التي تغطيها جثث أولئك القتلى . علاوة على تصوير أعدادهم الهائلة . ويسلك النبي ﷺ - لتأكيد هذه المعاني في نفوس السامعين - أسلوب القصر ، وبطريق النفي والاستثناء دون غيره من طرق الاستثناء ، لتقرير الواقع وليبان حقيقة كثرتهم وانتشارهم ، فتضيق الأرض على سعتها بأثارهم الكريهة .

وفي قوله الكريم : « فيرسل الله طيراً كأعناق البخت » صورة تشبيهية أخرى ، انتزع المصطفى عليه الصلاة والسلام عناصرها مما ألفه العرب . . . فالله عزّ وجلّ يرسل طيوراً ذات أعناق عظيمة لحمل جثث يأجوج ومأجوج ، شبه الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام أعناقها بأعناق البخت ، ووجه الشبه : الطول والضخامة والعظم ، والغرض من التشبيه : توضيح وبيان مقدار حال المشبه ، خاصة أن البخت نوع من الجمال المعروفة عند العرب بطول الأعناق . . . وأفاد التنوين والتنكير في قوله : (طيوراً) التكثير . . . ثم يرسل الله عزّ وجلّ أمطاراً غزيرة تنظف الأرض مما ألمّ بها . وكنى المصطفى عليه الصلاة والسلام عن شدة الغزارة والانهمار بقوله الكريم : « لا يكن منه بيت مدر ولا وبر » وهي كناية عظيمة ، تدل على العموم في التأثير بهذا المطر حيث يستوي في ذلك البيوت التي لا تحمي ساكنيها من التأثير بتدفق الأمطار وغزارتها - أعني بيوت الوبر ، والبيوت التي تحمي ساكنيها من ذلك وهي بيوت الحضرم والمدر . . . وما تزال الأرض كذلك حتى تنظف وتتخلص من كل ما علق بها ، وتصبح في نظافتها وصفائها كالمرآة في صفائها واستوائها .

لقد قربت هذه الصورة الحسية تلك المعاني الكريمة ، لكونها أموراً غيبية ، ستقع في ذلك الزمان ، كما أنها تنبئ عن سعة رحمته عزّ وجلّ بعباده . . .

وكلما كانت الصورة الحسية أصدق في التعبير عن المعاني كانت أملك للنفس وأبعد في التأثير ، وأشد في القوة والوضوح ومن ثم يكون ثبات المعاني في الأذهان والقلوب .

بعد تلك الأحداث التي تستمر بالناس في ذلك الحين ، يتفرغ نبي الله عيسى عليه السلام للمهمة الكبرى التي أنزل من أجلها وهي تحكيم شريعة الإسلام والقضاء على المبادئ الضالة ، والأديان المحرّفة ويجتمع البشر كلهم على كلمة الله تبارك وتعالى . ويحلّ بالأرض - في ذلك الوقت - بركة عظيمة يكرم الله بها العباد حين يعيش الناس في خير وسلام ، وسعة رزق فيجتمع العدد الكثير على الغذاء القليل فيشبعهم إنها حالة فريدة في تاريخ البشرية ، صورها النبي ﷺ ببيانه الكريم ، فقال : « ثم يقال للأرض أنبتي ثمرك ، ووردي بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الرّسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس ، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس » ، فالمصطفى عليه الصلاة والسلام بأسلوبه المعجز ، لا يكتفي بتصوير مظاهر البركة فحسب ، بل يستهلها بهذا الاستهلال البارع الذي يأخذ بمجامع القلوب والأبصار والأسماع ، بقوله الكريم : « يقال للأرض أنبتي ثمرك ، ووردي بركتك » وإذا أنعمنا النظر في هذه العبارة الكريمة وجدنا بناء الفعل للمجهول ؛ للعلم بفاعله ، ولأن مثله لا يصدر إلا من الله عزّ وجلّ ، والأرض تابعة لإرادته تعالى ومشيئته ، ولا يتأتى منها العصيان . ولهذا كان الخطاب لها بصيغة العاقل وها هي ذي تميّز الأمر وتدعن له وتنقاد وعبر النبي ﷺ بالمجاز المرسل في قوله الكريم : (يقال) عن الإرادة من باب ذكر المسبب وإرادة السبب ؛ لكون الإرادة سبباً لحصول القول ، فالعلاقة المسببية . والقرينة خطاب الجماد ، وهو (الأرض) إذ يصح أن يراد حصول شيء متعلق بالجماد ، ولا يصح القول له كما أفادت الإضافة إلى الضمير في قوله الكريم : (ثمرك وبركتك) معنى الاختصاص .

ونلمح في العبارة النبوية تصويراً لتلك البركة التي ستعم الأرض بصور أربعة متتابعة هي : أن الرمانة الواحدة تكفي العصابة من الناس - وهي العدد من العشرة إلى الأربعين - ولبن الناقة يكفي الجماعة الكثيرة العدد . ولبن البقرة يكفي القبيلة . ولبن الشاة يكفي الفخذ من الناس وهنا نلمح التناسب المعنوي في العبارة النبوية الكريمة مما يضيفي عليها مزيداً من التناسق والتلاؤم فالبدء بصورة النبات ؛ لكون الأرض أول ما خوطبت ، أمرت بإخراج ثمارها كما نلمح التناسب المعنوي في الجملة الواحدة فلبن الناقة يكفي الفئام . ولبن البقرة يكفي القبيلة . ولبن الشاة يكفي الفخذ علاوة على ذلك لم يقتصر التعبير النبوي على كونها (ناقة وبقرة وشاة) حتى قيدها بقوله الكريم (لحقة) فكونها قريبة العهد بالتناج يقتضي كثرة لبنها .

وفي استعارة القحف لقشرة الرمانة تقريب للصورة ، فشبّه المصطفى عليه الصلاة والسلام قشرة الرمانة بشكل جمجمة المرء ، بجامع التقعر في كلٍّ ، ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به (القحف) للمشبه (قشر الرمانة) على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

وبعد ذلك الأمن والسلام الذي يعم مشارق الأرض ومغاربها يبعث الله عزّ وجلّ ريحاً طيبة تقبض من كان في قلبه بقية من إيمان ، ولا يبقى إلا شرار الناس ، الذين بلغوا من الفساد والانحطاط الخلقي درجة تجعلهم لا يستترون عن فعل الفحشاء كما تفعل الحمير التي لا تعقل فعلى هؤلاء تقوم الساعة^(١) .

وفي إسناد قبض الأرواح إلى ضمير الريح إسناداً مجازياً عقلياً ، علاقته السببية . وحقيقة الأمر أن الله عزّ وجلّ وحده هو القابض للأرواح وما الريح إلا مجرد سبب - ليس لها استقلالاً - القدرة على قبض الأرواح ، ولكن لما تشابها - الفاعل الحقيقي ، والفاعل المجازي - في التعلق بالفعل صح الإسناد .

إن من أبرز ما نلمحه في هذا الخبر القصصي - وغيره من الأحاديث النبوية - الاستخدام الجيد لطاقة الألفاظ بمختلف أنواعها ، سواء أكانت فعلاً أو

(١) سبق تحليل هذه الصورة البيانية في فصل التشبيه من هذا البحث ، ص ٤٩ .

اسماً أو حرفاً ، وتوظيفها بالشكل المناسب لتحقيق المعنى المطلوب . . . فنجد الفعل المضارع بما يملكه من دلالة حيوية على الحدث وتجده يأتي في القصة مستخدماً على نطاق واسع ، ذلك أن هذا الخبر القصصي بصدده تصوير مشاهد حسية ، حافلة بالصور الحية المشحونة بالحركة والحياة ، ولهذا تجد الأفعال : يدعوهم ، يستجيبون ، تمطر ، تروح ، يطلبه ، يشربون . . . إلخ .

كما نجد أن الفعل الماضي استعمل في مجال السرد القصصي للأحداث ، ليعطي طابع التحقق ، فهي أمور متحقق من وقوعها بكل تأكيد ، ولهذا كانت الأفعال : أدركه ، عاث ، بعث ، طأطأ . . . إلخ .

ومما ينبغي أن ألفت النظر إليه الدقة في استعمال الألفاظ والعبارات في أثناء العرض القصصي ، بمعنى أن القارئ يشعر أن هذه اللفظة ، أو تلك العبارة توضع في السياق بعناية بحيث تؤدي دوراً مزدوجاً ، إذ إنها في الوقت الذي نشعر فيه بالتناسب اللفظي ، تجعلنا أكثر شعوراً بالتناسب المعنوي . . . فالأسلوب النبوي الكريم حين تصويره للمواقف المتعلقة بفتنة الدجال ، ويأجوج ومأجوج يستخدم ألفاظاً قوية ، تشارك فوق دلالتها الذهنية بالدلالة الإيحائية في الترهيب والتحذير . . . ومن هنا نلمح تنوع الأسلوب النبوي الكريم بين الفعلين (خرج وبعث) عند الحديث عن الدجال ويأجوج ومأجوج ، والحديث عن نزول عيسى عليه السلام ، وإرسال الريح الطيبة .

كما نلمح تأخي الكلمات داخل الجمل من أجل خلق الصورة البيانية . . لقد استخدمت الألفاظ ببراعة في تكوينها ، ووظفت في هذا على نطاق واسع ، وبخاصة أن الناحية التصويرية سمة بارزة في هذا الخبر القصصي الكريم . . . إضافة إلى ذلك نجد ترتيب الأحداث ، وتعاقبها في نظام عجيب ، وتسلسل بديع . . . فنجد حرف (الفاء) الذي يفيد الترتيب والتعقيب هو الذي احتل الصدارة ، واستعمل دون غيره . كما استطاعت (بينما) الظرفية أن تشارك في تحقيق التلاحم بين أجزاء هذا الخبر القصصي .

المجتمع المثالي

المجتمع المثالي

عن عبد الله بن مسعود^(١) - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما دخل^(٢) النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده . فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال : ﴿ لعن اللذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴾^(٣) . ثم قال : كلاً والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يدي الظالم ، ولتأطرنه^(٤) على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً . أو ليضربن الله بقلوب بعضهم على بعض ثم ليعننكم كما لعنهم^(٥) . »

(١) ترجمة راوي الحديث :

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن غافل ، ابن أم عبد ، الهذلي ، صاحب رسول الله ﷺ ، وخادمه ، وأحد السابقين الأولين ، أسلم قبل عمر بن الخطاب ، من نبلاء الفقهاء والمقرئين . . . شهد بدرًا والمشاهد كلها . . . حفظ من في رسول الله ﷺ سبعين سورة ، وتسمع عليه النبي ﷺ ليلة وهو يدعو ، فقال : سل تعطه ، وقال : من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد . . . أمره عمر على الكوفة . . . اتفق موته بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين للهجرة ، وله نحو من ستين سنة . . . انظر كتاب (تقريب التهذيب) ، ابن حجر العسقلاني ، ٤٥٠ / ١ ، وكتاب (تذكرة الحفاظ) ، أبو عبد الله شمس الدين الذهبي ، ١ / ١٣ - ١٦ ، دار الفكر العربي .

(٢) وفي رواية الترمذي ، ٣١٨ / ٤ ، قوله ﷺ : « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي فنهتهم علماءهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم . . . »

(٣) المائة : ٧٨ - ٨١ .

(٤) الأطر : عطف الشيء تقيض على أحد طرفيه فتعوجه . . . أطره ياطره ويأطره أطرًا (على باب فَعَلَ : يفعل ، ويفعل) .

(٥) رواه أبو داود ، ١٢١ / ٤ ، والترمذي ، ٣١٨ / ٤ . . . وقال : حديث حسن . وهناك رواية أخرى في مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ضعفها الشيخ أحمد شاكر ، ٥ / ٤ ، دار الحديث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .

تحليل الخبر القصصي الكريم :

المجتمعات الإنسانية تعيش وتتعامل فيما بينها على أسس ومبادئ تسير وفقها ، وتطبقها . . . والإسلام يحرص في مبادئه وتعاليمه على بناء مجتمع مثالي في أخلاقه ، قوي الجذور ، مترابط الفروع ، لا يداخله الخلل ، ولا تفرقة الأهواء . . . يتعاون أفرادها على تنفيذ منهج الله عز وجل في توجيه الطاقات إلى الخير ، ومقاومة الشر والفساد . . . وليست هناك دواع تحمل الناس على أن يعيشوا أشتاتاً متناكرين . بل إن الدواعي القائمة على المنطق الحق والعاطفة السليمة تعطف البشر بعضهم على بعض ، وتمهد لهم مجتمعاً متكافلاً تسوده المحبة والأمان ، وتفرض بينهم التناصر ؛ لإحقاق الحق وإبطال الباطل ، وردع المعتدي ، وإجارة المظلوم . . .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مفهومه الشامل ، ودلالته العميقة ، ومغزاه البعيد ، مطلب شرعي ، جاءت النصوص الشرعية مؤكدة له . وحسبنا أن الله عز وجل جعله من صفات المؤمنين التي مدحهم بها في أكثر من موضع في القرآن الكريم ، كقوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾^(٢) .

ومن خلال هذا الخبر القصصي الكريم يبين لنا الرسول ﷺ أهمية القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما يعمق في نفوسنا خطورة إهماله ، وتخلّي المسلمين عنه .

وقد استهل الخبر القصصي الكريم بمقدمة تمهيدية تقريرية ، جاء فيها قول النبي ﷺ : « إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ . . . » مقدمة وجيزة ، لكنها على إيجازها حفلت بعناصر التشويق التالية :

(١) التوبة : ١١٢ ..

(٢) آل عمران : ١١٠ ..

١ - تصدير الخبر بلفظ (إن) التي تؤكد مضمون معنى الجملة التي تصدرها . .
٢ - (أول) هذه الأولية أمر لافت للنظر ، مشير للانتباه ؛ حيث هي تمثل بداية التحديد التاريخي الدقيق لحدث فساد أمة بني إسرائيل الواسع الانتشار الآن .

٣ - (ما دخل النقص) : (ما) مصدرية وهذا يعني أن الكلام عن الحدث نفسه لا عن شيء يتعلق به ؛ وذلك الحدث هو دخول النقص في الدين والدنيا على هذه الأمة التي ذكر الله تفضيله لها في أكثر من موطن في القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

٤ - (على بني إسرائيل) ، حيث اللفظ (على) يوحى مع إسناد الفعل إلى الفاعل المجازي (النقص) بتشخيص النقص واستعلائه عليهم . .

وهذه المقدمة بعناصرها التشويقية التي ذكرناها تفيد أن بني إسرائيل كانوا على صورة ما من رفعة الشأن والمجد . . . وذلك بتفضيل الله إياهم على العالمين حين حملوا شرائعه ورسالاته وقت أن كانت غالبية الشعوب وثنية كافرة . . . ثم دخل على أجيالهم الخيبة والخسران في دينهم ودنياهم ، بسبب الموبقات والمعاصي . (٢)

والرسول ﷺ يختار من أحداث بني إسرائيل اللقطات التي تصور سواد قلوبهم ، وسوء انحرافهم ، للتنفير من أفعالهم ، والاعتبار بمصائبهم ، تربية للنفوس ، وتهذيباً لها . ولتحقيق هذا الأثر التربوي جاء هذا الخبر القصصي الكريم مقسماً على مراحل ثلاث هي :

(١) البقرة : ٤٧ ، ١٢٢ . .

(٢) وقول النبي ﷺ - كما ورد في الرواية الأخرى - ينظر ص ٢١ ، هامش رقم ٢ من هذا البحث ، « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي . . . » وصف دقيق لانغماسهم في المعاصي والمفاسد ، وتمكنها منهم كما يتمكن الظرف بالظروف ، ولذلك كان التعبير بالاستعارة التبعية في حرف الجر (في) أبلغ في تحقيق المراد من المعنى .

المرحلة الأولى :

عرض أحداث تاريخية وقعت لبني إسرائيل ، حين استشرى الفساد والضلال فيهم ، ونمت الرذائل في نفوسهم ، وفشا ضررها ، وتفاقم خطرها ، وانسلخوا من دينهم ، وأصبح ادعائهم للإيمان زوراً وبهتاناً فأصابتهم لعنة الله عزّ وجلّ والمرسلين ، وضربت عليهم الذلة ، وباءوا بغضب من الله . . . ولكن ما هي الأسباب التي أدت بهم إلى هذا الانحدار السحيق بعد ذلك المجد الرفيع الذي كانوا فيه ؟

يبين لنا الرسول ﷺ السبب الذي أشعل فتيل الشرفي جماعتهم ، فسرت ناره حتى أتت على كل خير وفلاح لهم ، فدمرتهم تدميراً ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقي الرجل ، فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده » في هذا البيان النبوي يرشد الرسول ﷺ إلى أن ترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وموالاته مرتكبي المعاصي من أقوى أسباب الخيبة التي لحقت ببني إسرائيل ، حيث كانوا إذا وقعت منهم المعصية استنكروها - أول الأمر - واتجهوا إلى مرتكبها لوعظه وتذكيره بالأوامر الإلهية والتوجيهات السماوية . . . فإذا لم يتعظ ولم يُثب إلى رشده ، ويرتدع عن إثمه ، وأصرّ على مبارزة الله عزّ وجلّ بالعصيان ، على نحو مقرون بالتحدي وعدم الاكتراث ، تهاونوا في أمره ، وأغمضوا أعينهم ، وصمّوا آذانهم دونه . ولم ينبسوا ببنت شفة لتأنيبه ، ولم يقاطعوه ويهجره . . . بل أكلوه وشاربوه وجالسوه ، كأنه لم يرتكب إثماً ولا ذنباً .

إن تعطيل القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى انتهاك الحرمات ، والتبجح بالمعاصي ، فيستمرىء الشخص الخطايا والسيئات ، وتصبح المنكرات عادات مألوفة يخجل المصلحون والدعاة من الحديث عن كونها منكراً ، كما يصبح النهي عنها مشاراً للازدراء والسخرية . علاوة على أن الأمر

بالمعروف والناهي عن المنكر يكون قذى في عيون المبطلين ، وغصّة في صدورهم . فيطفقون ينسجون حوله شبك الدس والكيد . . . ويرمونه بكل قبيح ، ويخلقون حوله جواً من الريبة وسوء الظن . .

والنبي ﷺ يؤكد أهمية القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بالجملة الاسمية ، و (إن) الداخلة عليها ، في قوله الكريم : « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل » إشارة إلى أن التخاذل عن القيام بهذا الواجب - فضلاً عن تركه - يجر على المجتمع الذلة والعار ، ويشري فيه روح الفساد والشنار ، علاوة على أن العصاة بإصرارهم على المعصية والفساد كأنهم منكرون لتحريمها ، فالإصرار على الشرّ وانتشاره من شأنه أن يمزق الصلة بالله عزّ وجلّ شرّ ممزق حيث تجمع بالناس أهواؤهم بعيداً عن الله عزّ وجلّ ، فتجف ينابيع الخير تماماً في ضمائرهم . . . كما أنه يبث الظلم والعدوان بين صفوف المجتمع . وحينئذ يلقي الله بينهم العداوة والبغضاء ، ويزيدهم ضلالاً إلى ضلالهم ، وفسقاً إلى فسقهم ، عقاباً لهم ؛ لانتهاكهم حدود الله عزّ وجلّ ، وتعطيلهم فرائضه . . . وهذا ما بيّنه المصطفى عليه الصلاة والسلام بقوله الكريم : « فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » حيث عبّر الرسول ﷺ عن بث العداوة والبغضاء بينهم سواء في ذلك علماءهم وجهالهم لشيوع الفساد فيهم ، العالم بسكوته عن الشرّ ومولاته لأهل الباطل ، والجاهل بإصراره على المعصية ، بضرب قلوب بعضهم ببعض ، على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل (ضرب) ، فشبه بث العداوة والبغضاء بينهم بضرب قلوب بعضهم ببعض ، بجامع حدوث السوء والمكروه من كلّ ، ثم استعير الضرب لبث العداوة بينهم واشتق من الضرب بمعنى هذا البث (ضرب) بمعنى بث وألقى العداوة بينهم . . . فمتى كان السكوت عن العصاة عاقبهم الله عزّ وجلّ بالخلاف والنزاع والشقاق . . . واستطاعت الصورة البيانية تصوير المعنى المجرد في صورة محسوسة ، فتركت أثراً في النفس ، لأخذ الحذر والحيلة . . . كما نلمح التركيز والإيجاز في العبارة النبوية ، من خلال اسم الإشارة (ذلك) الذي يلخص ويطوي أفعالهم ، وتغاضيتهم عن الشر ، ومولاتهم للمفسدين . . . ولولا اسم الإشارة وما تميز به

من الشمول لما أتيح للأسلوب النبوي هذا الإيجاز ، كما أنه يفيد بعدهم عن الحق والرشد والفلاح .

المرحلة الثانية :

استشهاد النبي ﷺ بنص قرآني يحكي الواقع التاريخي لبني إسرائيل ، وما حل بهم من السخط واللعنة . . . قوله تعالى : ﴿ لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . . . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ . وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ . يخبرنا الله عز وجل أن بني إسرائيل استحقوا اللعن من أنبيائهم الذين أرسلوا لهديتهم ، وهذا ثابت في كتبهم ، في الزبور على عهد داود ، وفي الإنجيل على عهد عيسى عليه السلام (كما لعنوا في القرآن على عهد محمد ﷺ) . وذلك بسبب سلسلة من المعاصي والذنوب المتمثلة في كل الصور الاعتقادية والسلوكية على السواء . . . وقد كانت تلك المعاصي أعمالاً فردية في مجتمع بني إسرائيل ، لكنها انتهت إلى أن أصبحت طابع الجماعة كلها ، ومن هنا سكت عنها المجتمع ، ولم يقابلها بالنهاي والإنكار ، حتى أصبح الشر والفساد عرفاً مصطلحاً عليه ، وأمرأ سهلاً يجترىء عليه كل من يهمل به . ونشأ - بسبب ذلك - الشقاق والخلاف والعداوة بينهم ، مما دفع بكثير منهم إلى موالة الذين كفروا ، ومناصرتهم وتأليبهم على الجماعة المؤمنة : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنَ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ (١) ، وكانت الحصيلة النهائية التي قدمتها لهم أنفسهم الأمانة بالسوء أن سخط الله عليهم ، وخلداهم في العذاب ، لكونهم فاسقين ، وذلك بتجانسهم مع الذين كفروا في الشعور والوجهة . وفي التغاضي عن الانحلال الخلقي وفساد الطباع . . .

(١) النساء : ٥١ - ٥٢ .

المرحلة الثالثة :

أعني بها مرحلة استخلاص العظة والعبرة ، حيث إنه لما وصل النبي ﷺ في عرض الواقع التاريخي الذي أصاب بني إسرائيل الغاية والهدف الذي أراده ، واستشهد عليه بالنص القرآني أراد أن يوجه أنظار المسلمين إلى الاستفادة من العبر ، فقال عليه الصلاة والسلام : « كلاً . والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يدي الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعننكم كما لعنهم» .

الرسول ﷺ بعرضه لما حدث في المجتمع الإسرائيلي من صور كريهة ومشينة يريد للجماعة المسلمة أن تتجنب هذه الموبقات ، ولا يكون ذلك إلا إذا أضحى لها كيان حي متعاون صلب ، يدفع كل بادرة من بوادر الفساد والشر ، قبل أن تصير ظاهرة عامة ، كما يريد عليه الصلاة والسلام للمجتمع الإسلامي أن يكون صلباً في الحق . . . ولا يكون ذلك إلا بالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خير قيام . . . ولذلك يشدد الرسول عليه الصلاة والسلام على الوفاء بهذه الأمانة . . . ويجعلها في عنق كل فرد ، بعد أن يضعها في عنق الجماعة عامة . . . فالمجتمع بعضه من بعض لا تفشوا فيه المفاصل إلا عادت عليه بالخسران العام الشامل . . .

نعم ، إن الانحرافات الخلقية موجودة في أي مجتمع بشري على الأرض ، ولكنها ليست السمة الغالبة له ، ثم هي مستنكرة . وهذا هو المهم ، فليس في الإمكان أن يكون الناس كلهم مستوين على الأخلاق الفاضلة - حتى وإن كان المجتمع إسلامياً - ولكن المهم أن يستنكر المجتمع ما يقع في داخله من انحرافات ، فيبقى أثرها السام محصوراً في أضيق نطاق . أما وقوعها وعدم استنكارها فهو الذي يجعلها تتفشى تدريجياً حتى تصبح هي الغالبة . ومن أجل ذلك لعن الله عز وجل الذين كفروا من بني إسرائيل . . . فهذا الإنكار هو صمام الأمن للمجتمع ، والذي يوقف انتشار السيئات فيه ويعصمه من الانحراف الشامل . . .

إن إنكار المفاسد مهمة لا يقوم بها الأفراد متفرقين ، وإنما تقوم بها الجماعة
مجتمعة ، فتصبح المهمة أيسر والثمرة أقرب إلى المنال . (١)

وتقيم الجماعة رقابة وثيقة وتضع المؤثرات المناسبة لكيما يلتزم الأفراد في
المجتمع الأخلاق الإسلامية فيقفون عند حدودها ، وينساقون مع أوامرها ، أما
من يشذ عن هذه الأخلاق ، فإن لجماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن
تعظه وتبصره بعرف المجتمع الإسلامي وأخلاقه حتى يعود إلى صوابه ورشده ،
وهذه هي الطريقة المثلى لدى الإسلام في خطاب القلب الإنساني واستشارة
أشواقه الكامنة إلى السمو والكمال ، ورجوعه إلى الله عزّ وجلّ بأسلوب سائغ
من الإقناع ، والمحبة ، وتعليقه بالفضائل الجليلة على أنها الثمرة الطبيعية لهذا
كله . ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (٢) .

على أننا قد نجد في الواقع المشهود أن هناك أناساً لا يصلح معهم ذلك
كله ، بل نجدهم يزدادون انحرافاً كلما زيد لهم في الوعظ والإرشاد ، ويقابلون
عطف الجماعة وعنايتها بتعكير صفوها وإفلاق أمنها ، وتلك انتكاسة الفطرة
ومسخها - نسأل الله العافية - عندئذ لا ملام على الجماعة إذا صدّت عدوانهم ،
وفلت سلاحهم الذي يؤذون به غيرهم ، لتهديب أهوائهم بالقوة وعطفهم على
الحق ، بمختلف وسائل التربية والتوجيه والإلزام ؛ لإيجاد مجتمع نقي يزخر
بأزكى الصفات وأعفّ السير فتلتقي قلوب أفرادها ، وتتعاون وترتبط كلها بالله
عزّ وجلّ ولا يقوم بينهم الشقاق والخلاف . . . والله سبحانه وتعالى يعينهم
على ذلك ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سببنا وإن الله لَمَعَ المحسنين ﴾ (٣) .

(١) ذهب جمع من أهل العلم إلى أن مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقع على كاهل الحكام
دون سواهم ، أو من ينيبونهم أو يأذنون لهم ، فليس لغيرهم القيام بتلك المهمة . . .
والجمهور على خلافه ، فكل فرد مطالب شرعاً بالعمل على إزالة المنكر حسب استطاعته . قال
رسول الله ﷺ : « من رأى منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه
وذلك أضعف الإيمان » رواه أحمد بن حنبل ، ٢٠ / ٣ .

(٢) النحل : ١٢٥ .

(٣) العنكبوت : ٦٩ .

إن القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحقيق لمراقبة وتنفيذ شرع الله عز وجلّ والعمل به . . . أما تركه ، وثني العزائم والهمم عن القيام به ، فإن من شأنه أن يشيع بين صفوف الجماعة الإسلامية الخلاف والشقاق ، والعداوة والبغضاء ، ثم تتسلل بعد ذلك كله إليهم السيئات حتى يتتهي بهم الأمر إلى أن تحل عليهم لعنة الله وسخطه كما حلت على بني إسرائيل .

وإذا تأملنا العبارة النبوية الكريمة : « كلاً والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ، ولتأخذنّ على يدي الظالم ، ولتأطرنّه على الحق أطراً ، ولتقصرنّه على الحق قصراً » وجدنا أداة الردع والزجر وهي «كلا» للتحذير والاستنكار لمن خالف تلك المعاني المهمة التي ينبغي أن يستشرف لها السامع ويتلقاها باهتمام ، لما تحمله من مدلول ديني خطير للفرد والمجتمع ، وهو القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقهر النفس عليه ، ولذا أكد النبي ﷺ بعد ذلك على وجوب القيام بهذا الركن الإسلامي ، بالقسم ، وبلامه ، وبنون التوكيد الثقيلة ؛ لأن التقصير فيه يؤدي بالجميع إلى عاقبة وخيمة . . . كما أن التقابل بين المعاني (لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر) من الوسائل الأسلوبية لتقرير المعاني في النفوس .

كما نلمح التأخي بين الجمل لتنمو المعاني وتتكاثر فوائدها ، فحين ننظر نجد التوجيه النبوي الكريم لأمته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يأخذ صورة أولى ترتقي إلى صورة ثانية ، يكون فيها الإصرار والكف بالقوة عن الشر ومنع الفاسد والعاصي من الاعتداء . . . هذه المعاني استطاعت الصورة الكنائية الكريمة (لتأخذنّ على يدي الظالم) التعبير عنها لتفيد المنع بالقوة ، ذلك أنها كناية عن صفة العنف والشدة . . . إن الأخذ على يد الظالم ، وردعه عن ظلمه وعقابه عليه وقاية للجماعة العادلة من ضراوة عضو فيها يقابل عدالتها بالظلم ، وإصلاحها بالفساد .

وحين يريد الإصرار على المعصية ، يرتقي بنا التوجيه الكريم إلى صورة ثالثة أشد من سابقتها في اتخاذ أسباب القوة والعقاب ؛ لردع الظالم عن غيّه وإلزامه طريق الحق وقصره عليه ، فلا يخرج عن دائرة الاستقامة ، نستشعر ذلك حيث يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « ولتأطرنّه على الحق أطراً ، ولتقصرنّه على الحق قصراً » .

والأسلوب النبوي الكريم حين يصور إجبار الظالم على الإذعان للحق ، وإعطاء النصفة للمظلوم يبرز المعنى بهذه الصورة الاستعارية المحسوسة (لتأطره) شبه المصطفى عليه الصلاة والسلام إلزام العاصي وردّه عن الفساد ، وعطفه على الحق وعلى هدي الجماعة بثني العصا ولوي أحد طرفيها إلى نهايته ، بجامع استعمال الشدة في كلِّ على سبيل الاستعارة التبعية ، وهي من قبيل استعارة المحسوس للمعقول . . . والتعبير بالاستعارة أبلغ من الحقيقة ؛ لأن القبض على أحد طرفي الشيء وثنيه إلى نهايته أمرٌ مرثيٌ محسوسٌ ، وما يقع عليه الحس أقوى أثراً وتأكيذاً للمعنى .

وبعد استخلاص العبرة والعظة من العرض التاريخي لبني إسرائيل ، قام الرسول ﷺ بتوجيه النصيحة لأمته ، وإنذارهم بالخطر العظيم الذي يحلُّ بهم إن تهاونوا بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما أمرهم الله عزَّ وجلَّ ، مؤكداً ذلك بقوله الكريم : « أو ليضربنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعننكم كما لعنهم » ، وسرُّ التوكيد هنا هو أن هذه العبارات تأتي دفعاً لما يقع في النفوس من أن أمة محمد ﷺ هي أكرم على الله عزَّ وجلَّ من بني إسرائيل ، فإذا فعلت مثل أفعالهم لم يعاقبها الله عزَّ وجلَّ بمثل ما عاقبهم به من تنافر قلوبهم ، ولعنهم وسخطه عليهم .

والكاف في قوله الكريم : « ثم ليلعننكم كما لعنهم » للتشبيه ، وإحداث التماثل ، أي أن حرمانكم من رحمة الله يكون بسبب اقترافكم المعاصي ، والإفساد في الأرض ، وكل ذلك مماثل لحرمان بني إسرائيل من رحمة الله ومغفرته ، فكما تساويتم في المعاصي وفشوها تتساوون في الجزاء وشدته .

وأخيراً نجد التناسق التام بين عناصر هذا الخبر القصصي الشريف فكل فكرة مرتبة على أختها في تسلسل وإحكام تام ، وهذا سر من أسرار الحديث البلاغية . . . كما لا يخفى بعد هذا ، الانسجام الصوتي من توالي الحروف والكلمات وتناسقه الفني مع أداء المعنى في كل المراحل التي أسلفنا الحديث عنها ، ثم في التوجيه والنصح النبوي الكريم للأمة الإسلامية الراشدة .

الفصل الرابع

القصة الطويلة

١ - وسائل القوة .

٢ - إحياء الضمير اليقظ .

وسائل القوة

وسائل القوة

عن أبي هريرة^(١) - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ ، ثَتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، قَوْلُهُ : إِنِّي سَقِيمٌ ، وَقَوْلُهُ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا . وَقَالَ : بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةٌ ، إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ فَقِيلَ لَهُ : إِنَّ هَاهُنَا رَجُلًا مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ فَأَرْسَلْ إِلَيْهِ ، فَسَأَلَهُ عَنْهَا ، فَقَالَ : مَنْ هَذِهِ ؟ قَالَ : أُخْتِي . فَأَتَى سَارَةَ ، قَالَ : يَا سَارَةُ لَيْسَ عَلَيَّ وَجْهَ الْأَرْضِ مِنْ مُؤْمِنٍ غَيْرِي وَغَيْرِكَ ، وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكَ أُخْتِي ، فَلَا تُكَذِّبِينِي^(٢) ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ فَأَخَذَ ، فَقَالَ : ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضْرُكَ ، فَدَعَتِ اللَّهَ ، فَأُطْلِقَ ، ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ ، فَأَخَذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ ، فَقَالَ : ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضْرُكَ . فَدَعَتِ اللَّهَ فَأُطْلِقَ^(٣) ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ ، فَقَالَ : إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي

(١) ترجمة راوي الحديث :

صاحب رسول الله ﷺ ، اسمه : عبد الرحمن بن صخر ، على الأشهر ، وكان في الجاهلية يدعى عبد شمس . . . قدم المدينة مهاجراً ليالي فتح خيبر ، وسكن الصفة ، وكان من أوعية العلم ، ومن كبار أئمة الفتوى ، مع الجلالة والعبادة والتواضع . . . من أحفظ أصحاب رسول الله ﷺ وألزمهم على شيع بطنه ، فكانت يده مع يده ، يدور معه حيث دار إلى أن مات ، ولذلك كثر حديثه . روي عنه أنه قال : لم يكن من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً مني إلا عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ولا أكتب . قال البخاري : روي عنه ثمانمائة نفس أو أكثر . . . توفي - رضي الله عنه - سنة ثمان وخمسين ، وقيل سنة تسع ، وقيل سنة سبع وخمسين . . . انظر « تذكرة الحفاظ » ، للذهبي ، ١ / ٣٢ - ٣٧ . ، و « الإصابة في تمييز الصحابة » ، ابن حجر العسقلاني ، ٤ / ٢٠٢ - ٢١١ .

(٢) في صحيح مسلم ، ٧ / ٩٨ - ٩٩ ، قول النبي ﷺ : « . . . فقال لها : إِنَّ هَذَا الْجَبَّارُ إِنْ يَعْلَمَ أَنَّكَ امْرَأَتِي يَغْلِبُنِي عَلَيْكَ فَإِنْ سَأَلَكَ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكَ أُخْتِي ، فَإِنَّكَ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرِكَ . فَلَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُ رَأَاهَا بَعْضُ أَهْلِ الْجَبَّارِ أَنَاهُ ، فَقَالَ لَهُ : لَقَدْ قَدِمَ أَرْضُكَ امْرَأَةٌ لَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ إِلَّا لَكَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا ، فَأَتَى بِهَا فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الصَّلَاةِ . . . »

(٣) في صحيح البخاري ، ٣ / ٣٨ - ٣٩ ، قول النبي ﷺ : « . . . فَأَرْسَلَ بِهَا فَقَامَ إِلَيْهَا فَقَامَتْ تَوْضِئًا وَتُصَلِّي ، فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ أَمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأُحْصِنْتَ فُرْجِي إِلَّا عَلَى =

بإنسان ، إنما آتيتموني بشيطان ، فأخدمها هاجر ، فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده - مهياً^(١) - قالت : ردَّ الله كَيْدَ الكافرِ أو الفاجرِ في نحره ، وأخدمَ هاجرَ^(٢) . قال أبو هريرة : تلك أمُّكم يا بني ماء السماء .^(٣)

تحليل النص القصصي الكريم :

تعلق القلب بالله عز وجل ، والإيمان الجازم بأنه لا يأتي بالخير إلا الله ، ولا يصرف السوء سواه ، هو العقيدة الإيمانية الحقّة ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرًا فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٤) . إنها التوحيد الذي جاءت به رسل الله - صلوات الله عليهم جميعاً - وأنزل به كتبه ، صدق في الاتجاه إلى الله عز وجل ، وإخلاص التعلق به ؛ ليشعر المؤمن بقوة اليقين في شخصه ، وحلاوة الإيمان في نفسه ، فإن اعتصم بالله ولجأ إليه قلَّ حدّ الخطوب ، فضعف حزها في نفسه . ولن تفارقه رحمة الله عز وجل ما دام يقينه لا يزيغ لدى الشدائد . ومن حاد عنه أو داخله شك فيه فقد أعظم مقوم له في حياته ، وأعظم وسيلة لفلاحه ونجاته .

ولقد حرص الرسول ﷺ على تأكيد تلك المعاني الكريمة في فكر الناس ، وتعميقها في وجدانهم ، وذلك بجعلها موضوعاً تدور حوله أحداث هذه القصة النبوية الكريمة .

= زوجي فلا تسلط علي الكافر ، فغط حتى ركض برجله . قال الأعرج : قال أبو سلمة بن

عبد الرحمن : إن أبا هريرة قال : قالت : اللهم إن يمت يُقال : هي قتلته ، فأرسل . . .

(١) كلمة مهيا ، أو مهيم ، أو مهين - كما وردت في بعض الرويات - كلها بمعنى واحد ، أي : ما حالك أو ما شأنك . . . انظر ، لسان العرب ، مادة (مهيم) .

(٢) في صحيح مسلم ، ٧ / ٩٨ - ٩٩ ، قول المصطفى عليه الصلاة والسلام : « . . . فقال لها :

مهيم ، قالت : خيراً كَفَّ اللهُ يدَ الفاجرِ ، وأخدمَ خادماً . . . » وفي صحيح البخاري ،

٣ / ٣٩ ، قوله عليه الصلاة والسلام : « . . . فرجعت إلى إبراهيم عليه السلام ، فقالت :

أشعرت أن الله كَبَّتْ الكافرَ ، وأخدمَ وليدةً . . . »

(٣) رواه البخاري ، ٤ / ١١٢ .

(٤) الأنعام : ١٧ .

استهلت القصة النبوية بمقدمة تمهيدية ، لا تعتبر في الواقع بداية لأحداثها ومواقفها ، وإنما هي وسيلة للوصول إليها . حيث بدأها النبي ﷺ بقوله : « كَمْ يَكْذِبُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ ، تُثَبِّتُنَّ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا ، قَوْلُهُ : إِنِّي سَقِيمٌ ، وَقَوْلُهُ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا . . . » وإذا تأملنا هذه المقدمة النبوية الكريمة وجدنا أن أول ما يلفت الانتباه هو إسناد الكذب إلى الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام . ولقد اتفق المفسرون والمحدثون على أن الكذب - في مقام الرسالات السماوية - إنما يكون فيما طريقه البلاغ عن الله عز وجل ، وهذا الكذب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون منه ، وأما غيره فالصحيح امتناعه . ومن هنا يجب أن يؤول إسناد الكذب إلى قول إبراهيم عليه السلام بأنه كذب بالنسبة إلى فهم السامعين ، أما الكذب في نفس الأمر ، فلا ، إذ معنى قوله « إني سقيم » سأسقم ، وكانت تأتيه حمى في بعض ساعات الليل والنهار ، فجعل ذلك عذراً تخلفه عن العيد الذي لهم ، وكان صادقاً فيما قال . وقد كان تخلفه لأجل تكسير أصنامهم . أو بمعنى : إني مريض القلب بسبب إطباق ذلك الجمع من قومه على الكفر والشرك . . . أو كما قال الفخر الرازي : قوله « إني سقيم » على سبيل التعريض ، بمعنى أن الإنسان لا ينفك في أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة ، إما في بدنه ، وإما في قلبه ، وكل ذلك سقم . (١)

وأما قوله : « بل فعله كبيرهم هذا » فتأويله بأن إبراهيم عليه السلام غاظته تلك الأصنام حين أبصرها مصطفة ، وكان غيظه من كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له ، فأسند الفعل إليه إسناداً مجازياً علاقته السببية ؛ لأنه هو السبب في استهانتها بها وتحطيمه لها . أو أن قصد إبراهيم عليه السلام لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على

(١) انظر تفسير الفخر الرازي ، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، ١٣ / ١٤٧ ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، وانظر كتاب تفسير البحر المحيط ، أبو حيان محمد بن يوسف ، ٧ / ٣٦٦ ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م . وكتاب عمدة القاري ، العيني ، ١٥ / ٢٤٨ - ٢٥٠ . (بتصرف) .

أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم . . . ولذا كان إثبات ذلك التحطيم للعاجز استهزاءً . أو أن قوله : « بل فعله كبيرهم هذا » كناية عن غير مذكور ، أي فعله من فعله ، و « كبيرهم هذا » ابتداء الكلام . ويروى عن الكسائي أنه كان يقف عند قوله : بل فعله ، ثم يبتدىء ، كبيرهم هذا . أو أن يكون في الكلام تقديم وتأخير ، كأنه قال : بل فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم ، فتكون إضافة الفعل إلى كبيرهم مشروطاً بكونهم ناطقين ، فلما لم يكونوا ناطقين امتنع أن يكونوا فاعلين ، تعريضاً بهم . (١)

بعد هذه المقدمة التمهيدية تبدأ القصة النبوية الكريمة بالحدث مباشرة ، نلحمه في قول النبي ﷺ : « بينا هو ذات يوم وسارة ، إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له : إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه ، فسأله عنها ، فقال : من هذه ؟ قال : أختي . فأتى سارة ، قال : يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمنٌ غيري وغيرك ، وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي ، فلا تكذبيني ، فأرسل إليها . . . » فالخليل إبراهيم عليه السلام يدخل ذات مرة قرية فيها ملك جبارٌ ظالم ، وكانت معه زوجته سارة ، وكانت من أجمل النساء . فيسرع الناس بخبرها إلى الملك ، ويتحرك الشر في داخله ، فإذا به يرسل في طلب إبراهيم عليه السلام ويسأله عنها . . . ولنا أن نتصور مبلغ الأزمة النفسية التي كان فيها خليل الله عز وجل ، والقلق الذي كان لا بد أن يستبد به . . . ولكن إخلاص العقيدة والثقة بالله عز وجل يسطع شعاعه في النفس المؤمنة ، وأشد ما يكون تألقاً في الشدائد الحرجة . ولذا يلهمه الله عز وجل بفكرة ، رأى فيها المخرج الوحيد من هذا المأزق العصيب . فيخبره عليه السلام بأنها أخته . . . ثم يتجه إلى زوجته سارة ، يكشف لها - ولنا - السر في تلك المفارقة ، ويفسر ذلك - أعني قوله : إنها أخته - بقوله عليه الصلاة والسلام : « يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمنٌ غيري وغيرك . وإن هذا سألني عنك فأخبرته : أنك أختي فلا تكذبيني » ، كما أنه في رواية أخرى ، يبين الدافع الذي كان وراء عبارته

(١) انظر في هذه الأقوال المصادر السابقة : تفسير الرازي ، ١١ / ١٨٥ - ١٨٦ ، وتفسير البحر

المحيط ، ٦ / ٣٢٥ ، وانظر كتاب فتح الباري ، ٦ / ٣٩١ - ٣٩٢ .

الكريمة ، بقوله : « إن هذا الجبارة إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام . فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك . (١) » . . . ثم يبعثها إلى الظالم .

ولم يصدر من الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام الكذب البتة ، فقوله : « إنك أختي » أي أختي في الإسلام . . . قال صاحب فتح الباري في تقرير ذلك : « إن إبراهيم أراد دفع أعظم الضررين بارتكاب أخفهما ، وذلك أن اغتصاب الملك إياها واقع لا محالة . لكن إن علم أن لها زوجاً في الحياة حملته الغيرة على قتله وإعدامه أو حبسه وإضراره ، بخلاف ما إذا علم أن لها أخاً فإن الغيرة حينئذ تكون من قبل الأخ خاصة لا من قبل الملك فلا يبالي به » (٢) ، ولعل ذلك يكون مدعاة لإكرامه . و خليل الله - قبل هذا كله - مدرك نصر الله له ، وموقن بأنه لا حافظ لهما سواه .

وإذا تأملنا القول الكريم : « يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك . . . » وجدنا التعبير بأسلوب القصر (قصر صفة على موصوف) لإفادة التأكيد النصي على قصر الإيمان عليهما واختصاصهما به عما عداهما قصرًا لغويًا (٣) . . . والتعريف في (الأرض) للعهد . أي تلك الأرض التي وقع له فيها ما وقع ، بقريئة إيمان لوط عليه السلام ، ولم يكن معهما إذ ذاك . (٤)

(١) انظر الرواية المذكورة ، ص ، هامش رقم ٢ ، من هذا البحث . .

(٢) ابن حجر العسقلاني ، ٦ / ٣٩٣ . .

(٣) ليس في الكلام قصرًا اصطلاحياً بأحد طرق القصر المعروفة ، بل قصر لغوي يفهم من سياق المعنى .

(٤) ورد في الرواية الأخرى ، قول المصطفى عليه الصلاة والسلام : « . . . إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك . . . » انظر ص ٤٤ هامش رقم ٢ ، من هذا البحث . .

لقد كنى النبي ﷺ بالغلبة عن أحد أمرين : أولهما : إرادة الظالم السوء بها . . . والآخر : إلزام إبراهيم عليه الصلاة والسلام بطلاقها . . . وأياً كان المقصود بأحدهما فقد أدت الكناية المعنى مصحوباً بدليله . فضلاً عن إيجازها ؛ لاختصارها مقدمات لا أهمية لها بالتنبيه على النتيجة التي يتقرر فيها المصير ، فلخصت في ومضة واحدة هذا المصير الذي يراد تصويره . .

كما نلمح في قول النبي ﷺ - في الرواية ذاتها - « . . . لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك » ، كناية عن حسن جمالها . .

وهكذا وجدنا هذه البداية القصصية الكريمة تكون مشهداً حيويًا مكتملاً
نجح في امتلاك المتلقي ، وإثارة عواطفه ، وذلك من خلال طبيعة الحدث ذاته من
ناحية ، ومن الحوار كعنصر فني يثير في الحس التشويق والتطلع إلى مستقبل
الأحداث من ناحية أخرى .

ثم ينتقل السياق النبوي الكريم بالحدث إلى مستوى آخر مليء بعناصر
تعقيد الموقف بشكل ملحوظ ، نلمح ذلك في قول المصطفى عليه الصلاة
والسلام : « . . . فلَمَّا دَخَلْتُ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ فَأَخَذَ ، فَقَالَ : ادْعِي اللَّهَ
لِي وَلَا أَضُرُّكَ ، فَدَعَتِ اللَّهَ ، فَأَطْلَقَ ، ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ ، فَأَخَذَ مِثْلَهَا أَوْ أَشَدَّ ،
فَقَالَ : ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضُرُّكَ . فَدَعَتِ اللَّهَ فَأَطْلَقَ ، فَدَعَا بَعْضَ حَجَبَتِهِ ،
فَقَالَ : إِنَّكُمْ لَمْ تَأْتُونِي بِإِنْسَانٍ ، إِنَّمَا أَتَيْتُمُونِي بِشَيْطَانٍ » .

ها هي ذي زوجة الخليل عليه السلام تستجيب لطلب زوجها ، وتتقبل
الأمر الواقع في غير ما جزع ولا خوف ، ثقة في الله عز وجل واطمئناناً إليه . .
وما هي إلا لحظات حتى وجدت نفسها في قبضة الملك الطاغية ، وهو يريد أن
يغلبها على نفسها ، ويستخلصها لنفسه طغياناً وظلماً ، لكننا حيث نعلم قوة
إيمانها نؤمن يقيناً أنها قد هبت مسرعة إلى الله عز وجل لاجئة إليه ، متضرعة في
حرارة وإخلاص بأن يكشف كربها ، ويفرج همها ، فلقد وعد الله عز وجل
بذلك عباده خاصة في حالات اضطرابهم ، حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَمَّنْ
يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ مَعَ اللَّهِ
قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١) . ونستأنس في هذا المقام بما ورد من أنها قامت تفرع إلى
الصلاة وتناجي ربها في هذا الموقف العصيب الذي يهددها - كما ورد ذلك في
إحدى الروايات (٢) - فتقول : « اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ أَمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأَحْصَنْتُ
فَرْجِي إِلَّا عَلَى زَوْجِي فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الْكَافِرَ » . وهي تردد ذلك بصورة تعكس
مبلغ المعاناة التي تشعر بها ، وفي كل مرة يُمنع منها بإرادة الله عز وجل وقدرته ،

(١) النمل : ٦٢ .

(٢) انظر صحيح البخاري ، ٣ / ٣٨ .

ويُصاب بحالة شبيهة بالاختناق ، حتى ليوشك على الهلاك ، فيسألها الدعاء ليتخلص مما هو فيه . فتدعو الله تبارك وتعالى بأن يُرسله ، حتى لا يقال : إنها قتلته . . . فيستجيب الله عزّ وجلّ لها ﴿ ذلك بأنّ الله مولىّ الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم ﴾ (١) ، فإذا سلم عاد لفعلته مرة أخرى ، فتعود لربها مستنجدة به ؛ ليخرجها من مأزقها ، فتصيبه الحالة مرة أخرى ، ثم تدعوه لفيرسل . . . وكل ذلك لم يفت في عضدها ، بل كان من شأنه أن يقوي من عزيمتها في مواصلة الكفاح في معركتها مع الباطل والظلم والطغيان . . . وهكذا إلى أن يقول الظالم : إنكم لم تأتونني بإنسان إنما أتيتموني بشيطان . . . وهكذا يمنعا الله عزّ وجلّ ويعصمها من أن يمسه بسوء .

وتقف القصة النبوية الكريمة طويلاً لتصور لنا هذه الصورة الرائعة - أعني بها اطمئنان قلبها وسكون نفسها ، وشعورها بحلاوة الإيمان ، فلم يتسرب إليها جزع ، ولم يعرف اليأس إلى قلبها سبيلاً ، بعد أن لجأت إلى الحي القيوم في ذلك الموقف العصيب - ولتعكس لنا جانب الشر الذي انطوت عليه نفس الملك من الطغيان والجبروت والكفر بالله عزّ وجلّ ، ذلك أنه لم يكن مدرّكاً حقيقة ما ألمّ به من المعجزة الإلهية ، ولكن أتى لئله أن يفطن لهذه الحقيقة !!؟

وإذا أنعمنا النظر في العبارة النبوية الكريمة وجدنا البيان النبوي الكريم يستخدم طريقة مناسبة من الألفاظ والعبارات العفيفة في التعبير عند عرض موقف الفاحشة ، ولهذا كان الأسلوب الكنائي الأفضل في التعبير من الأسلوب الصريح على نحو قول النبي ﷺ : « ذهب يتناولها بيده » وهذا اتجاه اقتفت فيه القصة النبوية أثر القرآن الكريم في عرض مثل هذه المواقف ، كما نجد في قصة يوسف عليه السلام . قال تعالى : ﴿ وراودتهُ التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذَ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون . ولقد هممتُ به وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوءَ والفحشاءَ إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدت قميصه من دبرٍ

وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم» (١) . لقد استطاعت الآيات القرآنية أن تتناول الموقف وتعرضه بلفظ رفيع ، يفيض بالعفة والسمو ، ويبعث على النزوع إلى الفضيلة ، وذلك بعدم الوقوف طويلاً عند لحظة الهبوط وتركيز الأضواء عليها . (٢)

كما نلاحظ من تأملنا للعبارة النبوية الكريمة استعارة البيان النبوي (الأخذ) للاختناق ، بجامع التمكّن في كل . . . وتشير إحدى روايات الحديث لهذا المعنى ، قال النبي ﷺ : « . . . فأرسل بها إليه فقام إليها ، فقامت توضأ وتصلي ، فقالت : اللهم إن كنت آمنت بك ورسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر ، فغطّ حتى ركض برجله . . . » (٣) فنجد أن لفظة (الأخذ) هنا لا تقوم لفظة أخرى غيرها بالتعبير عما أصابه من العقاب ؛ لأن من ينزل به العقاب يصير كالمأخوذ المأسور الذي لا يقدر على التخلص . . . لذا كانت الاستعارة أبلغ ؛ لأن الأخذ شيء مرئي محسوس ، وما يقع عليه الحس أقوى أثراً وتأكيدها مما لم يقع عليه . . . فشبّه المصطفى عليه الصلاة والسلام الاختناق بالأخذ ، ثم استعير الأخذ للاختناق ، واشتق من الأخذ بمعنى الاختناق (أخذ) بمعنى (اختنق) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية . . . كما أن القول النبوي الكريم (ذهب) يعادل (أخذ) على طريقة استبدال الأحداث بعضها ببعض ، وهذا هو السر في اختيار هذا الفعل دون غيره ، حيث يفهم من تفرّيع قوله الكريم : « فأخذ » على قوله « ذهب » إنذاراً للظالم أن ذهابه لإلحاق الأذى بزوجة الخليل عليه الصلاة والسلام مدعاة للعقاب ، فما أن ذهب

(١) يوسف : ٢٣ - ٢٥ .

(٢) يراجع كتاب منهج الفن الإسلامي ، محمد قطب ، فصل العواطف البشرية في التصور الإسلامي ، وانظر كتاب القصص في الحديث النبوي ، د / محمد حسن الزير ، ٤٧٨-٤٨١ .

(٣) انظر ص ٢٢٧ ، هامش رقم ٣ ، من هذا البحث . ذكر العيني - فيما نقله عن ابن التين - قوله : « غطّ : أخذ مجاري نفسه حتى سمع له غطيظ ، يقال : غطّ المخنوق ، إذا سمع غطيظه ، وقوله : حتى ركض برجله : أي حركها وضربها على الأرض . . . يعني أنه اختنق حتى صار كأنه مصروع » يراجع كتاب عمدة القاري ، ٣١ / ١٢ ، وكتاب فتح الباري ، ٦ / ٣٩٣ .

يتناولها حتى أخذ . . . وهكذا ساهمت المشاكلة مع الاستعارة والكناية في جمال الأسلوب وسمو بلاغته .

وكذلك إذا تأملنا العبارة النبوية الكريمة - على لسان الملك - « إنكم لم تأتونني بإنسان ، إنما أتيتموني بشيطان » وجدنا أن لفظ (الشيطان) يمكن أن يكون حقيقة ، كما يمكن أن يكون مجازاً . أما كونه على سبيل الحقيقة فهو باعتبار حقيقة زعم هذا الطاغية ، ولفظ (إنما) تفيد الاختصاص ، والتقدير : ما أتيتموني إلا بشيطان . فقصر الإتيان على الشيطان قصر صفة على موصوف قصر إضافي ، وهو قصر قلب بدليل قوله : إنكم لم تأتونني بإنسان . فالظالم في اعتقاده المزعوم أنها شيطان ، وحالت - بقدرتها الخارقة - بينه وبين الوصول إلى مبتغاه منها .

وأما كونه على سبيل المجاز ، فعلى سبيل تشبيهها بالشيطان ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، بجامع الإتيان بأمر يعجز البشر عنها . ولفظ (إنما) - في هذا الاستعمال - لتأكيد أمر ينكره المخاطب ؛ لئلا يتحدث بما ظهر من كرامتها فتعظم عند الناس ، فألبس على السامع بذكر الشيطان . . . وأياً كان مراد الظالم بقوله هذا ، فقد عصمها الله عز وجل من أن يمسه بسوء ، إضافة إلى أنه وهبها هاجر ؛ لتخدمها .

وهكذا يأتي انفراج الأزمة بعد أن وصلت إلى ذروتها . . . فتعود إلى زوجها إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهو قائم يصلي ، فأوماً بيده مستفسراً^(١) عما حدث لها ، فتجيبه قائلة : « ردّ الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره » وفي قولها الكريم استعارة تمثيلية ، حيث شبهت حال من أراد أمراً باطلاً وأعد له العدة ولم يصل إليه فارتد عليه من حيث لا يدري أن السبب يرجع إليه في شخصه

(١) تحدث الجاحظ عن فضيلة الإشارة في الدلالة على المعاني ، بل إنه فضّلها على اللفظ ، في مثل هذا المقام ، يقول في كتابه « البيان والتبيين » : « الإشارة واللفظ شريكان ، ونعم العون هي له ، ونعم الترجمان هي عنه . وما أكثر ما تنوب عن اللفظ ، وما تغني عن الخط . . . ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاصّ الخاص ، وجاهلوا هذا الباب ألبته » ، ٧٦ / ١ - ٧٩ .

بحال الكافر الذي يرد الله كيده عليه بسبب كفره ، بجامع تدبير الباطل ثم الخيبة في كلِّ (١).

وهكذا تعرض علينا القصة النبوية الكريمة نموذجاً لإخلاص العقيدة ، والثقة بالله عزّ وجلّ ، التي بها ينال العبد الكرامة والمحبة من الله ، فيصبح ولياً من أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . بأسلوب بياني معجز ، ندرك من خلاله دقة التصوير ، وجمال التعبير عن المعاني ، ونقلها إلى السامعين فكأنهم لا يسمعون كلاماً ؛ بل يشاهدون حقائق ماثلة للعيون !!



(١) وعلى رواية مسلم المذكورة ص ٢٢٨ ، هامش رقم ٢ من هذا البحث : « . . . وقالت : خيراً كفّ الله يد الفاجر ، وأخدم خادماً » ، قد يراد بها الحقيقة ، وهي الإشارة إلى ما أصاب يده من القبض . « فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت قبضة شديدة . . . » وقد يكتنى بها عن الاعتصام والمنع . . . فالله عزّ وجلّ منعها منه وحماها . . . ويمكن الجمع بين الروايات المتعددة لهذه القصة النبوية الكريمة : قوله ﷺ : قبضت يده قبضة شديدة ، وقوله الكريم : . . . فأخذ ، وقوله عليه الصلاة والسلام : فغظ حتى ركض برجله « بالكناية عمّا حدث للظالم من المكروه الشديد ، فمنع عمّا أراد من إلحاق السوء بزوجة الخليل عليه الصلاة والسلام ..

وقولها لزوجها عليه الصلاة والسلام - كما ورد برواية البخاري المذكورة ص ٢٢٨ ، هامش رقم ٢ ، من هذا البحث - « أشعرت أن الله كبت الكافر وأخدم وليدة ؟ ! » أفاد الاستفهام التقرير بحقيقة إذلال الله عزّ وجلّ له ، وصرفه عنها . . . قال ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري : « إن الله عزّ وجلّ كشف لإبراهيم حتى رأى حال الملك مع سارة معانية ، وأنه لم يصل منها إلى شيء ، ذكر ذلك في (التيجان) ولفظه « فأمر بإدخال إبراهيم وسارة عليه ثم نحى إبراهيم إلى خارج القصر وقام إلى سارة فجعل الله القصر لإبراهيم كالقارورة الصافية ، فصار إبراهيم ، ويسمع كلامهما » ، ٦ / ٣٩٤ . كما أن هذا الاستفهام التقريري يوحي بأنها كانت ترى إبراهيم أيضاً .

إيحاء الضمير اليقظ

إحياء الضمير اليقظ

عن عبد الله بن مسعود^(١) - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : « بينما رجل فيمن كان قبلكم كان في مملكته ، فتفكر ، فعلم أن ذلك منقطع عنه ، وأن ما هو فيه قد شغله عن عبادة ربه ، فتسرب فانساب ذات ليلة من قصره ، فأصبح في مملكة غيره ، وأتى ساحل البحر ، وكان به يضرب اللبن بالأجر ، فيأكل ويتصدق بالفضل ، فلم يزل كذلك حتى رقى أمره إلى ملكهم وعبادته وفضله ، فأرسل ملكهم إليه أن يأتيه ، فأبى أن يأتيه ، فأعاد ، ثم أعاد إليه ، فأبى أن يأتيه ، وقال : ما له ومالي؟! قال : فركب الملك ، فلما رآه الرجل ولى هارباً ، فلما رأى ذلك الملك ركض في أثره ، فلم يدركه ، قال : فناداه : يا عبد الله ، إنه ليس عليك مني بأس ، فأقام حتى أدركه ، فقال له : من أنت ، رحمك الله ؟ قال : أنا فلان بن فلان ، صاحب مئك كذا وكذا ، تفكرت في أمري ، فعلمت أن ما أنا فيه منقطع ، فإنه قد شغلني عن عبادة ربي ، فتركته ، وجئت ههنا أعبد ربي عز وجل ، فقال : ما أنت بأحوج إلي ما صنعت مني ، قال : ثم نزل عن دابته فسيبها ، ثم تبعه ، فكانا جميعاً يعبدان الله عز وجل ، فدعوا الله أن يميتهما جميعاً ، قال : فماتا . قال عبد الله : لو كنت برميعة مصر^(٢) لأريتكم قبورهما بالنعث الذي نعت لنا رسول الله ﷺ > (٣) »

تحليل القصة النبوية الكريمة :

جعل الله عز وجل العمل رسالة الوجود ووظيفة الأحياء ، وجعل السباق في إحسانه سر الخليفة ، ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴾ (٤) .

(١) انظر ترجمة راوي الحديث ص٩٥، من هذا البحث .

(٢) الرميعة : موضع تحت قلعة الجبل ، كانت ميدان أحمد بن طولون ، وبها كانت قصوره وبساتينه ، وهي المعروفة الآن باسم « ميدان صلاح الدين » بالقلعة . انظر النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي ، ٤ / ٤٩ ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٩٧١ م .

(٣) رواه أحمد بن حنبل في مسنده ، ١ / ٤٥١ ، وإسناده حسن .

(٤) الملك : ٢ .

إن النصوص الهادية إلى تلازم الإيمان والعمل كثيرة ، يخر بها كتاب الله عزّ وجلّ وتستفيض بها السنّة النبوية المطهرة ، تقرّ الحق في نصابه ، وترسم لكل مسلم غايته ، فتقرع الأذان بذلك الأمر الحاسم ﴿ وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسِرِّيَ اللّٰهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١) . ولذا كان عمران الأرض ، ودوام الحياة فيها مقصداً من مقاصد الشريعة الإسلامية وغاية من غاياتها ، لا يسعى لتحقيقها إلا أولو الهمم العالية من المتقين الذين لا تفتقر عزائمهم عن العمل ، ويبذلون أقصى الجهد في ميادين الفضل . .

وقد وجه النبي ﷺ المسلمين إلى تلك الحقائق ، وعمق تلك القيم في وجدانهم ، فأدركوا أن الحياة الدنيا مزرعة للآخرة ، وخزائن تودع فيها الأعمال الصالحة المقربة إلى رحمة الله ورضوانه . يزداد فيها أهل العقول والبصائر معرفة بحقيقتها ، وأنها دار سريعة الزوال . .

استهلت القصة النبوية الكريمة بمقدمة تمهيدية موجزة متضمنة عدة معانٍ أسهمت في صنع صورة معينة لطبيعة الموقف الذي تنشأ في ظلّه أحداث القصة . . يظهر ذلك من خلال القول الكريم : « بينما رجل فيمن كان قبلكم كان في مملكته ، فتفكّر ، فعلم أنّ ذلك مُنْقَطِعٌ عنه ، وأن ما هو فيه قد شغله عن عبادة ربّه » ، فهي تشير إلى شخصية مهمة (ملك) وأنه كان (قبلكم) ، وفي هذا تحديد تاريخي مجمل يفيد وقوع أحداث القصة في الماضي ، دون تحديد للزمان أو المكان ؛ لتتجرد المعاني وتبقى مطلقة يمكن الاستفادة منها بتطبيقها في أي وقت ؛ ولتظل تجربة قائمة إلى نهاية الزمان . ومع التجريد ربط للماضي بالحاضر ممثل في إضافة قبلية إلى المخاطبين ؛ لتعميق إحساسهم بواقع القصة التي ترسم المقدمة الكريمة صورة الموقف الذي تنطلق في ظلاله أحداثها . . . ولا تكتفي القصة النبوية بذكر الملك - مع ما يشير إلى معنى السلطة - ولكنها تشير إلى أنه وهو في مملكته وسلطانه يقف ضميره الحيّ اليقظ ، يحدد له الاتجاه الصائب

(١) التوبة : ١٠٥ . .

الراشد ، ويوحى إليه بسلوكه ، وتكاد تتعالى همساته في النفس مردداً قول ربّ العزة والجلالة : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (١) . ليغلب - بهذا الإيحاء - جانب الخير . . . إنها قدرة عجيبة تأخذ بمجامع النفس وتوقظها من إلفها وعادتها ، فيترك ما التبس عليه وتردد في صدره ويفعل ما اطمأن إليه قلبه وسكنت لفعله نفسه ، فيختار الباقي على الفاني . . . وليت شعري ماذا عسى أن يأخذ المرء من هذا المتاع القليل ، مهما ابتسم له الزمان ، وطال به الأجل؟! وماذا عسى أن يغني عنه لهو الحياة والانخداع بزيتها والمفاخرة فيها ، والتكاثر بالأموال والأولاد حين يزول ذلك عنه ، وتغدو كل نفس إلى ما قدمت ، وتصير إما إلى المغفرة والرضوان أو نقيضهما ﴿ اعلموا أنّما الحياة الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتْرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (٢) .

وإذا أنعمنا النظر في المقدمة الكريمة - كلمات وجمل - وجدنا دقة التعبير النبوي الكريم ، حيث وصف الرسول الكريم حال هذا الملك في تأمله وجولان فكره ، ويقينه بأبلغ وصف « فتفكر فعلم أن ذلك منقطع عنه » إنها حركة حركة ، وخطرة خطرة ، يرسمها التعبير النبوي كما لو كانت ريشة تصور لا كلمات تعبر ، تلتقط المشهد لمحة لمحة . لقطة وهو يفكر ويتأمل ، ثم يقينه بما سيؤول إليه ذلك الملك والجاه والسلطان ، وجميع ألوان النعيم الدنيوي . . . والتعبير بـ (ما) يلخص ويطوي كل ما مضى من زينة دنيوية . . . كما أن التعبير باسم الإشارة (ذلك) كناية عن ملكه وسلطانه . . . ووجه الإتيان (بفي) الدالة على الظرفية الإشارة إلى أنه قد امتلكه السلطان والجاه والنعيم ، وأحاط به إحاطة الظرف بالمظروف ، وبهذا تتناسق هذه الاستعارة التبعية مع هذا السياق .

(١) النازعات : ٣٧ - ٤١ .

(٢) الحديد : ٢٠ .

وهكذا تضعنا المقدمة النبوية الكريمة أمام موقف القصة بكل أبعاده وملايساته ، كما أنها - في الوقت نفسه - تثير في نفوسنا عوامل التشوق لمعرفة ما جرى عليه مستقبل الملك . قال النبي ﷺ : « . . . فتسرب فانساب ذات ليلة من قصره فأصبح في مملكة غيره ، وأتى ساحل البحر ، وكان به يضرب اللبن بالأجر ، فيأكل ويتصدق بالفضل ، فلم يزل كذلك حتى رقى أمره إلى ملكهم وعبادته وفضله ، أرسل ملكهم إليه أن يأتيه ، فأبى أن يأتيه ، فأعاد ، ثم أعاد إليه ، فأبى أن يأتيه ، وقال : ما له ومالي؟! قال : فركب الملك ، فلما راه الرجل ولئى هارباً ، فلما رأى ذلك الملك ركض في أثره ، فلم يدركه ، قال : فناداه : يا عبد الله ، إنه ليس عليك مني بأس ، فأقام حتى أدركه ، فقال له : من أنت ، رحمتك الله؟ قال : أنا فلان بن فلان ، صاحب ملك كذا وكذا ، تفكرت في أمري ، فعلمت أن ما أنا فيه منقطع ، فإنه قد شغلني عن عبادة ربي ، فتركته ، وجئت ههنا أعبد ربي عز وجل » .

هذه الأحداث مترتبة على الموقف الأول ، فبعد يقينه بزوال ما هو فيه وفنائها ، يخرج ذات ليلة متخفياً من قصره وعلى تلك الصفة التي ذكرها المصطفى عليه الصلاة والسلام بقوله الكريم : « فتسرب فانساب من قصره فأصبح في مملكة غيره » ، يسعى في مناكب الأرض ، وقد شمر سواعد الجهد للعمل في الدنيا من أجل الآخرة فها هو ذا يتخذ من صنع اللبن مهنة له ، فيأكل ويتصدق بالفضل . لقد عرف حقيقة الدنيا ، وأنها عرض زائل ، يأكل منها البر والفاجر ، وأن الحياة الحقيقية هي حياة الآخرة ، فاقصر من الدنيا على ما يقيم الأود ، ويحفظ المهج ، قال النبي ﷺ : « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنٍ . . . حَسْبُ الْآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقْمَنَ صَلْبَهُ . . . » (١)

ولم يزل الملك على حالته تلك حتى يتناقل الناس أمره ، فيسارعون بخبر عبادته وفضله إلى ملكهم . فيرسل في طلبه ، لكنه يرفض تلبية دعوته ، بل ويحرص على ذلك حرصاً شديداً ، فيستعلي - وقد امتلأ قلبه بالإيمان الحق -

(١) رواه ابن ماجه ، ٢ / ١١١١ .

على كل نعيم زائل ، ويظل الملك يلح في الطلب ، وهو يصبر على الرفض ، إلى أن يقرع أذنه قوله : ما له وما لي ؟ كل ذلك دفع بالملك إلى الذهاب إليه . . . حتى تمكن منه سأله عن حاله ، فيجيبه بقوله : « أنا فلان بن فلان ، صاحب مُلْك كذا وكذا ، تفكرت في أمري ، فعلمت أن ما أنا فيه منقطع ، فإنه قد شغلني عن عبادة ربي ، فتركته ، وجئت ههنا أعبد ربي عز وجل » . مشيراً إلى أن التقلل من الدنيا ، وعدم تعلق القلب بها من أقوى عوامل الإقبال على الله عز وجل ، والأنس به وبذكره ، والتلذذ بطاعته وعبادته .

وإذا أنعمنا النظر في تلك العبارة النبوية الكريمة وجدنا الصور البيانية استطاعت أن تؤدي دورها الذي أنيط بها على أكمل وجه . . . انظر إلى استعارة تسرب الماء وانسيابه لخروج الملك من قصره ، وسيره سيراً حثيثاً ، بجامع السرعة في كل . . . ولو تأملنا هاتين الصورتين الاستعاريتين لوجدناهما تسيران في اتجاه واحد وهو الحركة . . . إلا أن النبي ﷺ نظر إلى أن خروج الملك من قصره قد تم على صورتين متتابعتين ، فكان الخروج في أوله بخفية حتى لا يشعر به أحد من حاشيته ، يرسل خطواته بحذر شديد حتى إذا اطمأن وبعد سار مسرعاً ، فصور تلك الحركة بالانسياب ؛ لأن الانسياب أسرع من التسرب ولهذا كانت الاستعارة الثانية (انساب) هي الاستعارة الثانية التي تفيد قوة الصورة الحركية لخروج الملك . كما أنها توحى إلى ما كان عليه حال الملك حين خروجه من قصره وقد تخلص من كل المتع المادية . . . وها هو ذا ينطلق بتلك الخفة ، وعلى تلك السرعة الشديدة من قصره ذات ليلة ، وما إن دخل عليه الصباح حتى كان في مملكة غيره ، ومن هنا كان التعبير بـ (الفاء) أدق في الدلالة على معنى التابع . . .

مكث الملك في تلك البلدة يعبد الله عز وجل ويتقرب إليه بصالح الأعمال حتى « رقى أمره إلى ملكهم وعبادته وفضله » . . . وفي هذه العبارة النبوية الكريمة تصوير لما كان عليه أمره الصالح الذي لغرابته في تلك البلدة اشتهر بين الناس ، حتى وصل إلى ملكهم . . . ولذلك يصور المصطفى الكريم ذلك الأمر بشيء محسوس له صفة الصعود والارتفاع على سبيل الاستعارة المكنية ، وإثبات الرقي للأمر استعارة تخيلية . . . كما أن العطف في هذه العبارة الكريمة يعطي صورة لترقى المعاني . . . فأمره وصل إلى الملك ، خصوصاً عبادته وفضله

التي زادت رقياً على أمره كله، فتخصيص عبادته وفضله بالذكر - مع كونهما داخلين في عموم الأمر - تنبيهاً عليهما، حتى كأنهما جنسٌ آخر مغايرٌ لما قبلهما . . . وهذا الأسلوب البارع يصور لنا القيمة العظمى للعبادة والعمل الصالح .

ويكني النبي ﷺ بقوله الكريم : « أنا فلان بن فلان ، صاحب ملك كذا وكذا » عن الشخصية ذاتها ، وعن مملكته ، والسرّ في عدم التصريح باسم الملك أو اسم مملكته هو الاهتمام بنوع الحدث ونوع الموقف ، لما له من أثر في التربية والتوجيه ، وتعليم الجماعة المسلمة ، وتأيد أهداف الدعوة الإسلامية ، وتحقيق أغراضها ، بصرف النظر عن كونه حدث لفلان بعينه من الناس ، لهذا لم تذكر شخصية الملك معينة باسمه ، وإن ذكرت بصفته التي تخدم طبيعة دورها في القصة . . . وهذا بلا شك يضيف على القصة النبوية نوعاً من العموم والحيوية ، فتنتقل في رحاب أوسع في مجال التأثير والتوجيه عبر أزمان طويلة .

ونتأمل دقة النبي ﷺ وتوفيقه في اختيار صورته البيانية المعبرة عن معانيها أبداع تعبير ، فنرى أنها جاءت على النسق القريب من العرف الحقيقي ، فكأن المصطفى عليه الصلاة والسلام أراد لألفاظه الحقائق عن عمد ؛ لجعل السامعين أكثر إحساساً وارتباطاً بتلك الحقيقة التي تكمن في صفاء الفطرة وبُعدها عما يدنسها من آفات الاغترار بالدنيا وزينتها ، فما الدنيا إلا دار عمر ، يتزود منها العباد لدار المستقر . . .

وهذه هي الحقيقة العظيمة التي تمثلها الملك المستمع ، فإذا به يقول : « ما أنت بأحوجَ إلى ما صنعت مني » إنها حقيقة الإيمان التي تملأ النفس ، وتدعوها فتنتقل ملبية نداء الفطرة . . . إننا نراه الآن - في ظل ما سمعه من هذه الحقيقة - يسلم نفسه تسليماً كريماً لله عزّ وجلّ ، ويودع نفسه وأعماله ومشاعره عند الحق الذي لا تضيع عنده الودائع . . . وينطلق غريباً لا يعرف إلا العمل من أجل آخرته ، فإذا نظر إلى الدنيا لم ينظر إليها إلا من حيث تبلُّغُ القدرة على هذا العمل . عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال : « أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي ، قال : كُنْ في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ ، وَعَدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ . . . » (١) .

(١) رواه الترمذي ، ٣ / ٣٨٨ .

الحقارة

الخاتمة

أستطيع أن أقف هنا بعد أن بلغ البحث إلى هذا المدى ، لأستخلص أهم النتائج التي انتهت إليها ، فأقول وبالله التوفيق :

١ - أثبتُّ أصالة الفن القصصي في الأدب العربي القديم ، من خلال اشتمال النص القرآني على العديد من القصص التي كان بعضها معروفاً لدى الجاهليين نحواً من المعرفة ، ومن خلال ورود كلمة (قصة) بعدة معانٍ ، وفي مواضع متفرقة من القرآن الكريم . فضلاً عن وجودها الواقعي المتمثل في التراث العربي الحافل بأشكال قصصية متنوعة ، وإن كان أغلبها في المجال الشعري .

٢ - درست التشبيه في القصة النبوية فوجدت صورها التشبيهية قد استوعبت أغلب التقسيمات التي عرفها علماء البلاغة ، من حيث الأداة والوجه وطرف التشبيه ، وهذا ما يؤكد دقة تقسيمات علمائنا لهذا البحث .

٣ - لاحظت في بناء الصورة التشبيهية للبيان النبوي الكريم غمطاً أسلوبياً متميزاً ، هو أن أغلب تلك الصور - إن لم أقل كلها - تأتي لخدمة المشبه ، فتوضحه وتحدده ، وتقربه من الأذهان ، ومن هنا كانت الصفة الجامعة بين طرفي التشبيه أقوى في المشبه به من المشبه .

٤ - بحثت عن سرّ الإسناد المجازي في القصة النبوية إلى السبب ، أو الزمان أو المكان أو الآلة ، فوجدته التأكيد على صدور الفعل عن الفاعل الحقيقي . . وهذا ما قرره الإمام عبد القاهر الجرجاني بقوله : «إنّ المجاز لم يكن مجازاً لأنه إثبات الحكم لغير مستحقه ، بل لأنه أثبت لما لا يستحق ، تشبيهاً ورداً إلى ما يستحقّ ، وأنّه ينظر من هذا إلى ذاك ، وإثباته ما أثبت للفرع الذي ليس بمستحق ، يتضمّن الإثبات للأصل الذي هو المستحق ، فلا يتصور الجمع بين شيئين في

وصف أو حكم من طريق التشبيه والتأويل ، حتى يُبدأ بالأصل في إثبات ذلك الوصف والحكم له^(١) .

٥ - أثبتُ - من خلال البحث - استيعاب البيان النبوي لصور الاستعارة وتقسيماتها المصطلح عليها عند علماء البيان . وبينتُ من خلال دراسة الصورة الاستعارية المعنيين : الحقيقي والمجازي ، ودقة التعبير بالاستعارة دون الحقيقة ، والسرّ البلاغي في العدول عن الحقيقة إلى الاستعارة .

٦ - أثبتُ قدرة البيان النبوي الكريم على تجسيم المعاني ، وتصوير الخواطر الذهنية ، خاصة فيما يتعلق بالغيبيات ، حيث تتحول المعاني - من خلال الاستعارات - إلى صور حية وشخوص متحركة ، ومشاهد تنبض بالحياة ، وذلك أدعى لتقرير الفكرة في العقل ، واستئناس النفس بها ، فما يقع عليه الحس أقوى أثراً وتأكيذاً للمعنى . . . كما لاحظت غلبة التعبير بالماضي عن المضارع - خصوصاً فيما يتعلق بالبعث والجزاء واليوم الآخر - وذلك لتحقيق الوقوع ترغيباً أو ترهيباً . . وأقل من ذلك التعبير بالمضارع عن الماضي لاستحضار الصورة تسليّة أو عظة .

٧ - وجدت أن بناء الصورة الاستعارية يقوم على انتقاء الألفاظ المناسبة للمعنى دونما تعقيد أو تكلف ، حيث يضيفي اللفظ من ظلاله على المعنى إحياءات تخدم الفكرة المراد بيانها .

٨ - أثبت استيعاب البيان النبوي لأقسام الكناية المصطلح عليها عند علماء البيان . . كما لاحظت أن كنايات البيان النبوي الكريم تتصف بقرب معانيها وسهولة تناولها؛ لأن مهمة النبي ﷺ التبليغ والتأثير ثم الإقناع ، ولهذا كانت الكنايات القريبة من سمات البيان النبوي .

٩ - تمتاز كنايات البيان النبوي بجمال التعبير ، خاصة التعبير عن المعاني غير

(١) يراجع كتاب «أسرار البلاغة» ، ص ٣٨٦ .

المستحسنة بألفاظ لاتعافها الأذواق، ولاتمجها الأذان، ومن هنا كان حسن الكناية في هذا البيان عما يجب أن يكنى عنه من المعاني والألفاظ القبيحة .

١٠ - لاحظت أن الصورة الكنائية تصور الأحداث بجوامع الكلم، لتترك إطناباً نفسياً يطوي تحته الكثير من المعاني .

١١ - بينتُ أن النبي ﷺ ضمّن قصصه الكريمة الكثير من المبادئ والقضايا التي جاءت بها الرسالة الإسلامية، كقيم الإسلام، وقضايا العقيدة، والرسالة، ونظرة الإسلام إلى الإنسان بما ينطوي عليه من خير وشر، وعقيدة الإسلام عن الحياة والموت، كما تناولت إرهاصات البعث، ومبدأ البعث والجزاء . . . وهذه كلها مضامين دينية، تصور نظرة الإسلام وتصوره عن الإنسان والكون والحياة، فالرسول ﷺ كان حريصاً على خدمة ذلك الغرض الديني الأساسي، وهو يوظف القصة، ويستغل إمكاناتها في التأثير . . . ولكن كل هذا لم يحل بينها وبين أن تخرج وفق النسق الفني المتعارف عليه في المجال الأدبي سواء في ذلك طريقة عرض الفكرة أو هدفها .

١٢ - لاحظت أن أسلوب القصة النبوية تبرز فيه البساطة والوضوح، وهي البساطة الزاخرة بالحياة والقوة التي تجعله أكثر تأثيراً، نظراً لما يتمتع به من تنوع في الصياغة والتعبير حسب ما يتطلبه عرض القضايا، والعلاقات الموضوعية التي تتناولها القصة . . . فلاحظت التوظيف الجيد للفعل المضارع بما يملكه من دلالة حيوية وقدرة على تجدد الحدث . . كما وجدت أن الفعل الماضي استعمل بجانب المضارع ليعطي طابع التحقق خاصة حين يكون الحديث في القصة عن مشاهد القيامة .

كما لاحظت أن المضمون حاضر دائماً في ضمير اللفظة أو العبارة، بمعنى أنني أشعر أن هذه اللفظة أو تلك العبارة توضع في السياق بعناية بحيث تؤدي دوراً مزدوجاً؛ فلا أرى من الكلام ألفاظاً، ولكن حركات نفسية في ألفاظ ذات

إيحاء خاص ، وما يفيض عنها من معنى معين . . تتألف تلك الألفاظ وتتلاحم من أجل خلق الصورة البيانية ، وخاصة أن الناحية التصويرية سمة بارزة في القصة النبوية .

كما أن الألفاظ في القصة النبوية بعامة تبدو في صورة بسيطة بعيدة عن البهرجة اللفظية أو المحسنات التي لا طائل تحتها ، فخلص أسلوبه عليه الصلاة والسلام ، فلم يقصر في شيء ، ولم يبالي في شيء ، واتسق له هذا مع كمال الفصاحة والبلاغة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي

لولا أن هدانا الله

* * *

الفهارس العامة

- * فهرس الآيات القرآنية الكريمة .
- * فهرس القصص النبوية ، مجال الدراسة .
- * فهرس الأحاديث النبوية الواردة في ثنايا البحث .
- * الفهرس الإحصائي للوجوه البيانية :
 - أ - التشبيه بنوعية .
 - ب - المجاز العقلي وملابساته .
 - ج - المجاز اللغوي بنوعية .
 - د - الكناية بأنواعها .
 - هـ - الصور الكلية .
- * فهرس المصادر والمراجع .
- * فهرس موضوعات البحث .

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآية	رقمها	الصفحة
١ - سورة البقرة		
* ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ .	٣-٢	١١١
* ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ .	٤٦-٤٥	١٩٧
* ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ .	١٢٢-٤٧	٢١٧
* ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ .	١٣٨	٨٧
* ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي		

رقمها	الآية	الصفحة
١٧٧	الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾	١٩٠
١٨٣	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾	١٥٨
٢٨٦	﴿ لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾	١٣٠

٢ - سورة آل عمران

١٩	﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾	١٥٢
٣١	﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾	١٦٦
١٠٣	﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾	١٦٦
١١٠	﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾	٢١٧

٣ - سورة النساء

	﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا	
--	-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	--

الآية	رقمها	الصفحة
عَظِيمًا ﴿٥١﴾ .	٤٨	١٢٩
* ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ .	٥٢-٥١	٢٢٠
* ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴿٥٨﴾ .	٥٨	١٧٥

٤ - سورة المائدة

* ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾ .	٦٧	١٥٠
* ﴿ لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ .	٨١-٧٨	٢٢٠-٢١٥

الآية	رقمها	الصفحة
٥ - سورة الأنعام		
* ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .	١٧	٢٢٨
* ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧)﴾		
* ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ .	٧٧-٧٨	٩٧

٦ - سورة الأعراف

* ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .	٥٤	١٥٢
* ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سَقَنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .	٥٧	١٩٨
* ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ .	٥٩، ٦٥، ٧٣	١٥٢
	٨٥	
* ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .	١٧٦	١٢٠٩

٧ - سورة الأنفال

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ		
----------------------------------------------------------------------	--	--

الصفحة	رقمها	الآية
١٧٥	٢٧	وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ .
		* ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ السَّلَهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ .
١٦٥	٦٠	

٨ - سورة التوبة

		* ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١﴾ .
١٢	٧٢	* ﴿ وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ .
٢٣٩	١٠٥	* ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣﴾ .
١٨١، ١٦٥	١١١	* ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤﴾ .
٢١٦	١١٢	

رقمها الصفحة

الآية

٩ - سورة يونس

* ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ
وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ﴾ .

٩٠ ٢٦

* ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ
خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ .

١٢٩ ٥٨

١٠ - سورة هود

* ﴿ذَلِكِ مِنْ أَنْسَابِ الْقُرَيْيِ نَقَصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ
وَحَصِيدٌ﴾ .

٩ ١٠٠

١١ - سورة يوسف

* ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ .

٩ ٣

* ﴿وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ
الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي
أَحْسَنُ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ
بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ
عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)
وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا
لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ
يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

٢٣٣-٢٣٤

٢٣-٢٥

الآية	رقمها	الصفحة
١٢ - سورة الرعد		
* ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ .	١١	١٧٦، ١٤٢
١٣ - سورة إبراهيم		
* ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ .	١٨	٦٢
١٤ - سورة النحل		
* ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴾ .	٣٦	١٥٢
* ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ .	١٢٥	٢٢٢
١٥ - سورة الإسراء		
* ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ		

رقمها	الآية	الصفحة
١٣	يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾	١٢٧-١٢٨

١٦ - سورة الكهف

٩	﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾	١٣
٥١	﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾	٦١-٦٢
٤٠	﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾	٦٧-٦٨
٢٠٧	﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ أَتُونِي زَبْرًا حديدٍ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ أَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾	٩٣-٩٩

الآية	رقمها	الصفحة
١٧ - سورة مريم		
* ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ .	٤	١٠٦
* ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ .	١٢-١٣	١٥٠
* ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ .	٦٨	١٦٨
١٨ - سورة الأنبياء		
* ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ .	٢٥	١٥٢
* ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾	٩٦	٢٠٨، ٢٠٦، ١٨٨
١٩ - سورة الحج		
* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ		

الصفحة	رقمها	الآية
٩٨	٧٧-٧٨	وَأَتُوا الزُّكَاةَ وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٧﴾
٢٠ - سورة النور		
١٦٤	٥١	* ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُقَلَّبُونَ ﴿٥١﴾
١٦٩	٥٢	* ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾
٢١ - سورة النمل		
٢٣٢	٦٢	* ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾
٢٢ - سورة العنكبوت		
٨٢	٤٠	* ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾
٢٢٢	٦٩	* ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

الصفحة

رقمها

الآية

٢٣ - سورة الروم

* ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ
النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

١٧٣، ١٠٩

٣٠

٢٤ - سورة لقمان

* ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا
فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا
تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

١٩٠

٣٤

٢٥ - سورة فاطر

* ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو
حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

١٦٢

٦

٢٦ - سورة يس

* ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا
أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ .

٤٢

٨٠

٢٧ - سورة الزمر

* ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ
أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ

الصفحة	رقمها	الآية
١٥٣	٣	يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ .
١٥٥	٢٩	* ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ .
٩١	٥٣	* ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ .

٢٨ - سورة فصلت

١٣٠	١٦	* ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لَّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ .
-----	----	----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------

٢٩ - سورة الشورى

٩٠	١٧	* ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ .
----	----	-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------

٣٠ - سورة الزخرف

١١٢	٧١	* ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ .
-----	----	------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------

الآية	رقمها	الصفحة
٣١ - سورة الجاثية		
* ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ .	٢٤	٥٧
٣٢ - سورة محمد		
* ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ .	١١	٢٣٣
* ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ .	١٨	٢٧
٣٣ - سورة الذاريات		
* ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنَ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً عَنكَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ .	٣٢-٣٤	١٣٠
٣٤ - سورة الطور		
* ﴿ يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴾ .	١٣	٣١
٣٥ - سورة النجم		
* ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٢﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ .		

الصفحة	رقمها	الآية
١١٩، ١٥	٥-٣	(٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٤﴾ .
		* ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾
٢٤	١٨-١٣	

٣٦ - سورة القمر

		* ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾
١٩٨	١٩	

٣٧ - سورة الحديد

		* ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وِزِينَةٌ ﴿٢٠﴾ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴿٢١﴾ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴿٢٣﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٤﴾﴾
٢٤٠، ١٠٢	٢٠	

٣٨ - سورة الحشر

		* ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ ﴿٢٥﴾ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴿٢٦﴾ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٧﴾﴾
١٦١	٩	

الآية	رقمها	الصفحة
٣٩ - سورة المنافقون		
* ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنْهُمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ .	٤	١٨٠
٤٠ - سورة الملك		
* ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ .	٢	٢٣٨
٤١ - سورة القلم		
* ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ .	٤	٥
* ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطُومِ ﴾ .	١٦	١١٣
٤٢ - سورة الحاقة		
* ﴿ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ .	١٣	٥٨
٤٣ - سورة لنازعات		
* ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ .	٤١-٣٧	٢٤٠
٤٤ - سورة القارعة		
* ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ .	٧-٦	٥٨

فهرس القصص النبوية ، مجال الدراسة

رقم الصفحة	طرف الحديث
٦٩	أتاني ربي في أحسن صورة .
٥٩	احتج آدم وموسى .
٩٥، ٨٧	اخرجي أيتها الروح الخبيثة .
٤٥	إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء .
٩٠	إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد .
٨٠	إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن .
٨١، ٦٨	ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .
٩١، ٦٢	أسرف رجل على نفسه .
٥٢	أعور العين اليمنى .
٧٢، ٦٩	افتخرت الجنة والنار ، فقالت النار : .
١١٠	أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك .
٩٧	انتدب الله لمن خرج في سبيله .
٢١٥	إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل .
٨٩	إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة .
٦٧	إن ثلاثة كانوا في كهف فوق الجبل .
٩١	إن رجلاً لم يعمل خيراً قط .
١١٢	إن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه .
٢٧	إن الساعة كالحامل المتمم .
٨٢	إن عبداً أصاب ذنباً .
٨٤	إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل .
١٤٨	إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات .
١٢٤	إن الله سيخلص رجلاً من أمتي .
٨٣	إن موسى سأل ربه .
٥٤، ٣٦	إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل .

٦٠	إنني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي .
١٧٢،٣٥	أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال .
٤٧،٣٩	أن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل
٢٣٨	بينما رجل فيمن كان قبلكم كان في مملكته .
١١٣	تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان بن داود .
٥٢	ترجف المدينة بأهلها .
٨٣	تعلموا سورة البقرة .
٣٤	تعلموا سورة البقرة وآل عمران .
١٠١	تقيء الأرض أفلاذ كبدها .
١٠٩،٥٠،٢٥	ثم أتيت بإناء من خمر .
٥٠،٢٥	ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدره المنتهى .
١٠٥،٦٠	ثم جيء بجليس الملك .
١١٣،٥١،٢٥	ثم رفعت لي سدره المنتهى .
٧٩،٦٩	ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه .
١١٥	الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة .
١٤٣،٥٣،٤٥	سيخرج قوم في آخر الزمان حداث الأسنان .
٨٥	عرض علي ما هو كائن من أمر الدنيا .
٥٣،٥١،٢٧	غير الدجال أخوفني عليكم .
١٨٦،٧٢،٧٠	
١٠٤،١٠٣	غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه .
٦٨،٦١	فأتيت أهلي وأخذت محلي .
٦٠،٤٨	فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا .
٩٢،٦٢	فانظروا إذا مت فاحرقوني .
٥٣،٤٩،٢٧	فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً .
١٩٠،٧٣،٧١	
٤٠،٥٣،٤٧	فحمل موسى عليه السلام حوتاً في مكث .
٦١،٤٩	فسما بصري صعداً فإذا قصر .
١١٠	فقال : رجل مسكين تقطعت بي الحبال .
٣٢	فقالوا : عطشنا ربنا فاسقنا .

- ١١١ فنحن آخر الأمم ، وأول من يحاسب .
٧٠ فولدت غلاماً ، فقالت : من جريج .
٧١ فيستغيثون بالشراب فيرفع إليهم الحميم .
٧١ فيقول الله تبارك وتعالى للنار :
٩٥ فيقول : وأنت فبشرك الله بالشر .
٨٣ فيكون عيسى بن مريم عليه السلام في أمتي حكماً عدلاً .
٤٩ قلت : يا جبريل ما هذا؟
٩٢ كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض .
٩١،٦٦ كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين .
٩١ كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع عن ذنب .
١٣٤ كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير
٦٨ لله أفرح بتوبة أحدكم من رجل خرج بأرض .
٢٢٧ لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات .
١١٤-١١٣ لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل .
٦٧ ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد .
٥٢،٤٧،٣٩ ما نقص علمي وعلمك من علم الله .
٥٢،٣٥،٣٤ مثل القائم على حدود الله .
١١٢
٧٨ مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثلي رجل .
٥٤،٤٥ نزلت عليه ملائكة غلاظ .
٩٨ هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر .
٥٣،٤٤ وإن الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا .
١١٤ وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم .
٥٩ ومضى الناس فأتى الراهب فأخبره .
٩٦،٩٣ ويأتيه أت قبيح الوجه .
٧٣ ويأمر الأرض ، فتحبس نباتها كله .
٣٨ ويضرب جسر جهنم .
١٠٥ يجيء المقتول متعلقاً بالقاتل .
٢٩ يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار .

٥٠
١٤٣٠٥٢٠٤٥
٨٥
٣٠
٥٢

يدخل من أمتي زمرة هم سبعون ألفاً ..
يرقون من الدين كما يرق السهم ..
يؤتى بأنعم أهل الدنيا يوم القيامة ..
يؤتى بالرجل فيلقى في النار ..
يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح ..

* * *

فهرس الأحاديث النبوية الواردة في ثنايا البحث

رقم الصفحة	طرف الحديث
١٨٢	إذا ضيعت الأمانة فانتظروا الساعة .
١٧٥	أربع إذا كنّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا .
١٩٣	أعور عين اليمنى كأنها عنبة طافية .
١٨٢	إن أمام الدجال سنون خداعة .
١٩٥، ١٨٦	إن الدجال يخرج من أرض بالمشرق .
٢٠٧	إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم .
١٩١	إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم .
٢٠٥، ١٩٣	بيننا أنا نائم أطوف بالكعبة .
١٨٨	تفتح يأجوج ومأجوج وينحاز منهم المسلمون .
١٥٦	رأس الأمر الإسلام .
١٨٨	قالت : يا رسول الله ، فأين العرب يومئذ؟ .
٢٠٥	كانه رأسه يقطر ماء ، وإن لم يصبه بلل .
	كان رسول الله ﷺ إذا كان يوم الريح والغيم عُرف ذلك في وجهه .
١٩٨	
٢٤٣	كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل؟
١٣٨	كيف أنت إذا أصاب الناس موت يكون البيت فيه بالوصيف؟
١٧٣	لا إيمان لم لا أمانة له .
١٩١	لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان .
١٧٥	لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب امرئ .
١٩٥، ١٨٦	ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة .
١٨٦	ما بُعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب .
١٩٨	ما رأيت رسول الله مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته .
٢٤١	ما ملأ آدمي وعاء شراً .

- ١٧٣ ما من مولود إلا يولد على الفطرة ..
- ١٣١ ما من نفس تموت تشهد أن لا إله إلا الله ..
- ١٣٠ من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب .
- ٢٢٢ من رأى منكراً فليغيره بيده ..
- ١٩٦ وإن أيامه أربعون سنة ..
- ١٩٣ وعينه اليمنى عوراء جاحظة ..
- ١٣٩ يا رسول الله أكون بعد هذا الخير شرّاً، كما كان قبله شرّاً؟ .
- ١٩٦ يخرج الدجال في أمّتي فيمكث أربعين ..
- ١٨٧ يخرج الدجال فيتوجه قبله رجل من المؤمنين .
- ١٣٥ يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهدائي .
- ١٤٤ يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق ..

الفهرس الإحصائي للوجه البيانفة

أ - فهرس التشبيه بنوعيه

رقم الصفحة	أول الصورة
٥٢	أعور العين اليمنى كأنها عنبة طافية ..
٤٨	إذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض من البياض ..
٥٢	تنفي الخبث منها كما ينفي الكير خبث الحديد ..
٥٢، ٢٦	ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك ..
٥٠	ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبات اللؤلؤ ..
	ثم رفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقتها مثل قلال هجر، وإذا
٥٢، ٢٥	ورقها مثل آذان الفيلة ..
	دعاء الرسل يومئذ: اللهم سلم، سلم، وبه كلاليب مثل شوك
٣٨	السعدان ..
٤٥	سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا ..
٤٨	فإذا قصر مثل الرّابة البيضاء ..
	فإن الساعة كالحامل المتمم التي لا يدري أهلها متى تفجؤهم
٣٧، ٢٧	بولادها ..
٢٧	فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ..
٤٩	فضربت بيدي فيه فإذا طينه المسك الأذفر ..
٣٢	فيحشرون إلى النار كأنها سراب ..
٣٧، ٢٩	فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل ..
	ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر
٥٢، ٤١، ٣٩	بمنقاره ..
	نزلت عليه ملائكة غلاظ شداد فانتزعوا روحه كما ينتزع
٥٣، ٤٦، ٤٤	السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل ..
٥٢، ٤٦	وأمسك الله عنه جرية الماء حتى كان مثل الطاق ..
٤٩	يبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع ..

- ٤٩ يبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحُمر .
يدخل من أمتي زمرة هم سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة
القمر ليلة البدر .
- ٥٠
- ٥٢،٤٥ يرقون من الدين كما يرق السهم من الرمية .
يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه
فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى .
- ٣٠
- ٥٢ يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح .

ب - فهرس المجاز العقلي

رقم الصفحة	أول الصورة
٦٠	اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ..
٥٩	أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة .
٦١	حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما ..
	فأخذوا موثيقهم على ذلك وربي ، ففعلوا ، ثم اذروه في يوم
٦١	عاصف ..
٦١	وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض من البياض ..
٥٩	وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ..

ج - فهرس المجاز اللغوي بنوعيه

رقم الصفحة	أول الصورة
٨٧	أخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج .
٩٠	إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد ، إن لكم عند الله موعداً .
٩٧	انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي .
٦٧	إن ثلاثة كانوا في كهف فوق الجبل عليهم .
٧٢	إني قد أخرجت عبداً لي لا يدان لأحد بقتالهم .
٦٨	إني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم .
٨٥	ترفع الشحناء والتباغض ، وتنزع حمة كل ذات حمة .
٨٤	تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة .
٨٩	ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار .
٧٩	ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقدام .
	ثم يوضع له القبول في الأرض . . . ثم توضع له البغضاء في الأرض .
٨٥	حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله ، بر أو فاجر ، وغبرات أهل الكتاب .
٨١	فأصبح مكتوباً على بابه ، قد غفر الله عز وجل للكفل .
٩١	فأضلها فخرج في طلبها حتى إذا أدركه الموت .
٦٨	فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور .
٧٨	فقطع الناس بذلك حتى انطلقوا إلى آدم عليه السلام ، والعرق يكاد يلجمهم .
٨٦	فقال ربه : أعلم عبدي أنه له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ؟
٨٢	فولدت غلاماً ، فقالت : من جريح .
٧٠	فيأمر السماء أن تمطر فتمطر .
٧٠	

- ٧١ فيستغيثون بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلايب الحديد .
- ٨٧ فيقول : أبشر بهوان من الله وعذاب مقيم ..
- فيقول : أنا عمك الخبيث ، كنت بطيئاً عن طاعة الله ، سريعاً
٩٥ في معصية الله ..
- فيقول الله تبارك وتعالى للنار : أنت عذابي أصيب بك من
أشاء ، وقال للجنة : أنت رحمتي .
- ٧١ قال : فجمعوا ماغنموا فأقبلت النار لتأكله فأبت أن تطعمه ..
- ١٠٤-١٠٣
- ٩١ قال الله عز وجل : قد تجاوزت عنك ..
- قال : وما الكفارات والدرجات ؟ قال : المكث في المساجد ،
والمشي على الأقدام إلى الجمعات ..
- ٦٩ قالت النار : يارب يدخلني الجبابرة والمتكبرون ، والملوك
والأشراف ، وقالت الجنة : ...
- ٧٩ كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض ، فيجعل فيه .
- ٩٢ كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ..
- ٩١، ٦٦ ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث ..
- ٦٧ هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟
- ٩٨ ويأمر الأرض ، فتحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء .
- ٧٣ يجيء المقتول متعلقاً بالقاتل تشخب أوداجه دمًا .
- ١٠٥ يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار
٨٥ صبغة .

د - فهرس الكناية بأنواعها

رقم الصفحة	أول الصورة
١١٤	إنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال .
٨٣	تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة .
١١٥	الخييل معقود في نواصيها الخير إلى القيامة ..
١٠٩	فأخذت اللبن ، فقال : هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك .
١١٢، ٨٤	فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم ..
١١٢	فبذر ، فبادر الطرف نباته ، واستواؤه واستحصاده ..
١١٣	فتجلو وجه المؤمن بالعصا ، وتخطم أنف الكافر بالخاتم ..
	فتفرج لنا الأمام عن طريقنا ، فتمضي غمراً محجلين من أثر الطهور .
١١١	
١١٠	فقال : رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفري ..
٨٤	فيقول : كيف أدخل وقد نزلوا منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم .
١١٠	قال : ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب ..
٧٢	لاتبقى ذات ظلف إلا هلكت ..
١١٣	لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة ..

هـ - فهرس الصور الكلية

رقم الصفحة	أول الصورة
٩١،٦٢	أسرف رجل على نفسه فلما حضره الموت أوصى بنيه ..
٢١٥	إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل ..
٦٧،٦١	إن ثلاثة كانوا في كهف فوق الجبل على باب الكهف ..
١٤٨	إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ..
١٢٤	إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق ..
١٧٢	أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ..
٥٣،٣٦	إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا ..
٢٣٨	بينما رجل فيمن كان قبلكم كان في مملكته ، فتفكّر ..
٥٠،٢٦،٢٥	بينما أنا في الخطيم- وربما قال : في الحجر- مضطجعاً، إذ أتاني
١٠٩،٧٩	آت (حديث المعراج) ..
١٠١	تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان ..
١٨٦	غير الدجال أخوفني عليكم ..
	كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر .. (حديث
١٠٠،٥٩	أصحاب الأخدود) ..
	كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن
١٣٤	الشر ..
٢٢٧	لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات ..
٨٤،٥٢،٣٤	مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ..
١١٢	
٧٨	مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قومًا ..

فهرس المصادر والمراجع

ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد
المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر
تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد [الطبعة : بدون]
بيروت : المكتبة العصرية، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .

ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي
أ- الكامل في التاريخ
الطبعة : بدون
بيروت : دار صادر، ١٣٩٩هـ ..
ب- أسد الغابة في معرفة الصحابة .
الطبعة : بدون
المكتبة الإسلامية [التاريخ : بدون]

الأعشى .
ديوانه .
الطبعة : بدون
بيروت : دار صادر . [التاريخ : بدون] .

الألوسي ، شهاب الدين السيد محمود .
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني .
الطبعة : بدون .
بيروت : دار الفكر ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

أمين ، أحمد .
النقد الأدبي .
الطبعة الرابعة .
بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م .

أنيس ، إبراهيم .

الأصوات اللغوية .

الطبعة الخامسة .

مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٩ م .

الباقلاني ، أبو بكر ، محمد بن الطيب .

إعجاز القرآن .

الطبعة الثالثة . تحقيق : السيد أحمد صقر .

القاهرة : دار المعارف . [التاريخ : بدون] .

البخاري ، أبو عبد الله ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم .

صحيح البخاري .

الطبعة : بدون .

بيروت : دار الفكر . [التاريخ : بدون] .

بروكلمان ، كارل .

تاريخ الأدب العربي .

الطبعة الثالثة . ترجمة : عبد الحلیم النجار .

مصر : دار المعارف ، ١٩٧٤ م .

بلاشير .

تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي -

ترجمة : إبراهيم الكيلاني [الطبعة : بدون] .

بيروت : دار الفكر [التاريخ : بدون] .

اليومي ، محمد رجب .

البيان النبوي .

الطبعة الأولى .

المنصورة : دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

اليومي ، يوسف .

علم البيان .

الطبعة : بدون .

القاهرة : مطبعة عابدين ، ١٩٧٢ م .

- الترمذي ، أبو عيسى ، محمد بن عيسى بن سورة .
سنن الترمذي (الجامع الصحيح) .
تحقيق وتصحيح : عبد الوهاب عبد اللطيف [الطبعة : بدون] .
بيروت : دار الفكر ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .
- ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف .
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
الطبعة : بدون .
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٩٧١م .
- الفتازاني ، سعد الدين .
مختصر السعد «ضمن شروح التلخيص» .
الطبعة : بدون .
مصر : مطبعة عيسى البابي الحلبي . [التاريخ : بدون] .
- تيمور ، محمود .
القصة في الأدب العربي .
الطبعة : بدون .
القاهرة : مكتبة ومطبعة الآداب ، ١٩٧١م .
- ابن تيمية ، أحمد .
مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية .
جمع وترتيب : عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد [الطبعة : بدون] .
القاهرة : مطبعة إدارة المساحة العسكرية ، ١٤٠٤هـ .
- الجاحظ ، أبو عثمان ، عمرو بن بحر .
البيان والتبيين .
الطبعة : الخامسة . تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون .
القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- الجرجاني ، أبو بكر ، عبد القاهر بن عبد الرحمن .
أ- أسرار البلاغة .
الطبعة : الأولى . تحقيق وتعليق : محمود شاكر .
مصر : مطبعة المدني ، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .

ب- دلائل الإعجاز ..
الطبعة: الثالثة. تحقيق وتعليق: محمود شاكر.
القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

الجندي، علي .
فن التشبيه .
الطبعة: الثانية ..
القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.

الحاكم، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله ..
المستدرک علی الصحیحین فی الحدیث ..
الطبعة: بدون ..
بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

حجاب، السيد عبد الفتاح ..
من أسرار التركيب البلاغي ..
الطبعة: الأولى ..
المكتبة التوفيقية، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

حسان بن ثابت ..
ديوانه .
الطبعة: بدون .
بيروت: دار صادر. [التاريخ: بدون].
حسين، طه .
في الأدب الجاهلي ..
الطبعة: العاشرة .
مصر: دار المعارف [التاريخ: بدون].

حسين، عبد القادر ..
القرآن والصورة البيانية ..
الطبعة: الثانية .
بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

أبو الحسين ، مسلم بن الحجاج النيسابوري .
الجامع الصحيح .
الطبعة : بدون .
بيروت : دار الفكر . [التاريخ : بدون] .

الحموي ، ياقوت .
معجم البلدان .
الطبعة : بدون .
بيروت : دار صادر ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

ابن حنبل ، أحمد .
أ- مسند الإمام أحمد بن حنبل .
الطبعة : الثانية .
بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
ب- مسند الإمام أحمد بن حنبل .
الطبعة الأولى . تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر .
القاهرة : دار الحديث ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م .

أبو حيان ، محمد بن يوسف .
تفسير البحر المحيط .
الطبعة : الثانية .
دار الفكر ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
الخطابي ، أبو سليمان ، حمد .
أ- أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري .
الطبعة : الأولى . تحقيق ودراسة : محمد بن سعد آل سعود .
مكة المكرمة : مطابع جامعة أم القرى ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م .
ب - غريب الحديث
الطبعة : بدون . تحقيق : عبد الكريم الغزبائي .
دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .
الخطيب ، حسام .
محاضرات في تطور الأدب الأوربي .
الطبعة : بدون . مطبعة النصر ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

الخطيب القزويني ، جلال الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن .
الإيضاح في علوم البلاغة .

الطبعة الثالثة . شرح وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي .
بيروت : دار الجيل ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م .

خورشيد ، فاروق .

في الرواية العربية .

الطبعة : الثانية .

القاهرة : دار الشروق ، ١٩٧٥ م .

الدارمي ، أبو محمد ، عبد الله بن بهرام .

سنن الدارمي .

[الطبعة : بدون] .

بيروت : دار الفكر [التاريخ : بدون] .

أبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني .

سنن أبي داود .

مراجعة وتعليق : محمد محي الدين عبد الحميد [الطبعة : بدون] .

دار الفكر . [التاريخ : بدون] .

الدسوقي .

حاشية الدسوقي على شرح السعد «ضمن شروح التلخيص» .

[الطبعة : بدون] .

مصر : مطبعة عيسى البابي الحلبي . [التاريخ : بدون] .

الذهبي ، أبو عبد الله ، شمس الدين .

تذكرة الحفاظ .

[الطبعة : بدون] .

دار الفكر العربي [التاريخ : بدون] .

الرافعي ، مصطفى صادق .

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية .

الطبعة : الثالثة . [التاريخ : بدون] ..
الرماني ، أبو الحسن ، علي بن عيسى ..
النكت في إعجاز القرآن «ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن» .
الطبعة : الرابعة . تحقيق وتعليق : محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول
سلام .
القاهرة : دار المعارف ، ١٩٩١ م .

الزمخشري ، محمود بن عمر ..
أ- تفسير الكشاف .
الطبعة الثانية . تحقيق وتعليق : محمد مرسي عامر .
القاهرة : دار المصحف ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .
ب- أساس البلاغة .
[الطبعة : بدون] .
بيروت : دار الفكر . [التاريخ : بدون] ..

زهير بن أبي سلمى ..
ديوانه .
[الطبعة : بدون] ..
بيروت : دار صادر . [التاريخ : بدون] ..

الزير ، محمد بن حسن ..
القصص في الحديث النبوي ، دراسة فنية وموضوعية ..
الطبعة الثالثة ..
الرياض ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ..

السبكي ، بهاء الدين .
عروس الأفرح «ضمن شروح التلخيص» .
[الطبعة : بدون] .
مصر : مطبعة عيسى البابي الحلبي . [التاريخ : بدون] ..

السكاكي ، أبو يعقوب ، يوسف بن أبي بكر محمد ..
مفتاح العلوم ..
[الطبعة : بدون] ..

بيروت : الكتب العلمية . [التاريخ : بدون] .
سلام ، محمد زغلول .

دراسات في القصة العربية الحديثة .
[الطبعة : بدون] .

الاسكندرية : منشأة المعارف ، ١٩٨٣ م .

السيد ، عز الدين علي .

الحديث النبوي من الوجهة البلاغية .

[الطبعة : بدون] .

القاهرة : دار الطباعة المحمدية بالأزهر ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٣ م .

شعوط ، إبراهيم .

أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ .

الطبعة السادسة .

جدة : دار الشروق ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

الشرقاوي ، عبد الله بن حجازي .

فتح المبدي شرح مختصر الزبيدي .

[الطبعة : بدون] .

بيروت : دار المعرفة [التاريخ : بدون] .

الشريف الرضي ، أبو الحسن ، محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى .

المجازات النبوية .

تحقيق : طه محمد الزيني [الطبعة : بدون] .

القاهرة : مؤسسة الحلبي [التاريخ : بدون] .

الصباغ ، محمد .

التصوير الفني في الحديث النبوي .

الطبعة الأولى .

بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م .

الضبي ، المفضل بن محمد .

المفضليات .

الطبعة السادسة ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، وعبد السلام هارون .

بيروت . [التاريخ : بدون] .

الطبراني ، أبو القاسم ، سليمان ..

المعجم الكبير .

الطبعة الثانية ، تحقيق : حمدي السلفي ..

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ..

الطبي ، أبو الحسن أحمد بن إسحاق .

شرح مشكاة المصابيح ، المسمى بالكاشف عن حقائق السنن .

الطبعة الأولى . تحقيق : نعيم أشرف وشير أحمد ، وبديع السيد اللحام .

كراتشي : منشورات إدارة القرآن والعلوم الإسلامية ، ١٤١٣ هـ .

عبيد بن الأبرص .

ديوانه . [الطبعة : بدون] .

بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

ابن عثيمين ، محمد بن صالح .

رسائل في العقيدة ..

[الطبعة : بدون] .

الرياض : دار طيبة ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

العسقلاني ، أحمد بن علي بن حجر .

أ - الإصابة في تمييز الصحابة ..

الطبعة الأولى ..

بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٣٢٨ هـ .

ب - تقريب التهذيب ..

الطبعة الثانية . تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف .

بيروت : دار المعرفة ، ١٣٩٥ هـ ..

ج - تهذيب التهذيب .

الطبعة الأولى .

حيدرآباد : دار الفكر العربي ، ١٣٢٥ هـ .

د - فتح الباري ، بشرح صحيح البخاري ..

تصحيح وتحقيق : الشيخ عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي ، ومحج

الدين الخطيب . [الطبعة : بدون] .

دار الفكر . [التاريخ : بدون] .
العسكري ، أبو هلال .
الصناعتين .
تحقيق : علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم . [الطبعة :
بدون] .

مصر : مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٧١ م .

العلوي ، يحيى بن حمزة بن علي .
الطراز المتضمن لأسرار البلاغة ، وعلوم حقائق المجاز .
[الطبعة : بدون] .

مصر : مطبعة المقتطف ، ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م .

العيني ، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد .
عمدة القاري شرح صحيح البخاري .
[الطبعة : بدون] .

بيروت : دار إحياء التراث العربي . [التاريخ : بدون] .

الغرابي ، علي مصطفى .
تاريخ الفرق الإسلامية ، ونشأة علم الكلام عند المسلمين .
الطبعة الثانية .

مصر : مطبعة محمد علي صبيح ، ١٣٧٨ هـ .

الفخر الرازي ، محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر .
تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب .
الطبعة الأولى .

بيروت : دار الفكر ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

فنسنت ، سي .

نظرية الأنواع الأدبية .

الطبعة الثانية ، ترجمة حسن عون .

الاسكندرية : مطبعة المعارف ، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٨ م .

الفيروزآبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب .

بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز .

الطبعة الثانية ، تحقيق : محمد علي النجار .

مطبعة نهضة مصر، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقرئ.
المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي
[الطبعة : بدون].
[التاريخ : بدون].

القرطبي، أبو عمر، يوسف بن عبد الله.
الاستيعاب في معرفة الأصحاب (على هامش كتاب الإصابة في تمييز
الصحابة).

القسطلاني، أبو العباس، شهاب الدين.
إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري.
[الطبعة : بدون].
بيروت : دار إحياء التراث العربي . [التاريخ : بدون].

قطب، سيد.
التصوير الفني في القرآن.
الطبعة الثانية عشرة.
القاهرة، وبيروت : دار الشروق، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

قطب، محمد.
أ - مذاهب فكرية معاصرة.
الطبعة الأولى.
القاهرة، وبيروت : دار الشروق، ١٤٠٣هـ.
ب - منهج التربية الإسلامية.
الطبعة الرابعة.
القاهرة، بيروت : دار الشروق، ١٤٠٠هـ.
ج - منهج الفن الإسلامي.
الطبعة الثامنة.
بيروت، والقاهرة : دار الشروق، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

القيرواني، ابن رشيق..
العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ونقده..
الطبعة الثالثة، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد.

مصر، مطبعة السعادة، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م..

الكاندهلوي، محمد يوسف..

حياة الصحابة.

[الطبعة : بدون].

حيدر آباد : مطبعة دار المعارة العثمانية، ١٣٧٩هـ.

ابن كثير، أبو الفداء، إسماعيل.

قصص الأنبياء..

الطبعة الثالثة، تحقيق : مصطفى عبد الواحد.

مكة المكرمة، شركة مكة للطباعة والنشر، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م..

لاشين، عبد الفتاح.

البيان في ضوء أساليب القرآن.

الطبعة الأولى.

القاهرة : دار المعارف، ١٩٨٤م،

ابن ماجه، أبو عبد الله، محمد بن يزيد القزويني.

سنن ابن ماجه.

تحقيق وتعليق : محمد فؤاد عبد الباقي . [الطبعة : بدون].

بيروت : دار الفكر . [التاريخ : بدون].

المباركفوري، أبو العلي، محمد عبد الرحمن..

تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي.

الطبعة الثانية، راجعه وصححه : عبد الرحمن محمد عثمان.

مطبعة الفجالة الجديدة، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

محمود، علي عبد الحليم.

القصة العربية في العصر الجاهلي.

[الطبعة : بدون].

مصر : دار المعارف، ١٩٧٥م.

المراغبي، أحمد مصطفى.

علوم البلاغة..

الطبعة الخامسة.

المكتبة المحمودية . [التاريخ : بدون] .

المزني ، جمال الدين .

تهذيب الكمال في أسماء الرجال .

الطبعة الثانية ، تحقيق : بشار عواد معروف .

بيروت : الرسالة ، ١٤٠٥ هـ .

المغربي ، ابن يعقوب .

مواهب الفتح في شرح تلخيص المفتاح «ضمن شروح التلخيص» .

[الطبعة : بدون] .

مصر : مطبعة عيسى البابي الحلبي . [التاريخ : بدون] .

ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي .

لسان العرب .

تحقيق : عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله ، وهاشم الشاذلي .

[الطبعة : بدون] .

القاهرة : دار المعارف . [التاريخ : بدون] .

أبو موسى ، محمد .

التصوير البياني .

الطبعة الثالثة .

القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .

الميداني ، عبد الرحمن حبنكة .

روائع من أقوال الرسول ﷺ .

الطبعة الرابعة .

دمشق : دار القلم ، ١٤٠٧ هـ .

النابعة الذبياني .

ديوانه .

جمعه وشرحه : محمد الطاهر بن عاشور .

[الطبعة : بدون] .

الجزائر : الشركة الوطنية للتوزيع ، ١٩٧٦ م .

ناصر، علي النجدي ..
القصة في الشعر العربي . [الطبعة : بدون].
القاهرة : نهضة مصر . [التاريخ : بدون].

ناصر، مصطفى .
نظرية المعنى في النقد العربي .
الطبعة الثانية .
بيروت : دار الأندلس، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

نجم، محمد .
فن القصة .
[الطبعة : بدون] ..
بيروت : دار الثقافة . [التاريخ : بدون] ..

النسائي ، أبو عبد الرحمن ، أحمد بن شعيب بن علي بن بحر .
سنن النسائي .
الطبعة الأولى بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي ، وحاشية الإمام
السندي ..
بيروت : دار الفكر، ١٣٤٨هـ - ١٩٣٠م .

النووي، محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف الحزامي ..
صحيح مسلم بشرح النووي ..
دار الفكر، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م ..

ابن هشام الأنصاري، أبو محمد ، عبد الله جمال الدين .
مغني اللبيب عن كتب الأعراب .
تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد .
[الطبعة : بدون] .
بيروت : دار إحياء التراث العربي . [التاريخ : بدون] .

هلال ، محمد غنيمي ..
النقد الأدبي الحديث .
[الطبعة : بدون] ..

القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٧٩ م.

هيكل، محمد حسين ..

ثورة الأدب ..

[الطبعة : بدون] ..

القاهرة : دار المعارف، ١٩٧٨ م.

ياسين، عبد العزيز أبو سريع ..

أ - بلاغة القصر، دراسة نقدية تحليلية ..

الطبعة الأولى ..

مطبعة السعادة، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

ب - دراسة الباقلاني للنظم القرآني في كتابه إعجاز القرآن ..

الطبعة الأولى ..

١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.

ج - المجاز العقلي في البلاغة العربية ..

الطبعة الأولى ..

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

الدوريات

خفاجة، محمد صقر ..

«دراسة في فن القصة اليونانية» ..

المجلة : العدد : ٣٤ ، ١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩ م.

* * *

فهرس الموضوعات البحث

٥-ح	المقدمة
١٧-٢	التمهيد : القصة بين المجالين الديني والأدبي
	الباب الأول
١١٧-١٩	الوجوه البيانية في القصة النبوية من حيث الفكر البلاغي
٥٣-٢٢	الفصل الأول : التشبيه
٢٩-٢٥	١ - التشبيه المفرد
٤٧-٢٩	٢ - التشبيه المركب
٥٠-٤٨	- تقسيم التشبيه باعتبار أدواته
٥٣-٥١	- منازع صور التشبيه في القصة النبوية
٦٤-٥٥	الفصل الثاني : المجاز العقلي
	الفصل الثالث : المجاز اللغوي
٧٢-٦٦	١ - المجاز المرسل
١٠٦-٧٣	٢ - المجاز بالمشابهة (الاستعارة)
٩٨-٧٧	أ - الاستعارة التصريحية
٩٥-٧٧	١ - المفردة (الأصيلة والتبعية)
٩٨-٩٦	٢ - المركبة (التمثيلية)
١٠٢-٩٩	ب - الاستعارة المكنية
١٠٦-١٠٣	- بلاغة الاستعارة في القصة النبوية
١١٥-١٠٨	الفصل الرابع : الكناية
١١٦	- بلاغة الكناية في القصة النبوية

الباب الثاني

- ٢٤٣-١١٩ الوجوه البيانية في القصة النبوية من حيث الفكر
النقدي الحديث
- الفصل الأول : الحوار القصصي
- ١٣٢-١٢٤ ١ - البطاقة العظيمة
- ١٤٥-١٣٤ ٢ - دعاة على أبواب جهنم
- الفصل الثاني : المثل القصصي
- ١٧٠-١٤٨ ١ - وصايا الله الأُم في خمس كلمات للأُنبياء
- ١٨٣-١٧٢ ٢ - رفع الأمانة
- الفصل الثالث : الخبر القصصي
- ٢١٣-١٨٦ ١ - الفتنة العظمى
- ٢٢٥-٢١٥ ٢ - المجتمع المثالي
- الفصل الرابع : القصة الطويلة
- ٢٢٧ ١ - وسائل القوة
- ٢٣٦-٢٣٨ ٢ - إحياء الضمير اليقظ
- ٢٤٨-٢٤٥ الخاتمة
- ٢٦٤-٢٥٠ فهرس الآيات القرآنية
- ٢٦٨-٢٦٥ فهرس القصص النبوية
- ٢٧٠-٢٦٩ فهرس الأحاديث النبوية الواردة في ثنايا البحث
- ٢٧٨-٢٧١ الفهرس الإحصائي للوجوه البيانية
- ٢٩٣-٢٧٩ فهرس المصادر والمراجع
- ٢٩٥-٢٩٤ فهرس موضوعات البحث